

مِنْ خَدَائِكَ آثَارُهُمْ



محمد بن الغني حسن

محمد عطا

محمد علي دبر

محمد عبد الله عنان

محمد محمد حسين

مصطفى الحقاوي

لضلال ناجي

و ربيع فلسطين

و يوسف عز الدين

علي ازلهم

و عمر فروغ

علي الجندي

فريد حافظ طوقان

كامل السوافيري

كامل الكيلاني

محمد الدين الخطيب

و محمد صبري

الأمير مصطفى الشابي

محمد صبيح

خالد محمد خالد

خير الدين الزكي

خير محمد حماد

و زكي علي

عبد العزيز بن عبد الله

عامر محمد مجيري

عمر الدسوقي

عبد العزيز الديري

عبد الله كنوت

عز الدين الزمين

أبو الفضل إبراهيم

إبراهيم الأبياري

و أحمد الحوفي

أحمد حسين

أحمد الشراصي

أحمد عطية الله

و أحمد غلوش

و أحمد الشابي

و بروي طباية

محمد حافظ

أنور الجندبي

مِفْكَرُونَ وَارِثَاءُ مِنْ خِلَالِ أَثَارِهِمْ

الطبعة الأولى

دار الأرشاد

للطباعة والنشر والتوزيع

سنة ١٣٤٧ - بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَفَكَّرُوا فِي وَرُدِّ بَابِ مُحَمَّدٍ إِلَى آبَائِهِمْ

مدخل

مجال البحث : العالم العربي من المغرب الى العراق .
زمن البحث : بعد الحرب العالمية الثانية .

ما يزال الأدب العربي المعاصر يقدم كل يوم نتاجاً جديداً وأعلاماً جديداً ، وما يزال يوسع مجالاته ويعمقها في دراسات التاريخ والأدب والتراث والترجمة والنقد والقومية العربية والتراجم والدراسات الاسلامية . ومنذ اواخر الحرب العالمية الثانية الى اليوم لا تزال صورة الأدب العربي كله لم تكتب ، ذلك انها لا تزال في مجرى تفاعلها وتطورها الذي لم يثبت بعد على صورة شاملة .

لذلك كان لا بد من إلقاء أضواء على الكتاب الذين لمعت أسماءهم في هذه الفترة من خلال آثارهم ، ليكون بمثابة إبطار للصورة التي لم ترسم بعد ، ومن شأن هذا العمل ان يكشف عن وجوه التفاعل والحركة في مجال الأدب ، وأن يصور مختلف القضايا والتيارات الجديدة والقديمة والمتجددة . ومن هنا كانت هذه « الباقية » من الأدباء على مستوى العالم العربي بمثابة أضواء كاشفة للطريق .

وقتل هذه الدراسات وحدة متكاملة من ناحية مظاهر التطور في مجال

الدراسات الأدبية ، ومن ناحية تكامل اجزاء الوطن العربي في فكر كتابه
والمجائهم .

ذلك أنه منذ إنتهت الحرب العالمية الثانية برزت في العالم العربي مفاهيم
جديدة واتسعت آفاق البحث والثقافة ، وكان لتحرر معظم اجزاء العالم العربي
أثرها في تعميق مجالين للعمل الأدبي :

(١) الاول هو تحقيق التراث وحيائه وإعادة النظر فيه وتجديده في صورة
التراجم وكتابة التاريخ .

(٢) الثاني هو الاقتباس والنقل والترجمة من الآداب الغربية ، على اطلاقها .

ثم جرى في ضوء هذين التيارين مقابلة والتقاء وانصهار للقديم والجديد ، هذا
الانصهار ما يزال يتكيف بعد في صورته النهائية بما يحقق بروز فجر جديد
للفكر العربي متحرر من الجمود والتغريب معاً .

وأبرز ما تنقسم به الدراسات في هذه الفترة التي لا تقل عن عشرين عاماً هو
أعمال الموسوعات والدراسات الجادة الضخمة . كما تبدو في هذه المرحلة ظاهرة
التخصص ، فهذا أدب الطفل ، وهذا أدب قناة السويس ، وهذا تاريخ المغرب
الكبير ، وهذه دراسات الأندلس . ثم هناك دراسات القومية العربية وقد اتسع
نطاقها وتعمق مجراها ، ثم أعمال التراجم التاريخية بارزة في أعمال عدد
كبير من الباحثين .

وإذا كان مجال الدراسة هو [فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية الى اليوم]
فليس معنى هذا أنها قاصرة على الكتاب الذين ظهرت في هذه الفترة وحدها ،
بل على العكس من ذلك فإن عدداً كبيراً من الكتاب الذين لمعت أسماءهم قبل
هذه الفترة قد استطاعوا في هذه المرحلة أن يقدموا أعمالاً جديدة تميزوا بها عن

المرحلة السابقة من حياتهم الفكرية ، وأن أعلاما قد كان لهم تاريخ طويل قد استمروا في مجال العمل وقدموا دراسات جديدة ، ومعنى هذا ان فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية إنما تعني تصويراً لتفاعل الباحثين وأبحاثهم في فترة تبدأ من عام ١٩٤٦ الى اليوم ، ومذهبي في كتابة هذه الدراسات هي الربط بين الكاتب وآثاره ، إيماناً بأن صورة الكاتب لا تكتمل في عمل واحد من أعماله ، وان دراسة عمل من أعماله لا يكفي لإعطاء صورة واضحة له .

ولقد كان في تقديري دائماً ان لا انفصل بين المؤلف ومؤلفاته ، بل نواجه المؤلف وآثاره في نظرة شمولية متكاملة ، ذلك أن كتاباً ما لا يستطيع ان يعطي صورة كاملة عن الكاتب ، والكاتب إنما يعرف في مجموع آرائه وآثاره ، وان عرض أي كتاب منفصلاً عن طوابع كاتبه قد يحجب عن القارئ جزءاً من الصورة التي قد تساعد على فهم الكتاب نفسه .

واذا كان لنا ان نقول كلمة في مجال الدراسات الأدبية في هذه الفترة من خلال الشخصيات التي اخترناها ، فالتنا نجد أن الأدب العربي المعاصر يتطور ناحية الجد والدراسة العلمية والاثراء بالجديد من البحث وبالمجدد من التراث ، وهذا يعني أن المثقف في هذه المرحلة يستطيع أن يحدد بين يديه عشرات من المراجع والأبحاث التي تيسر له الغذاء الثقافي على نحو لم يصل اليه مثقفو الأجيال السابقة . اما مجموع الاعلام الذين ضمتهم هذه الدراسة فهم ألمع الشخصيات البارزة في مجال الأدب العربي المعاصر في هذه الفترة . وان انتاجهم هو عصارة الأدب العربي في هذه المرحلة .

ومن الحق ان نذكر أن هناك عديد من الأدباء الذين برزوا في هذه المرحلة من هم جذرون بالدراسة ، غير ان هذا السفر لا يعد إحصاء شاملاً للعصر أو دراسة كاملة للمرحلة ، وإنما هو محاولة لرسم إطار لصورة هذا العصر من خلال مجموعة منتقاة تمثل رؤوس الموضوعات المختلفة في هذه الفترة ونماذج لأعلام المدارس المختلفة . وان هناك كثيرون يمكن أن ينضموا الى هذه القطاعات .

واني لأرجو أن يتاح لي تقديم حلقة أخرى تضم مجموعة أخرى من كتاب هذه المرحلة : قدماء وجدداً على مستوى العالم العربي كله .

ويسرني أن أتلقي ما فاتني من آثار ودراسات عن هؤلاء الاعلام لضمها الى الأجزاء القادمة ، حتى يمكن أن تكتمل الصورة بما يعين الباحثين في الحصول على المادة التي تساعد على العمل

هذا ولا بأس أن نشير هنا الى ان « موسوعة معالم الأدب العربي المعاصر » ، التي صدر منها حتى الآن ١٨ مجلداً قد استطاعت ان تجري مسحاً^(١) شاملاً قريباً من الكمال للأدب العربي في العالم العربي منذ أوائل النهضة ١٨٧١ تقريباً الى أوائل الحرب العالمية الثانية . وان هذه الدراسة التي بين يدي القارئ اليوم هي أول عمل فيما بعد فترة الموسوعة .

وبالله التوفيق .

أنور الجندى

الهرم - القاهرة (يناير ١٩٦٧)

(١) ضمت الموسوعة دراسة عن ٤٠٠ من اعلام الأدب والوطنية والفكر والاجتماع .

مَفْكَرُونَ وَآرِبَاءُ مِنْ خِلَالِ آثَارِهِمْ

- | | |
|--------------------------|-------------------------------------|
| تحقيق التراث | ١ - أبو الفضل ابراهيم |
| تطور اللغة وبعث التراث | ٢ - ابراهيم الابياري |
| دراسات الاسلام والقومية | ٣ - الدكتور أحمد الحوفي |
| الوحدة الانسانية | ٤ - أحمد حسين |
| التراجم وشكيب أرسلان | ٥ - أحمد الشرباصي |
| الموسوعات ودوائر المعارف | ٦ - أحمد عطية الله |
| الدعوة الى الإسلام | ٧ - الدكتور أحمد غلوش |
| الدراسات الإسلامية | ٨ - الدكتور أحمد شلي |
| دراسات النقد الادبي | ٩ - الدكتور بدوي طبانه |
| السياسة العالمية | ١٠ - حمدي حافظ |
| بين الحرية والتراجم | ١١ - خالد محمد خالد |
| « الأعلام » | ١٢ - خير الدين الزركلي |
| الترجمة الى العربية | ١٣ - خيرى حماد : (الاردن) |
| الدعوة الى الإسلام | ١٤ - الدكتور زكي علي |
| التحقيق اللغوي والتاريخي | ١٥ - عبد العزيز بنعبد الله (المغرب) |
| الملاحم الشعرية | ١٦ - عامر محمد بحيري |

- ١٧ - عمر الدسوقي
تطور الأدب العربي
- ١٨ - عبد العزيز الدسوقي
الشعر الحديث
- ١٩ - عبد الله كنون : (المغرب)
تراجم أعلام المغرب
- ٢٠ - عز الدين الأمين (السودان)
دراسات النقد الأدبي
- ٢١ - علي أدم
الترجمة والدراسات الإنسانية
- ٢٢ - الدكتور عمر فروخ (لبنان)
الفكر العربي والتراجم
- ٢٣ - علي الجندي
الشعر ونقد الشعر
- ٢٤ - قدري حافظ طوقان (الأردن)
إيقاظ العقل العربي
- ٢٥ - كامل السوافيري (فلسطين)
شعر فلسطين
- ٢٦ - كامل الكيلاني
أدب الطفل
- ٢٧ - محب الدين الخطيب
مجلة الفتح
- ٢٨ - الدكتور محمد صبري
الأدب العربي المجهول
- ٢٩ - الأمير مصطفى الشهابي (سوريا)
الموسوعات اللغوية
- ٣٠ - محمد صبيح
دراسة القومية العربية
- ٣١ - محمد عبد الغني حسن
التراجم الذاتية
- ٣٢ - محمد عطا
مذاهب جديدة في الأدب
- ٣٣ - محمد علي دبوز (الجزائر)
تاريخ المغرب الكبير
- ٣٤ - محمد عبد الله عنان
الإسلام والاندلس
- ٣٥ - الدكتور محمد محمد حسين
تطور الأدب
- ٣٦ - الدكتور مصطفى الحفناوي
تاريخ قناة السويس
- ٣٧ - هلال ناجي : (العراق)
الزهاوي وشعره
- ٣٨ - وديع فلسطين
قضايا الفكر العربي
- ٣٩ - الدكتور يوسف عز الدين (العراق)
الأديب العربي والثورة

(٣٩ شخصية)

أبو الفضل إبراهيم تحقيق التراث

لا أعتقد أن الباحث في الأدب العربي المعاصر يستطيع أن يتجاوز عملاً ضخماً في مجال إحياء التراث وبعثه ، مثل العمل الذي قام به العلامة محمد أبو الفضل إبراهيم خلال أكثر من ثلاثين عاماً في تحقيق أكثر من ٣٠ كتاباً من ذخائر الأدب العربي بلغت مجلداتها سبعون مجلداً في عمل دائم لا يتوقف ، ومع ثقة لا حد لها من القارئ المثقف بأمانة التحقيق العلمي ، ومع صدق ويقين لا حد له بالعمل نفسه ، وإيمان غاية في العمق بالفكر العربي الإسلامي ومقوماته والآثار الضخمة المترتبة على إحياء التراث وبعثه . فإذا أضفنا إلى هذا أن باحثنا مؤلف أيضاً ، وأن له عدداً من الدراسات التي أضاف بها جديداً بلغت مجلداتها (١٤ مجلداً) بدت شخصية العلامة محمد أبو الفضل إبراهيم علاقة في مجاليه .

والحق أن العمل في ميدان « إحياء التراث وبعثه وتجديده » من أشق الأعمال ، وقد زاوله كثير من الباحثين بالإضافة إلى أعمالهم الأساسية ، فكان مصدر مشقة لهم ، فما بالك بباحث يتجرد لهذا العمل ويتوفر عليه ويجعله كل مشغله خلال ليله ونهاره لا يفرغ .

من هنا كان من حق الباحثين أن يصلوا الى أعماق العلامة أبو الفضل ابراهيم ، وأن يعرفوا الدوافع التي أتاحت له أن يقصر عمله الأدبي على التحقيق وبعث التراث ، وان يجد فيه متعة وأن يستعذب على متاعبه ومشاقه .

يقول : « ترجع صلتى بالتراث العربي وكتبه الأصلية الى النشأة الأولى وما وقع لي بعدها من ملاسات وظروف ، فقد كان أول ما قرأت من الكتب في القرية مما كان يكتنيه أبي - رحمه الله - في هذا الشأن (ديوان الحماسة) ، مما اختاره أبو تمام من شعر الجاهليين والإسلاميين ، فتعلقت بالأدب العربي في أجل أساليبه وأكرم معانيه ، ثم قرأت كتاب إحياء علوم الدين : للغزالي . ومنه نهلت الثقافة الإسلامية في أعذب مورد وأصفاه ، ثم كانت دراستي في الأزهر ودار العلوم وفيها أخذت بأسباب العلوم العربية والإسلامية على أوسع نطاق .

ثم شغلت بعض وظائف تتصل بالتراث إزدادت فيها خبرة واطلاعا ، فقد عملت مديراً للقسم الأدبي بدار الكتب المصرية ، وكان لهذا القسم غاية بعيدة المدى في النشر والتحقيق ، ومنهج مدروس للكتب والموسوعات ، ورسالة سامية كريمة نحو الثقافة العربية لها كل الوسائل من وفرة المراجع وتعدد المخطوطات وأنواع الفهارس ، الى مطبعة خاصة لها تقاليد في الطبع عريقة ، فكانت منشوراته تملأ الحافقين ، يترقبها الناطقون بالضاد والمشتغلون بالعربية من شتى الجهات ، والى ساحته كان يقصد أعيان العلماء من الأقطار العربية والمستشرقون في أوروبا وأمريكا وغيرهم من الشعراء والأدباء والكتاب ورجال الأزهر والجامعات ، وفيه كانت تعقد الندوات وتدور المناقشات وتفتح الآمال نحو الكتب والنشر والتحقيق .. ثم كنت مديراً للشئون المكتبية ، وفي هذا العمل تمكنت من معرفة الكنوز المحبوبة من الكتب ومن الاطلاع على النفائس والنوادر مما تكتنيه الدار أو تحويه مكباتها الخاصة مثل التيمورية والزكية والشفيطية ومكتبة حلیم والحسيني وغيرها عدا ما اجتلبته الدار بالتصوير من شتى مكبات العالم .. ثم كان عملي الآن رئيساً للجنة احياء التراث الإسلامي بالمجلس الأعلى

للشئون الإسلامية على منهج علمي أصيل ، تسير به في موكب النهضة العربية وتشارك في الوثبة الثقافية الحاضرة ، بما تبعته من تراث عربي أصيل وما تثير به في الشباب من الاعتزاز بأبجادهم البعيدة وماضيهم الذهبي العتيق ...

كل هذه العوامل مجتمعة وثقت علاقتي بالتراث العربي ، حتى أصبحت هذه العلاقة شغفاً وغراماً ، وجعلتني أو من إيماناً أكيداً بتاريخ الأمة العربية في شتى ميادين الثقافة والحضارة ، كما أمنت أنه لا يمكن لهذا التاريخ أن يعرف على الوجه الصحيح الا اذا نشرت النصوص العربية نشرأ سليماً علمياً على أوسع نطاق ، وأصبح حتماً على من استطاع الى ذلك سبيلاً أن يقوم بواجبه على قدر جهده وهذا هو الذي دعاني أن اعيد حياتي الأدبية في هذا الميدان .

* * *

وعند العلامة أبو الفضل ابراهيم أنه لا يظن أن هناك لغة من اللغات زحرت بموروث الثقافة والفكر والمعرفة والعلم ما يوجد باللغة العربية في مختلف الميادين ، مما صنعه الادباء والدارسون وشاركوا به في دفع موكب الحضارة والسير بالجمتمع الانساني الى غايات الحق الخير والجمال .

ومن قبل لإختراع الطباعة بمئات السنين كان الكتاب العربي ينتشر بواسطة النسخ ، وهو العلم الذي اصطلح على تسميته قديماً بإسم الوراقنة ، فما تكاد تصدر الكتب عن مؤلفيها حتى يسارع هؤلاء بكتابتها وانتساخ عدد منها ، وتصحيحها وتجليدها وتذهيبها ، ثم تنتشر في سائر الانحاء وتصل الى خزائن الخلفاء والأمراء ، ومن هؤلاء الوراقين علماء اشتهروا بحودة الخط والتفوق فيه ، منهم أبو موسى الحامض ، وأبو عبد الله الكرمانى ، وابن الهيثم ، وعبد الله ابن ابراهيم الخيري ، وأبو غسان ، وأبي عبيدة وغيرهم . وهو عالم ضخم واسع الآفاق . فقد كان للرشد والمأمون والبرامكة والخلفاء الفاطميين وملوك الأندلس «وراقون» يختصون بنسخ الكتب لحزانهم .

ويرى العلامة أبو الفضل إبراهيم وهو يروي قصة التراث العربي : أن مدار الجودة عند هؤلاء كان وضوح الخط وسلامته وامانة الناسخ ومدى علمه وفقهه ، ومن دلائل صحة المخطوطة أن تكون بخط مؤلفها أو مما قرئ عليه وأجازه ، أو بما وقع لها من المقابلة والمطالعة .

وقد ظلت دولة الوراقه رائجة حتى أنشئت أول مطبعة عربية في الآستانة ١٤٨٥م . ثم انتشرت المطابع في سوريا ولبنان ومصر ، وكلما ازدادت الطباعة إزدهاراً تقلص ظل الوراقه .

ويستطيع العلامة أبو الفضل إبراهيم أن ينظر نظرة شاملة كلية الى التراث العربي ، مثلاً في تلك الخزائن الضمخة العتيقة في مكتبات المتحف البريطاني في لندن والمكتبة الاهلية في باريس والاسكوريال بأسبانيا وشتى مكتبات الآستانة ودمشق والمدينة المنورة وصنعاء وطهران والرباط وتونس والمغرب والجزائر ، وان يعرف هذا الكتاب او ذاك في أي هذه المكتبات وكـم مرة طبع وعام كم ، وهو في هذا شيء رائع حقاً ، ثم هو يعرف عيوب هذا المخطوط وأخطائه وجودة هذا الكتاب المحقق ، وتلك خبرة عمر كامل تزداد بالعمل والمراجعة والاتصال بالعاملين في حقل التراث العربي وهم كثيرون اليوم ، فقد طبع في السنوات الخمسين الأخيرة مئات من هذه الكتب في مصر والعراق وإيران ، يقول العلامة أبو الفضل إبراهيم : إنه على وفرة ما طبع من الكتب فإن أضعافها ما زال محفوظاً مخطوطاً في خزائن الكتب لا يعرفه إلا القليل وفيه النادر والنفيس ، وكثير مما طبع شاع فيه الخطأ والتعريف والتصحيح وأعوزه التحقيق وحسن العرض وجمال الأخراج .

* * *

ولكن أي صناعة هذه : صناعة تحقيق التراث ، هل هي شاقة بالصورة التي تنصورها ؟ ، يقول : « ان التحقيق مسلك وعمر ، ومركب بعيد المثال ، لا

يستطيع أن يعانيه إلا من آنس في نفسه سلامة الذوق وصفاء النفس وغازاة
الاطلاع ووفرة الحصول وأن يكون بصيراً بالاساليب العربية في مختلف
مناحيها ، عارفاً بموارد الكلام ومصادره ، فطناً لصحيحه وفاسده ، صادق
الحدس في مواضع الخطأ والنقص ، كيساً في معالجة الاساليب المضطربة وكشف
النقاب عن الالفاظ المستعجمة ، الى جانب أن تكون له مشاركة في الكتاب
الذي يحققه ، وخبرة بمصادره واهدافه ومراميها ، بعد أن يكون أميناً مخلصاً
حريصاً على سلامة العربية مما يطرأ عليها من التحريف والتصحيف والابهام .

هذا رأي أبو الفضل ابراهيم ، وعندي أنه « هو » نموذج بشري لتطبيق
هذه الصورة . فقد جلسنا اليه طويلاً واستمعنا الى حديثه في ندوة الجمعية التي
يقعها في مكتبه في مصر الجديدة وتضم كثيراً من الباحثين ، إنه مثل للعالم
المتواضع السمع ذي المظهر البسيط والمجاملة الرقيقة حتى لتمعج أن تتصور ان
هذا الرجل هو ذلك المحقق المدقق الحنبلي في تحقيق النص الأمين عليه والغيور
حتى تناهت في الآفاق سمعته بالوفاء لبحثه والامانة به .

والحق أن علماء العرب والمسلمين كانوا كذلك ، خفض جناح وبساطة نفس
وسماحة طلعة مع ايمان عميق ، ولم يكونوا على النحو الذي عرفه الناس في
السنوات الاخيرة من أن يكون العالم خيفاً عنيفاً له رهبة وهيبة حتى يخشى
الناس الاقتراب منه ، او يتحدث اليه ، انما تكون الهيبة والرهبة في نفوس
الناس نتيجة للتقدير البالغ لعمل الباحث ولا تكون مفروضة من الخارج .

* * *

ويرى العلامة ابو الفضل ابراهيم أن أول خطوات التحقيق ، أن يكون لدى
محقق الكتاب جميع نسخ الكتاب الاصلية والمطبوعة ان كان مما سبق طبعه
وما وقع على الكتاب من إختصار أو شرح أو تهذيب أو تعليق ، ثم ترتب هذه
النسخ بحسب أصالتها ويختار ادائها الى الصحة أصلاً يدور عليه التحقيق .

وثبتت فروق النسخ في الحواشي بعد أن يبقى في الأصل النص المختار الذي يترجح عند المحقق أنه الصواب .

ويرى باحثنا أن هناك من يسرف في إثبات هذه الخلافات ، ومنهم من يختار النص الذي يصح عنده ، وعنده أن كلا المذهبين غير مستقيم ، وأن أمثل الطرق هي إثبات الفروق ذات الدلالة والاشارة الى الالفاظ التي وقع عليها الترجيح على حسب ما يبدو للمحقق من وجه الصواب فيه .

الامر الثاني : على المحقق أن يعنى بمراجعة المصادر التي أخذ عنها مؤلف الكتاب ، أو الكتب التي نقلت عنه .

الامر الثالث : عمل ما يقتضيه التحقيق من التعليق والشرح والايضاح ، ويرى باحثنا أن التعليق أمر حتم لازم لأنه يعين على فهم الكتاب وييسر الانتفاع به ، ويضيف معارف أخرى الى معارف المؤلف .

الامر الرابع : لا يكفل التحقيق الا إذا صنعت له الفهارس التي تنبثق من روح الكتاب وموضوعه ، والرأي أن تضع الفهارس للكتاب بأجمعه ولكل أجزائه وان تقتصر على ما ورد فيه دون حواشيه .

الامر الخامس . أن يخرج الكتاب كما وضعه مؤلفه دون حذف أو تغيير ودون إخلال بترتيب الفصول والابواب .

* * *

هذا هو مذهب العلامة أبو الفضل ابراهيم في تحقيق التراث وهو النهج الذي طبقه في تحقيق المؤلفات التي قام عليها وجميعها من أشهر روائع التراث العربي وعيونه : أمالي المرتضى ، ابناء الرواة على أبناء النحاة ، أعلام النبلاء ، البرهان في علوم القرآن ، تاريخ الطبري ، ثمار القلوب للثعالبي ، ثمرات

الأوراق لابن حجة؛ شرح نهج البلاغة وطبقات النحويين للزبيدي ، والصناعتين
لأبي هلال العسكري ، والكامل للمبرد ، والمزهر للسيوطي وعدد آخر من
آثار التراث .

أما أبو الفضل ابراهيم المؤلف ، فذلك عمل آخر في حاجة الى دراسة .
وأبرز آثاره : قصص العرب ، وقصص القرآن ، وإيام العرب في الاسلام ، وإيام
العرب في الجاهلية ، وشرح نهج البلاغة .

● أبو الفضل ابراهيم : « محمد أبو الفضل ابراهيم » : من مواليد ١٩٠٥ في صعيد مصر
ومن خريجي دار العلوم ، ومن مؤسسي جمعية الشبان المسلمين ١٩٣٢ .
من مؤلفاته :

قصص القرآن (بالاشتراك) ١٩٦٥ .

اطوار الثقافة والفكر (بالاشتراك) ١٩٥٩ .



ابراهيم الابياري تطوير اللغة وبعث التراث

قلما يتحقق لكاتب أو باحث أن يعرف طريقه الحقيقي منذ الشوط الأول ،
ويسير فيه منذ الخطوة الأولى ، فيعمقه ويوسعه ويعطيه من ذاته وشبابه وجهده ،
حتى يصبح علماً عليه ، كما حدث ذلك لابراهيم الابياري ..

الشاب خريج دار العلوم عام ١٩٢٩ ، أول من شق طريق التحقيق العلمي
للمخطوط العربي ، في وقت لم يكن هذا العمل ميسوراً أو متاحاً للثقفين من
أبناء المدرسة الحديثة ، ويوم كان قاصراً على فئة قليلة من علماء الأزهر وبعض
السوريين من تلاميذ المستشرقين .

ليست هي المصادفة على كل حال التي اتاحت له ان يعمل في مطالع حياته
بالقسم الأدبي في دار الكتب ، مع أحمد زكي العدوي وعبد الرحيم محمود ، وإلا فقد
كان في استطاعته أن يحول طريقه ، ولكنه التقى في هذه الفترة برجلين كان لهما
أثرهما في تعميق خبراته ومواصلة طريقه في هذا العمل هما : محمد كرد علي
وأحمد أمين .

وقد أوسع هذه المدرسة من بعد ودخلها الكثيرون ، وأصبح تحقيق المخطوطات فناً وضع قواعده الاولى رجال لهم ذوق قبل ان يكونوا من أعلام اللغة . فقد كانت دار الكتب تزخر بالمراجع ، ولكن التحقيق العلمي للمخطوط لم يكن متاحاً على النحو الفني الرفيع ، وإذا كان تصويب الأسلوب واللغة هي « المظهر الأول » لتحقيق المخطوط فان القدرة الادبية والذوق الفني هما « المخبر الأساسي » للعمل .

اذن ، كيف استطاع ابراهيم الإبياري ان ينقل خطواته في هذا الطريق المخوف ، لعل لحة من لمحات مطالع حياته تعطينا الدلالة ، كان الطالب ابراهيم الابياري من ابناء طنطا يسكن قريباً من المسجد الأحمدى ، ويتردد على دكان العطر كل أصيل ، فيلقى هناك صفوة العلماء ، يتحدثون في الأدب ، ويتطارحون الشعر .

و « دكان العطر » ، وصاحبه الشيخ سماحه ، على باب السر ، كانت ندوة للعلماء ، لا يبيع صاحبه إلا زجاجات الفل والياسمين والورد ، والشيخ سماحه نفسه مثل من أمثله الذوق في لباسه الانيق ، وسماحة وجهه ، واشراق نفسه ، في هذا الحمى حيث تشرق العاطفة الروحية ، وتعقد حلقات الذكر ، ويتحدث العلماء . وعند دكان العطر ، تكونت الصورة الاولى للذوق في نفس الشاب الذي شغل نفسه من بعد بتحقيق المخطوطات فبلغ فيها الذروة ، واستطاع ان يقدم عشرات من الآثار الرائعة في خلال ثلاثين عاماً ، لم تكن كل جهده وعمله .

ولم يكن دكان العطر ومجلس العلماء فحسب ، ولكن كانت هناك مكتبة الشيخ محمد كامل البهي الازهري الذي تعلم الحقوق الفرنسية ، شيخ الحنفية وصاحب المكتبة الخاصة ، وشقيق الدكتور احمد تركي وزير البحث العلمي ، ورفيق طفولة الإبياري ، حيث كانت الكتب القديمة تجمع عند الشيخ كامل أكواما ، فلا يجد من تعتمد عليه في ترتيبها غير تركي والإبياري . أما تركي فكان

ينفر من الكتب الصفراء ويتطلع الى الانابيق ، أما الابياري فقد عشن وأفرخ في ظلال هذه المكتبة ، فهو مشغول بها طوال نهار اجازة الصيفية يقرأ ويرتب ، ولا يصبر على ان يعود الى بيته ليأكل ، فيحمل معه رغيفه وادامه يتناوله في المكتبة ، هنالك اتحت له فرصة الحياة ، فرصة التعرف الى مئات من الكتب القديمة والالمام بالمراجع وأمهات التراث . فلما أتيح له ان يدخل دار العلوم كان الطريق قد فتح فعلاً الى الأفق الذي اختاره له القدر .

وفي دار الكتب مضى الابياري يمش و يرقم ويحقق ، واعتمدوا عليه قبل أن يدلوه على الطريقة ، ولكنه استطاع بإرادته القوية أن يصمد للعمل ، وان يصل ... عيون الاخبار ، الاغانى ، مسالك الابصار ... فقه اللغة للشعالي ، السيرة لابن هشام ، التبيان للمكبري في شرح ديوان ابي تمام ، المعجم لأبي هلال ، ديوان عبد المطلب .

ومع السقا وشاكر وعبد السلام هارون مضى في الطريق : الحيوان للجاحظ ، ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ، ومع لجنة احياء آثار ابي العلاء ، ومع أحمد امين ، ومع لجنة التأليف ، كان ابراهيم يعمل في قوة وحيوية ، ويمجري في طريق كان هو من الذين عبّده أصلاً .

* * *

غير ان طريق تحقيق المخطوطات لم يلبث أن تفرع وتوسع ، فاتصل بالتحقيق اللغوي من خلال عمل كبير هو المعجم الكبير ، الذي شارك فيه مع طه حسين ومراد كامل وحسين يوسف .

وفي خلال هذا العمل الفكري كان الابياري يعمل بالتعليم ، حفيماً بأن يظل في القاهرة فعلاً ، فلا يغريه الحصول على الدرجة في ان يسافر الى اقاصي الصعيد ، حتى لا يتقطع عمله الثقافي ، فلا يلبث أن ينشئ « حصة » مكتبة قبل أن تفكر فيها وزارة (المعارف) .

ثم يجعل موضوع الانشاء عصاره كتاب من المؤلفات ، ثم لا يلبث أن
تنشئ إدارة لتحقيق التراث في وزارة الثقافة ، صغيرة حية الى جوار إدارة
الترجمة فيتولاها ، ولا يقف عند التحقيق والبحث اللغوي ، فيكتب في تاريخ
العرب والاسلام عدداً من المؤلفات :

مغيب دولة ، ميلاد دولة ، كافور الاخشيذ ، صلاح الدين .. هادفاً في هذا
الاتجاه الى مفهوم واضح في نفسه ، ربما اشار اليه في مقدمات هذه الكتب ، فهو
يريد أن يبرز مكانة مصر في العالم العربي ودورها الذي لعبته في تجميع هذه
الامة ، وما لقيت في سبيل ذلك من جهد صبرت عليه واستعذبت ، وضحت في
سبيل حماية لواء العروبة ، يقول : « رأيتني حين أتناول هذا الحديث أجعل
الرأي هدي في التاريخ وسيلتي » ، وكأننا أراد ان يجعل من الحقائق التاريخية
وسيلته الى تدعيم رأيه وإثباته .

وهو في هذا « مواطن يحب الخير لأمته » ، فهو اذا وجد ظفراً فرح به واذا
وجد ضعفاً ساءه ، وهو يريد أن يشرك قومه في كل ما يحيد .

* * *

ثم يتاح للاباري في سبيل تعميق فكره ورسالته ان ينشئ معهداً اسبانياً
للدراستات الاسلامية في مدريد ... ويشرف عليه (١٩٥٠ - ١٩٥٣) ، فيجد
مجاله في العمل الكبير للفكر العربي الاسلامي ، حيث يبدأ في تعليم العربية
للاسبان وهي ليست بعيدة عنهم ، ثم يبدأ في عمل [قاموس اسباني عربي ،
عربي اسباني] ، ويجري تحقيق نصوص اندلسية ، وإنشاء مطبعة ، وحروف
تصب في مطبعة بولاق وعمال من المغرب يتولون جمعها ، حيث بدأ يشرق فكر
جديد في اسبانيا يكشف عن الثقافة العربية الاسلامية ، والناس هناك هم عرب
في صميم قلوبهم ، حيث تضم لغتهم حتى الآن بعد كل التصنيفات التي جرت في ١٤
المائة ، غير أن حركة التغريب العاتية لم تلبث ان وقفت في وجه هذا العمل

وتجمد المعهد من بعد ، ومهما يكن من نتيجة التجربة فانها أضافت الى نفس المحقق العربي إمدادات جديدة دفعته في طريقه الواضح في نفسه : طريق « المدرسة الوسطى » مدرسة البناء على الاساس . ثم اذا هو يعود وقد كون فكرة عن عمل كبير ، هو امتداد طبيعي وتطور حقيقي للمفاهيم القائمة في اعماق النفس ، والتي كانت صورتها الاولى هي « تحقيق النصوص » ، ذلك انه لا بد من اجل بناء ثقافي حقيقي لهذه الأمة من عمليين هما :

تطوير اللغة وبعث التراث ، ولا قومية عربية بغير لغة ، واللغة لا تبدأ إلا اذا كان هناك معجم ، فالمعجم هو كتاب البدء في اللغة...

وذلك هو العمل الذي بدأ يحققه في مجاله الجديد في وزارة الثقافة ، ومؤسسة الانباء والنشر حيث يلي منصب المستشار . وقد تدرج بالمعاجم الى خمس مراحل في مجال الألفاظ كما تنطق وكما تشق ، وكما تترادف ، وكما يجري تداعي المعاني . وكذلك تتبلور فكرة « تحقيق النصوص » عنده الى عمل كبير في مجالات ثلاث :

الأدب والتاريخ واللغة ، فلا أدب بغير نص ، ولا تاريخ بغير وقائع ثابتة ، ولا لغة بغير فن ... فما الذي يمنع ان تبرز موسوعات ثلاث تستوعب كل منها عصارة ما هنالك من تراث على نحو يقضي على التكرار والتعارض . ذلك أن أغلب كتبنا القديمة مخطوطة ومطبوعة ، تتكرر في الأصول والأوليات ، ثم تتوسع في مراحل ، فلا ضير إذن من القضاء على هذا التكرار ، والتقاء الاجزاء الجديدة حلقة بعد حلقة ، في موسوعة تتفق مع روح العصر ، وتقدم عصارة غير مكررة ولا مضطربة ولا متعارضة ، مما يحقق للمثقف العربي الجديد حاجته وفق روح العصر ، مع المحافظة على تلك الثروة الاساسية من تراثنا وفكرنا القديم المتجدد المتطور .

* * *

هكذا تبدو الصورة الآمنة في ذهن الرجل الذي بدأ العمل منذ ثلاثين سنة في ميدان تحقيق المخطوطات ، كصورة حية نابضة للوصول الى عمل كبير ظل يتكشف مع الزمن ، وزادته الخبرة والاتصال بالمجالات الفكرية المختلفة في داخل الوطن العربي وخارجه قوة وتلبوراً ، ولا عجب في ذلك فان ابراهيم الابياري تلميذ أصيل للمدرسة الفكرية التي صنعتها (دار العلوم) في بلادنا ، وهي المدرسة التي تحررت من قيود مدرستي التقليد في صورة الجمود ، والتجديد في صورة التطرف ، وهي التي خلقت ذلك التيار الوسط النابع من أعماق هذه الأمة ، وقوامه امتزاج المحافظة بالتجديد على نحو لا وجود فيه ولا تطرف ، والذي برز من بعد في مجاله البناء ، حين دعا الى قيام قاعدة اساسية للفكر العربي قوامها ملامح واضحة لشخصيتنا وقيمتنا مع فتح النوافذ للثقافات المختلفة ، التي تضيف الى شخصيتنا قوة وحياة ، وتدفعنا الى مسيرة التطور والنهضة العالمية دون ان نفقد كيانتنا أو نكون تابعين أو مستوردين أو ضائعين .

● ابراهيم الابياري : من مواليد ١٩٠٥ بمدينة طنطا ، ومن خريجي دار العلوم ، عمل فترة طويلة في التحقيق بالاشتراك مع الدكتور طه حسين . تخصص في دراسات التاريخ الاسلامي .

من مؤلفاته : البطل صلاح الدين والدولة الأيوبية ١٩٦٢

نهاية المطاف (الدولة الفاطمية) ١٩٦٢

مغرب دولة (الاندلس) ١٩٥٨

ميلاد دولة ١٩٥٩

الوليد بن يزيد والدولة الاموية ١٩٥٨

مع الايام (ذكريات)

معاوية : الرجل الذي انشأ دولة ١٩٦٢

بني البر : مختصر سيرة ابن هشام .

(٣)

الدكتور أحمد الحوفي دراسات الإسلام والقومية العربية

عندما تدخل القومية العربية والوحدة العربية ، مجال الدراسات العلمية ذات المنهج العلمي القائم على قواعد وأساليب ومقومات ، يكون معنى ذلك أن حقيقة كبرى تأخذ مكانها في مجال الفكر العربي على أسس العقل والمنطق ، بعد أن كانت تحمل طابع العاطفة ، وتكون أقرب الى مداخل السياسة والاعمال الوطنية التي تقوم بها الهيئات والمنظمات . فنحن في كل يوم نتلقى بحثاً جديداً في هذا المجال يتناول قطاعاً فيستقل به ويضعه موضع الدرس العلمي . وهذا بالفعل ما قام به الدكتور أحمد محمد الحوفي أستاذ الأدب العربي بكلية دار العلوم بالقاهرة ، عندما أتبع له في خلال السنوات الأخيرة ، أن يحصل على كل — أو أغلب حتى لا نكون مبالغين — نماذج الشعر العربي الذي نظمه شعراء في العالم العربي عن القومية العربية والوحدة الكبرى . فاذا به بأناة العلماء وسعة صدرهم ، حيث لا تطاردهم صحف تطلع في مواعيد معينة ، أو ماكينات تدور في مواقيت محددة . فاذا به يراجع هذه النصوص ويصنفها ويدرسها ، ويحاول أن يستخلص منها نظرية جديدة للقومية العربية والوحدة الكبرى ، قد تختلف كثيراً أو

قليلاً عما كتب دعاة الفكر أو السياسة أو الكتاب والصحفيون . ولست أقول أنه أصدق حساً ، ولكنني أقول أنه أقرب إلى الحق ؛ بأسلوبه العلمي وأدواته الفنية وأسانيده ووثائقه ذات الدلالة الأكيدة على الحقيقة المقررة ، ولا شك كان الشعر حادي الوحدة العربية وأول أصدائها .

من أجل هذا جاء بحثه في دور الشعر في بناء القومية عميقاً مدعماً ، فدعائم القومية عنده هي : اللغة والوطن والتاريخ والثقافة والجنس والدين :

يقول : إن كنت في هذه الدعائم أخالف بعض الباحثين ، فإني أرى الدين دعامة من دعائم القومية في غير ما حرج لدين آخر ، فالدين هو الكيان الروحي للأمة ، هذا الكيان الروحي مشترك ما بين الإسلام والمسيحية ، وهذه الثقافة العربية بطبيعته أكبر ينبوع من ينبوع الثقافة العربية المشتركة ، وبهذه الثقافة العربية يعتز المسلم والمسيحي . وناحية أخرى هي أن الأغلبية الساحقة في الأمة العربية مسلمون ، وهم في الوقت نفسه يقدررون المسيحية ويعترفون بها ويحلون السيد المسيح . ولقد كان التسامح أصلاً من أصول الاسلام ، وبذلك ليس هناك فجوة أبداً . وعنده أن الشعراء سبقوا الساسة في الدعوة الى وحدة الأمة العربية منذ عام ١٨٧٥ ، وربما كان ابراهيم اليازجي في قصيدته المشهورة مسبوqاً بغيره ، يقول في تحليل ذلك ... يبدو لي أن الساسة جميعاً أو أكثرهم كانوا مقيدين بعدة قيود ، إما الاستعمار أو الرهبة منه ، أو الإبقاء على المناصب ، أو الخوف على المال ، على حين كان الشعراء طلقاء متحررين من هذه الأصفاد ، فهتفوا بالوحدة حيث لم يكن غيرهم في الميدان يهتف .

وهذا كتابه « وحدة اللغة والوطن في الشعر الحديث » حلقة أولى من هذه الدراسة الضخمة .

ولقد رأيت الدكتور الحوفي معنياً بالشعر في أغلب دراساته ، فهو قد أوغل في دراسات الشعر الجاهلي ، في دراسات متعددة عن المرأة في الشعر الجاهلي ، والحياة العربية في الشعر الجاهلي ، وأغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي ، وأخيراً الغزل في العصر الجاهلي .

ويتصل بالشعر دراسته الكبيرتان عن شوقي : وطنية شوقي ، والإسلام في شعر شوقي . وله تحت الطبع فرسان الشعراء .

وبدا لي هذا الاتجاه عجبياً ، ولكنني تبينت أنه كان شاعراً في مطالع حياته وقد قال شعراً كثيراً ، ونشره في مجلة الصباح أيام تجهيز دار العلوم .

وربما كان سر اهتمامه بالشعر : أنه - أي الشعر - يصور ملامح المجتمع وخصائص الأفراد أكثر مما يصوره النثر .

فاذا أضفت الى ذلك اهتمامه بالخطابة ودراسته لفن الخطابة ، وكيف أنه كان خطيباً وعضواً في لجنة الكلية التنفيذية العليا في مصر عام ١٩٣٥ ، ولهم تاريخهم ووقفهم أيام « تصريح هور » بدا لي أن أفهم شخصية الدكتور أحمد محمد الحوفي .

فهذه الصورة التي ترسمها في مجموعها ، تعطي صورة الرجل الشاعر الخطيب المعني بالكلمة ذات الرنين والجرس ، الحفي بالبلاغة فهو محب للشعر الجاهلي ، لانه وجد فيه صورة هذه الأمة ، وكيف كانت قبل الإسلام أصيلة عالية ماجدة . وأنها لولا مجدها وعلوها ما اختارها الاسلام .

ولكأنه مكلف بأن يرفع الظلم عن التاريخ الأدبي ، أينما وجده . فالشعر الجاهلي في العصر الجاهلي كان مظلوماً أشد الظلم ، وعنده أن الذين يعرفون عنه القليل أسرفوا في حكمهم الظالم على العرب ، والذين يجهلونهم في حاجة الى من يدلهم عليه .

ومن هنا يقول : قرأت لأعرف الحقيقة ، فاتضح أمامي حقائق كثيرة ، تبينت منها ألواناً كثيرة تتصل بأصالة هذا الشعر وقيمتة الفنية ، وثقافة الأدب ورقى أعلامه بالنسبة الى الامم المعاصرة لهم .. وقد أوصله هذا الى نتيجة اطمأن اليها غاية الإطمئنان ، تلك هي :

أن الشعر الجاهلي أصدق مصور لحياة العرب بأنواعها المختلفة ، وإذا كان العرب لم يخلدوا آثاراً منحوتة كما خلد اليونان والفراعنة ، فإنهم خلدوا أثرأ مكتوباً خالداً ... هو الشعر .

وهنا تتجلى صورة هذا الكاتب الأريحي العربي ، الذي تهفو نفسه الى الشعر والخطابة والكلمة البليغة .. والى إنصاف الجوانب المظلومة ، فهو يحب الشعر ويوغل فيه بحثاً ، ويعنى بقديمه ، ويتصل بالشعر الجاهلي اتصالاً عميقاً ، ثم هو لا يتوقف في طريق أريحيته عن تكريم الأبطال والبطولة . وكتابه « البطولة والأبطال » شاهد بدراسته الواسعة العميقة في مجال البطولة العربية . فهو معجب بالبطولة باحثاً عنها في لسان العرب ، ومعجم اكسفورد ، ولاروس ، وفي اللاتينية ، والفرنسية ، والانجليزية جميعاً . متناولاً الفوارق بين البطولة والعظمة والعبقرية .

ودعائم البطولة عنده فيض الحيوية وقوة العقيدة والشجاعة ومضاء العزيمة والاعتداد . وفي تاريخ النبي وأبي بكر وعمر وأعلام الإسلام والعرب خصائص ونماذج يعرضها ، ثم يتوسع في داراساته عن عمر مكرم وعرابي وعبد الله نديم ومصطفى كامل وسعد زغلول .

ولا بد أن يكون الخطيب الشاعر الأريحي فارساً ، محباً للكلمة البليغة وقائلها ، محباً للبطولة منجداً للمظلومين ، فاذا هو يعنى بالطبري وأبي حيان التوحيدي وشوقي . فالطبري أعجبه لأنه جلد صبور على البحث ، على خلق رفيع . أما أبو حيان فقد ظلمه التاريخ ، فلا بد أن ينصفه ، يقول : اهتمت

به لأنه كاتب فذ هُضم في حياته وهضم بعد مماته وما زال مهضوماً ، ومأساته
في إحراق كتبه ما تزال تؤرقني في الحقيقة .

أما شوقي فما على الدكتور الحوفي أن يشغف به ، وكل شاعر في عالمنا العربي قد
أحس به كوكباً مضيئاً منذ مطالع الحياة . منذ كان طفلاً صغيراً في قريته ذات
الاسم الموسيقي (الصفاصيف) غربي دمنهور ، وبين أهلها الذين كانوا بلغاء ،
يحفظون خطب السياسة ويحبون الشعر ويقضون سهراتهم على المصاطب ، ينشدون
شعر شوقي الذي كانت تنشره الصحف في الصفحة الأولى ، والذي قررت جريدة
السياسة ان تدفع خمسين جنيهاً للجمعية الخيرية الإسلامية عن كل قصيدة يخصصها
بها شوقي .

ثم زاد اهتمامه به وهو الشاعر الغض الإهاب ، فلما بلغ دار العلوم تعمقه .
فلما توفي شوقي ١٩٣٣ رثاه ببحث كان من أول ما كتب بقلمه ، واستهل به
عمله الأدبي « النسيب في شعر شوقي » ، وقد طبعه أستاذه الدكتور مهدي
علام ، ووزع على الطلاب . ومن هنا كانت نقطة البدء مع هذا الشاعر وشعره ،
ومع الخطابة ، والكلمة البليغة ، ثم الى اهتمامه بشوقي ، وحاول أن ينصفه
أيضاً في الجوانب التي أتهم فيها وظلم . وكان شوقي قد أتهم في وطنيته وإسلامه ،
ومن هنا كانت دراسته عن وطنية شوقي والإسلام في شعر شوقي .. ولم يتوقف
الدكتور الحوفي . فهو يعد دراسة عن الحكمة عند شوقي ، مقارناً بينه وبين
المتنبي .

* * *

وهكذا تبدو حياة الدكتور أحمد محمد الحوفي الفكرية ، مطردة منذ
١٩٣٣ الى اليوم في مجاله الواضح : الشعر والخطابة والكلمة البليغة وبطولة
الفرسان وإنصاف المظلومين وتحرير الشعر الجاهلي والاعجاب بشوقي والطبري
وأبي حيان التوحيدي ، على نحو يكشف عن طبيعته الريفية في قرية الصفاصيف

بإقليم البحيرة ، حيث الوفاء وإنصاف المظلوم ، ورد العادية وتكريم البطولة ، والإعجاب بالنضال والكفاح . وقد لقي هذا الطابع النفسي مجاله الواضح الصحيح السليم في بيئة دار العلوم . هذه المدرسة الوسطى في فكرنا العربي الحديث بين الجامعة والأزهر ، أو بين التعليم الديني الخالص والتعليم الجامعي الغربي . ولطالما كانت دار العلوم وستظل عنواناً على هذه الروح الأصيلة الصادقة ، التي خرجت بين روح العروبة والإسلام ، وفكر الغرب ، على نحو دقيق سمح ، وعلى هدى وبصيرة . وقد واجهت الدكتور الحوفي بهذه الحقيقة ، فما لبث ان قال : إذا جاز أن يكون عندنا مذاهب أدبية ، فإن المذهب الأدبي الذي تقوم عليه (دار العلوم) ، هو المحافظة على التقديم الصالح والأخذ من الجديد الصالح ، فهي لا (تتحجر) على القديم ولا يسيل لعابها وراء الجديد ، ربما كان من الصدق أن توصف بأنها الحلقة الواصلة بين الثقافة العربية القديمة والثقافة الغربية الحديثة .

* * *

وهكذا يبدو أمامي الدكتور أحمد محمد الحوفي ، وهو يعمل في ميادين ثلاثة ، دراسات الشعر وتراجم الأعلام ودراسات الإسلام . فهو في هذا المجال قد كتب عديداً من الأبحاث والدراسات ، أبرزها كتابه (سماحة الإسلام) ، وهو مرجع حي نابض بالحياة ، يتناول دعائم الاسلام ، معتمداً على النصوص والتشريع والتطبيق والموازنة بين الاسلام ومختلف الشرائع .

وكتبه العشرون في مجموعها ، تحوي التحقيق ، والتراجم ، ودراسات الشعر وله الى ذلك قصة (سوسن) ، والفكاهة في الادب ، ودراسة لابن خلدون ، وأدب السياسة في العصر الأموي .

وقد عرف بالعراك والمساجلة ، فدخل معارك عديدة مع سلامة موسى وزكي مبارك وطه حسين ، وكتب في الرسالة والثقافة والاهرام والمجلة والبلاغ

ومجلة دار العلوم ومنبر الاسلام . وله مقال رائع يدخل في زمام التاريخ ، حمل فيه على الدكتور طه حسين في أوج تألقه وسلطانه . وكان الحوفي طالباً في دار العلوم ، وكان طه قد حمل حملته على دار العلوم تحت عنوان (لا بد من هدم قرطاجة) ، فتصدى له الحوفي بمقال آله ألماً شديداً . وظل يذكره فلا ينساه منذ عام ١٩٣٣ عندما نشر في كوكب الشرق الى عام ١٩٥١ ، بعد أن أحرز الحوفي الدكتوراه . وكان طه وزيراً للمعارف ، وبسببه أمر ترقيته ، وكانت ذاكرة طه حسين العجيبة لا تنسى ، فذكر المرحوم ابراهيم مصطفى عميد دار العلوم إذ ذاك ، بهذا المقال بعد حوالي العشرين عاماً .

ويرى الدكتور الحوفي أن هدفه الفكري الأساسي في كل أعماله هو :
الدفاع عن اللغة العربية ، والقومية العربية ، والفكر الاسلامي العربي .

واذا كان لنا أن نذكر حماسه وإيمانه للغة العربية ، فلنما نذكر كلمته في كتابه هذا الذي عرضنا له حيث يقول :

إن السر في قوة الفصحى راجع الى أن هذه اللغة لغة قوم يحدون حياتهم مرهونة بحياة لغتهم ، فهي لغة كتابهم الكريم ، ولغة نبيهم العظيم ، وسجل تراثهم الفكري المجيد ، ولسانهم الأدبي المشترك ، وهي لغة آباؤهم الأولين منذ زمن بعيد ، يقرأونها ويكتبونها ويسمعونها ويتفاهمون بها ، محافظين على مفرداتها وأصاليبها وقواعدها التركيبية ، التي كانت لها في عهد أسلافهم . وهم بهذا متفردون في العالم كله ، لأن الأمم المعاصرة لا توجد فيها أمة يستطيع أبنائها جميعاً أن يستعملوا لغة أسلافهم على هذه الشاكلة الى خمسة قرون . على حين أن اللغة العربية استقرت على وضعها الذي يستعمله أبناؤها اليوم منذ أكثر من خمسة عشر قرناً . وقد اعتبر العرب من يتكلم العربية لغة أصيلة له عربياً منذ قرر هذه الحقيقة النبي عليه السلام في قوله : ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي باللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربي ... الخ .

وبعد فَنحن نتطلع الى أن يتم الدكتور الحوفي الحلقات الأخرى من بحثه الكبير عن دور الشعر الحديث في بناء القومية العربية .

- أحمد محمد الحوفي : دكتور في الأدب من دار العلوم ، من مواليد (الصفصيف بحيرة) ١٩١٢ ، تخصص في دراسات الاسلام واللغة العربية والشعر . من اعمدة كلية دار العلوم والمجلس الاعلى للشؤون الاسلامية .
من مؤلفاته : وحدة الثقافة والتاريخ في الشعر الحديث .
ادب السياسة في العصر الأموي .
خصائص الاسلام في شعر شوقي ، الحياة العربية في الشعر الجاهلي
التراث الروحي والشعر الحديث ، المرأة في الشعر الجاهلي
وحدة اللغة والوطن في الشعر الحديث ، وطنية شوقي ، الفكاهة في الأدب العربي .
وله : الجاحظ ، التوحيد ، البطولة والأبطال ، الزغشري الخ ..

أحمد حسين دراسات الإسلام والإنسانية

ما أشد حاجة أمتنا في هذه المرحلة الثورية الضخمة من تاريخ القومية العربية ، وفي ظلال التقاء الثورات العربية ، على نحو يكشف الطريق للوحدة العربية الكبرى ، أقول ما أشد حاجتنا في هذه المرحلة الى دراسات (الفكر الإنساني) التي تنير لنا الطريق وتلقي الأضواء الكاشفة على مستقبل أمتنا ، وعلى القواعد والأسس الذي يبنى عليها هذا المستقبل ، من خلال شخصيتنا المستقلة ، ذات الطابع الواضح الصريح ، الذي يتسم بالمزج الدقيق بين الروح والمادة ، وبين الدين والحضارة ، وهو ما يختلف اختلافاً واضحاً عن شخصية الغرب والشرق جميعاً . فهكذا كانت هذه الامة دائماً : أمة وسطاً في مكانها على خريطة العالم ، وفي فكرها وشخصيتها .

وفي ظلال هذه المرحلة ، ومن أجل عمليات بناء المستقبل في عالم الفكر والثقافة ، نجد أعمالاً كبرى تظهر مستأينة مدروسة ، قد بُدِلَ فيها الجهد الكبير ، وفي مقدمة هذه الاعمال « الطاقة الانسانية » ، للأستاذ أحمد حسين ،

ثم قصته «أزهار»، ثم كتابه الجديد والقديم الذي بين أيدينا اليوم «في الإيمان والإسلام» .

والحق أن «أحمد حسين» يمر الآن بالمرحلة الثانية من حياته العريضة ، وهي مرحلة الفكر ، وهو المجال الذي كان يتوق الى التجرد له منذ زمن طويل ، لولا اتصاله بالحركة الوطنية في أول شبابه ، وعمله في سبيل تحرير « مصر » . فلما تحققت هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ بلدنا ، كان لا بد أن يجد هذا المجال الضخم الواسع للعمل ، في محيط البناء الفكري لأمتنا العربية ، عن طريق رسم خطوط شخصيتنا وثقافتنا ، وإلقاء الأضواء على المرحلة القادمة من حياتنا « مرحلة الوحدة الكبرى » .

ويكشف أحمد حسين في مقدمة كتابه الجديد القديم « في الإيمان والإسلام » عن هذا المعنى ، مصوراً ارتباطه بهذا المجال الفكري منذ عشرين عاماً ، عندما كتب هذا الكتاب للمرة الأولى ؛ وأراد به الكشف عن جوهر رسالات السماء وإبراز وحدة العقيدة وجوهرها ، هذه التي تلتقي كلها عند نقطة بداية واحدة ، وهي إحساس الإنسان بوجود كائن أعلى منه وأسمى ، يتصف بأنواع الكمال . وعنده أنه قد حان الوقت ليدرك كل صاحب عقيدة دينية - أياً كان موضوعها ومحوها - أن الخطر الذي أصبح يهدد عقيدته ، ليس ما يقول به دين آخر ، فالأديان كلها تقوم على الإيمان بالمثالية والغيبيات والتطلع نحو صورة من صور الكمال الإنساني ، وإنما الخطر الذي أوشك أن يهدد العقائد كلها ويقتلعها من جذورها ، هو هذه المادية الطاغية الجارفة المسعورة ، التي لم تقف عند حد الهزء بالإيمان ووصفه بأحط الصفات وأنها أفيون الشعوب ، بل راحت تهاجم المثالية من أساسها ، وتتكبر تقديس حق الفرد « كل فرد » في الحياة والحرية والكرامة الانسانية .

إذن فالمادية الخالصة ، هي الخطر الكبير إزاء الفكر الانساني ، التي يجب أن

ليجاهد بنو البشر للانعقاد منها ، وهو العمل الكبير الذي يجب أن نوجه اليه جهود المفكرين .

ويطوف أحمد حسين في خلال هذه الصفحات القليلة ، التي لا تبلغ المائتين ، بالإنسانية منذ مطالع فجرها ، يكشف عن جوهر حقيقة (الإيمان) خلال مراحلها المختلفة .. عارضاً للحضارات الفرعونية والفارسية والصينية والاعريقية ، وللعبادات منذ كانت : عبادة الأمهات فالحيوانات فالنباتات فالجمادات فالكواكب ، ثم يتجه الى دراسات نظريات الحلول وعبادة الأصنام ويقف وقفة طويلة عند « التوحيد » لدى آمون وأخناتون ، ثم لا يلبث ان ينتقل الى رسالات الانبياء والرسل ، حتى يصل الى الاسلام فيقف عنده وقفة خاصة ، مستعرضاً موقف الاسلام من الإخاء الانساني والتكافل الاجتماعي والعمل والانتاج ، ثم هو يعرض لآراء فلاسفة أوروبا وكتابتها في الاسلام : غوستاف لوبون وويلز ولوترب ستوارد ودرابر ، فاذا بلغ النهاية من هذا البحث الموجز الشيق قال كلمات قليلة هي خلاصة رأيه :

« سيظل الإسلام نوراً يهدي التائهين والحائرين والمتخبطين في الظلام ودنيا المادة ، وستظل مبادئه الدعوة الى الانسانية والعالمية والتآخي بين البشر ، هدفاً سامياً جديراً بالعمل من أجل تحقيقه » .

وهو في مجاله الفكري الذي تمثله (الطاقة الإنسانية) ، ويمثله كتابه (في الإيمان والاسلام) ، يتحدث في مجال الإنسانية الشامل ، يقول : « لا أخطب قراء العربية دون غيرهم ، أو من يدنون بدين الاسلام أو المسيحية ، أو من يعيشون في الشرق دون الغرب ، وإنما أخطب البشر كافة ، أخطب (الإنسانية) في معناها الواسع الاصطلاحي ، وإنها مجموع الناس منذ كانوا وأينما كانوا » .

وإذا كان لنا أن ننظر في العمل الفكري ، الذي يتجه اليه الأستاذ أحمد حسين ، في إنتاجه الجديد في هذه المرحلة ، وفي مقدمته قصة « أزهار » التي رسمت مرحلة من تاريخ مصر ، وصورت مطالع اليقظة في الثلاثينات ، نجده من الناحية الأخرى يترجم عن تولستوي « نورسطع في الظلام » ثم ينشر كتابه عن « الطاقة الانسانية » . فكتابه الجديد القديم ، « في الايمان والاسلام » نحن نرى فيه عصارة فكر وخبرة حياة . فلقد تكشفت شخصية « أحمد حسين » منذ مطالعها واضحة في مجال الكتابة والبحث عن إيمان صادق بهذا الوطن المصري ، ثم اتسع نطاق هذا الإيمان عروبة وإسلاماً حتى شمل الانسانية كلها .

وهو الآن في الخمسين من العمر ، تبدو على آثاره عصارة تجربته وقراءاته وأسفاره ورحلاته ، فقد أحرز قدراً كبيراً من الخبرة ، خلال جولاته في مجال العمل الوطني الداخلي ، وخلال رحلاته التي طوف فيها ما طوف في أوروبا وأمريكا ، وفي جزيرة العرب والسودان ، ثم كانت رحلته القريبة الى أطراف آسيا والهند .

ونظرة الى مؤلفاته عن الرحلات وحدها : مشاهداتي في جزيرة العرب ، ومن وحي الجنوب (رحلة في منابع النيل) ، وكتابه عن رحلة آسيا : يقظة العملاق ، وأمة تبعث ، تعطي صورة النفس العربية المصرية التي تطوف الدنيا ، وهي تنظر الى نفسها ، راغبة في ان تستكشف هذه النفس ، وتضيف من خبرة الآخرين خبرة لها .

فاذا انتهى هذا المطاف على رأس الحلقة السادسة من العمر كانت التجربة قد أوفت على غايتها التي تستطيع أن تقدم للامة العربية من عصارة الفكر ما يعينها على النهوض والاندفاع نحو غايتها الكبرى في الدعوة الى المجد والاخوة والصفاء والوفاق وهو ما عبر عنه في ختام الصفحات المحسنة من كتابه « الطاقة الانسانية » .

حيث يقول : « فليكن الحب هو شعارنا ودثارنا وسلاحنا ومصدر قوتنا وانطلاقنا .

« ولنكن على ثقة ويقين أننا إذ نفعل ذلك فنحن على الطريق ، الطريق السلطاني ، الطريق المستقيم ، أقصر الطرق التي تؤدي الى الغاية ، ومجرد السير على الطريق المستقيم يؤدي بنا الى السعادة المنشودة والأمل العظيم ، مجرد السير في الطريق نحو الغاية هو النجاح الذي لا نجاح بعده ، وهو الأمن والطمأنينة وراحة الضمير . هو القوة كلها وهو الخلود والبقاء الذي لا يطاوله بقاء . »

ثم يوجه دعوته الى الانسانية فيقول : أيها البشر في سائر بقاع الارض ، أيها الانسان في جميع الأجناس والألوان والقوميات والأديان والمذاهب ، أيها البيض والسود والحمير والصفير ، أيها الأقوياء والضعفاء ، أيها المنتصرون والمنهزمون ، أيها الظالمون والمظلومون ، تعالوا جميعاً نبدأ من جديد ، لنسدل ستاراً على الماضي ، لنكف عن نبش القبور ، لننتوقف عن نكء الجراح ، لنسر معاً على الطريق ، لا يؤدي بعضنا بعضاً ، ولا يتحكم بعضنا في بعض ، ولا يستغل بعضنا بعضاً ، معاً على الطريق في تفاهم ومحبة وإخاء ، معاً على الطريق نحو الحقيقة والحق ، نحو الجنة ، والمثل الأعلى ، نحو الله نجده أمامنا ، نجده نجدها ، نجده معنا ، نجده فينا (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) .

وهكذا نجد الرجل الذي طوف العالم ما طوف ، رحلة وسياحة ، وطوف مجال الفكر ما طوف ، فقرأ خلاصة التراث الانساني ، يصل من جولته الطويلة خلال اكثر من ثلاثين عاماً الى هذه المفاهيم الانسانية ، في نصاعة فكر ، وشفافية روح . فهو يدعو الناس جميعاً الى المحبة (الطاقة الانسانية) .. ويدعو أصحاب العقائد الى مقاومة الخطر الذي يهدد الروحية والقيم ، خطر المادية والإلحاد (في الايمان والاسلام) .

وهذه هي الصورة التي تبرز اليوم لفكر أحمد حسين ، كأنما هي طور من أطوار فكره ليست جديدة ، إذ ليست في الواقع إلا جوهر نفسه منذ مطالع

الشباب . هذا الجوهر الذي برز في صورة الفرعونية والمصرية والإسلامية على مراحل . وفي صورة الإعجاب بتاريخنا وماضينا وتمجيده والفخر به . ثم في تاريخ الاسلام نفسه . وهكذا في تدرج طبيعي عرفه المفكرون والفلاسفة والباحثون حتى وصلوا الى الدعوة الإنسانية ، وهي المرحلة العليا للدراسة والبحث والتجربة ، حقاً ما أشد حاجة الانسانية اليوم الى دعوتـه ، وهي تتصارع من أجل مناطق النفوذ ، مهددة بسلحها الذري الرهيب .

وبعد فما زلنا نتطلع الى مزيد من إنتاج هذا العقل الذكي الواعي المتفتح ، السابق جيله خطوات على طريق الانسانية والسلام والحب والاخاء .

● احمد حسين المحامي: من مواليد ١٩١٠ القاهرة، مؤسس مشروع القرش، وجماعة مصر الفتاة ، وأحد رواد الصحافة الوطنية الثائرة في مرحلة مقاومة النفوذ الاستعماري والاستبداد الداخلي (١٩٣٠ - ١٩٥٠) .

من مؤلفاته : الحج (اسراره ومناسكه) ، الأرض الطيبة ، أزهار (قصة) أمة تبعث ، إيماني ، تاريخ الانسانية ، الزواج والمرأة ، مرافعات ، من وحي الجنوب ، نور يسطع في الظلام (مترجمة عن تولستوي) ، وراه الفضبان ، سبعون يوماً للدعاية في أوروبا ، الطاقة الانسانية ، في الايمان والاسلام ، في ظلال المشنقة ، قضية التعريض على حرق القاهرة ، مشاهداتي في جزيرة العرب ، علاقات العمل بين احكام الشريعة وقرارات التحكيم ، الامة الانسانية .

أحمد الشرباصي دراسة أعلام العروبة والإسلام

تسم هذه المرحلة في حياة أدبنا العربي المعاصر ، بطابع الكشف عن القديم الذي غطاه التراب ، وتصحيح الحقائق المطمورة ، وإحياء ذكرى الأعلام الذين كانوا عمالقة وقاموا بجهد ضخم في خدمة الفكر والوطن والسياسة والاجتماع .

وفي هذا المجال ظهرت دراسات ضخمة ، بذل فيها مجهود كبير عن أعلام ظل اسمهم يتردد طويلاً ، ويحمل وراءه تاريخاً طويلاً مشتملاً ، حتى جاء مثل الأستاذ أحمد الشرباصي ، ليشغل نفسه سبع سنوات كاملة ، بالبحث عن أمير البيان شبيب أرسلان وآثاره وتاريخه ، ويكتب عنه دراسة مطولة بلغت ٩١٢ صفحة من القطع الكبير ، وصدرت في جزئين . وكانت موضع دراسة الماجستير في معهد الدراسات العربية ، ومن خلالها تكشفت حياة هذا المجاهد الكاتب النابغة ، الذي خدم بلاده أكثر من خمسين عاماً ، قضى أغلبها مغترباً بين تركيا وأوروبا لا يكمل من العمل ولا يهد .

ولقد حمدنا للأستاذ أحمد الشرباصي هذا الجهد الضخم ، الذي بذله في

الاستقصاء ، والحق أن شكيب ارسلان كما وصفه الكاتب « شخصية مجهدة لمطالعه وباحث والكاتب عنه » فقد طال عمره وكثر عمله ، وظل يكتب أكثر من ستين عاماً ، وكان كالغيث الهاطل المدرار في كتابته ، حتى تصعب ملاحقته ومطالعه . فقد ألف ونشر عشرات من الآثار والمؤلفات ، وكتب الآلاف من المقالات والبيانات والرسائل بين مطابع وصحف مصر ولبنان وسورية وأمريكا وسويسرا .

وقدّر بعض الناس ما كتب من الكتب والمقالات بـ ٢٥٠ ألف صفحة من الحجم الكبير ، وذلك عدا رسائله الخاصة التي هي أشبه بمقالات الصحف ، فانه ظل عشرين سنة يكتب في كل سنة ما يتراوح بين ١٥٠٠ وألفي مكتوب ، فالمقالات التي يحررها في السنة من ٢٠٠ الى ٢٥٠ مقالة بالعربية والفرنسية .

وقد أشار شكيب الى ذلك في عام ١٩٣٧ فقال : حالتي الراهنة الآن من جهة الكتابة هي أن أكتب في الحول ١٧٠٠ الى ١٨٠٠ مكتوب خصوصي ، ونحواً من ٢٥٠ مقالة في الصحف عدا التأليف المطبوعة ، التي تبلغ بالأقل ألفين الى ٢٥٠٠ صفحة في السنة .

وكان لا بد للشرابصي أن يبحث عن كل هذا ، حتى يستوفي عمله في دراسة الرجل على مدار السنوات الطويلة ، في عشرات الصحف والمجلات ، وألوف الرسائل الى أصدقائه .

وكان عليه أن يلجأ الى أصدقائه في مصر ولبنان وسورية ، وأن يقابل السيدة زوجته وأولاده في القاهرة وبيروت .

ومن أجل ذلك وصل الى الشويفات ، وقابل شقيقه الأمير حسن ، وحادثه طويلاً ، ووقف على قبر شكيب .

ووجد في الشويفات خمسة وعشرين صندوقاً لم تفتح ، فيها أوراق وكتابات لشكيب ، وقد حاول الإطلاع عليها لدى الأمير حسن ، فلم يجد الى ذلك سبيلاً .

وسافر الى القدس من أجل البحث عن مذكراته ، التي كتبها وأودعها المؤتمر الإسلامي ، وبحث طويلاً واتصل بعديد من معارفه وأصدقائه .

كما اتصل بآل رشيد رضا في القاهرة ، وحصل على قدر ضخم من آثاره ورسائله ، التي تعد من أنفس الآثار الأدبية ذات الدلالة على جوانب كثيرة من تاريخنا الأدبي والقومي والسياسي المعاصر .

وقد استطاع أن يحرز أكثر من مائة وثلاثين رسالة من هذه الرسائل ، بمعاونة الأستاذ المعتمد رضا ، أدخل فيها على البحث (٧٥ رسالة) لأنها تتصل بموضوعه .

ويقول الشرباصي : أنه بالرغم من هذه الصفحات التي بلغت الألف وخمسمائة في كتبه الثلاثة ، فإنه ما زال لم ينشر جوانب متعددة عن حياة شكيب .

وفي بحوث الشرباصي عن نثر شكيب وشعره وأثره في اللغة تفاصيل ضخمة ، واستفاضة لاحد لها ، تكاد لا تؤرخ لشكيب وحده ، وإنما تمثل قطاعاً كاملاً من الادب العربي المعاصر في هذه الفترة ، يشمل البارودي وشوقي ورشيد رضا .

ولم يكن شكيب أديباً أو شاعراً فحسب ، بل كان ناقداً ولغوياً ، وكان قطباً من أقطاب السياسة والوطنية والوحدة الاسلامية خلال حياة طويلة ظل يكتب فيها أكثر من ستين عاماً (١٨٨٨ - ١٩٤٨) ، وألف عشرات الكتب ، وأحيا عشرات أخرى ، وشغل بالقضايا العربية والإسلامية ، وكان بيته موئلاً لأقطاب العرب والمسلمين .

وكما عمل شكيب في ميدان تطويع اللغة وتعريبها ، بذل جهداً في ميدان الترجمة وإحياء تاريخ العرب وتاريخ الاسلام وتحقيق المخطوطات . وله آراء قيمة في السياسة وأسباب تأخر الأمم وحيل الاستعمار والإحتلال .

وكانت تعليقاته على (حاضِر العالم الإسلامي) تمهد لدائرة معارف إسلامية كاملة . وكان كتابه (لماذا تأخر المسلمون) بعيد الأثر في الكشف عن أوجه الضعف ووسائل القوة .

وكان للأندلس في حياته وأدبه وقلبه نصيب كبير ، فهو المعني بها ، يترجم عنها من مؤلفات الغرب ، ثم يسبح إليها ، ويعني بأن يقرأ كل شيء عنها .

كل هذا جلالة الشرباصي في قوة ووضوح ، كما درس عصره باستفاضة ، وتحدث عن تاريخ حياته ورحلاته وهجراته ، وصحح مختلف ما ورد في الكتب من أخطاء حول تاريخه وآرائه .

* * *

ولا غرو ، فأحمد الشرباصي كاتب لامع ، له في مجال النهضة الفكرية الحديثة مجال كبير وآثار متعددة ، وهو يكتب منذ مطالع شبابه ، وقد برز بعد الحرب العالمية الأولى مع صفوة من شباب المدرسة الوسطى ، أولئك الذين آمنوا بضرورة أن يقوم الفكر العربي على أساس من الإيمان بشخصيتنا وأجدادنا وتراثنا ، دون أن تنفصل عن مقوماتنا الأساسية ، ولا بأس من تلقي خير ما في الحضارات والثقافات ، بحيث لا تنمحي معالمنا الأصلية ولا ننحرف عن رسالتنا الانسانية الأخلاقية الروحية ، ذات القيم الواضحة والمثل الصريحة ، ولعله قد كشف عن ذلك بوضوح في كتابه (واجب الشباب العربي) ، الذي أصدره عام ١٩٤٨ ، وأبان فيه عن الصلة بين العروبة والإسلام ، وله في هذا المجال كتاب (وسائل تقدم المسلمين) .

وقد كان الشرباصي منذ بروزه الى المجال الأدبي والفكري ، شعلة نشاط ، فقد شارك في عشرات من المؤتمرات خارج مصر ، فزار فلسطين والباكستان والكويت ، وعمل في عشرات من اللجان الثقافية والجمعيات ، وكتب في صحف

الأزهر والشباب ولواء الاسلام والمجتمع العربي ، وألقى عشرات من المحاضرات في مختلف أوجه النشاط الفكري .

وله عدد كبير من المؤلفات ، تناول فيها الكثير من أعلام الإسلام ، كعمر ابن عبد العزيز وأبو عبيدة والسيدة زينب وأبو بكر الصديق ، كما تحدث عن الصوفية وناقش دراساتها في عدد من مؤلفاته ، وكان أبرز أعماله كتابه (في عالم المكفوفين) ، الذي كان الأول من نوعه في الدراسات العربية ، حيث تناول المكفوف وأخلاقه وذكائه ، ومواقف المكفوفية التاريخية ، وجمع ما كتب عنهم من شعر ونثر ، وأمثال المكفوفين ، كما أورد معجماً لغوياً لهم ، وترجم لعدد من المكفوفين ، الذين تحدوا كف البصر (١٥ علماً) وأورد مجموعة من القصص عنهم . ولقي بكتابته يجزيه اهتماماً واضحاً .

كما كتب عن رحلاته « عائد من الباكستان » و « أيام الكويت » وكانت عنايته الواضحة بالمسرح الاسلامي ، فقد وضع أكثر من ثلاثة عشرة مسرحية ، تمثل حلقات من تاريخ العرب والإسلام ، عن أبي فراس الحمداني ، وسلسلة ابن دينار ، وعمر بن عبد العزيز ، وأشعب ، وسعد بن أبي وقاص ، ومسرحيات أخرى عن مولد الرسول ومروءة الأبطال .

* * *

سألته عن أول ما كتب ، فذكر لي أنه مقال في نقد كتاب محمد لتوفيق الحكيم نشره في مجلة الأزهر ١٩٤٢ .

وقد استطاع في خلال هذه الفترة ، التي لا تزيد عن عشرين عاماً ، أن يحقق نجاحاً ضخماً في ميدان الفكر والأدب ، كان أبرزه هذا العمل الكبير الذي أراح به النقاب عن حياة عملاق مثل الأمير شكيب أرسلان ، وكشف به عن جوانب ضخمة في حياتنا الأدبية والسياسية والاجتماعية المعاصرة .

ولسنا نكتفي من الأستاذ الشرباصي بما نشر عن شكيب أرسلان في نطاق الأبحاث العلمية ، ولكننا نطالبه بأن يكمل الجوانب الباقية من حياة (شكيب أرسلان) . وبذلك يقدم للأمة العربية وللباحثين ، عملاً نافعاً ، سيكون مرجعاً هاماً في كل ما يتصل بالقضايا العربية والإسلامية وتاريخ العرب في العصر الحديث .

رسائل شكيب أرسلان :

وليس هناك عمل أجل خطراً من كشف النقاب عن رسائل شكيب أرسلان ، التي قدم الأستاذ الشرباصي منها (٥٥ رسالة) من (١٣٠ رسالة) مخطوطة ، حصل عليها موجهة من شكيب إلى رشيد رضا في الفترة من عام ١٩٣٥ ، وقد شغلت هذه الرسائل (٢٢٣ صفحة) من الرسالة .

ونحن نعلم أن شكيب أرسل مئاة الرسائل إلى عدد كبير من أعلام العالم العربي ، ومنهم الآن السيد محب الدين الخطيب ، الذي أراني ملفاً ضخماً به أكثر من مائتي رسالة من الأمير شكيب إليه . ولا شك أن الحصول على هذه الرسائل وإذاعتها ، يؤدي خدمة ضخمة للفكر العربي المعاصر والتاريخ العربي ، الذي يكتب الآن من جديد ، بعد أن تحررت الأوطان من القيود التي كانت تفرض عليها إخفاء بعض جوانبه .

وليس الأمير شكيب أديباً فحسب ، بل هو زعيم من زعماء العرب ، ولا شك تعطي رسائله حقائق بعيدة المدى ، تلقي الضوء على كثير من الأحداث وتضع النقاط على كثير من الحروف .

وبالرغم من أن الشرباصي لم ينشر في كتابه ، إلا الرسائل ذات الصلة ببحثه عن (أدب شكيب أرسلان) ، فإنه قد كشف عدداً كبيراً من الحقائق الهامة ، التي يتطلع إليها الباحثون الآن بشغف كبير . ففيها أحاديث مطولة عن الخلافة الإسلامية ، والوحدة العربية ، وموقف الأتراك الكالين من العرب ، وموقف

السنوسي ، والملك عبد العزيز آل سعود ، والامام أحمد ، وعبد العزيز الثعالبي ،
والخديوي عباس ، والشريف حسين ، ومصطفى كمال أتاتورك .

وقد أشار الى موقفه من الدكتور عبد الرحمن شهنيدر والسيد محب الدين
الخطيب وخصومه زكي باشا ومحمد علي الطاهر ومواقف أخرى متعددة .

وكذلك موقفه من ثورة عبد الكريم الخطابي ، والظهير البربري ، وعلماء
المغرب المتعاونين مع الاستعمار ، وكفاح شباب المغرب في باريس من أجل
الحرية ، وكيفية إرسال الصحف في جيوب المسافرين الى طنجة ، ومراسلاته
الخطيرة مع المجاهدين في كل مكان ، وإرساله المساعدات اليهم .

ومواقفه من حرب التحرير الطرابلسية ، وموقفه من الملك أمان الله خان ،
ومقابلاته للملك فيصل ، وترشيح الشريف لعرش سوريا ، وتوحيد العراق
والشام ، ونرى الأمير شكيب يكتب من كل مكان خلال هذه السنوات :
برلين ، ولوازان ، وجنيف ، ومرسين ، وبودابست ، وجنوه ، والطائف ،
وبلنسية ، وفرن ، وزيرخ . وأغلبها من جنيف .

وله رموز للأشخاص بالعبارات والرسوم اليدوية .

ولعل أروع ما تكشف عنه هذه الرسائل - التي نرجو أن يكمل الشرباصي
نشر باقية في كتاب خاص أو في دراساته المقبلة عن رشيد رضا - هي صورة
« المجاهد المغترب » ، وهي صورة طالما بحثنا عنها في مذكرات وكتابات
أعلامنا الذين هاجروا ولم يكتبوا مذكرات أو رسائل وافية ، وقد كنا نتطلع
الى صورة حياة أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد العزيز شوايش
والثعالبي والحضر حسين .

وقد أعطانا شكيب أرسلان في هذه الرسائل ، صورة وافية واضحة
الدلالة ، لرجل عزيز الجاه ، اغترب عن وطنه وشقي بهذه الغربة ، وتحالف

الاستعماران الفرنسي والبريطاني على إبعاده عن وطنه الى الأبد ، مع شوق
لافتح وعاطفة ثرة لأولاده وزوجته وأمه الغالية .

فاذا التقى بأهله في (مرسين) بعد غيبة طويلة ، يصور مشاعره فيقول :
« هأنذا والحمد لله بعد الغيبة المتطاولة ، وبعد أحوال وأهوال وليال
مظلمات » قد جمعني الله بأهلي ، وشاهدت سيدتي والدة ، التي كنت أذوب
شوقاً إليها وهي بالعافية ، وقرت عيني برؤية فلذة كبدي (غالب) ، الذي
تركته ابن سنة ونصف تقريباً عيياً بمرجوع الخطاب ، فاذا به في الثامنة ،
والحاصل بالرغم من كل ما نعمت نفسي في أسفاري وفي معيشتي ، لم أذق
طعم الراحة الحقيقية الى منذ جمعة بعد اجتماع شملي مما يدل على أنه لا راحة الا
راحة القلب .. »

وتصور الرسائل مدى الذي يلقاه في المعيشة في الغربة ، وكيف أن
(مرسين) تكلف الساكن كل يوم جنياً واحداً في كل وجبة ، وأنه يعيش بها
وحيداً لا يلقى أحداً ، « لو أردت أن أخرج الى السوق بالقفطان ما لاحظت
ذلك أحد ، وتقضي الجمعتان والثلاث ولا يأتيني زائر ، ولدة خمسة أشهر ما آدب
مأدبة واحدة » .

ثم اذا سافر الى أوروبا يقول ان السياحة كلفته (٥٠٠ جنيه) « وما كان
يجب أن أطيل الإقامة سبعة أشهر في أحسن الفنادق » فلما عاد وجد على العائلة
برسين ٥٠٠ ليرة تركية ديناً ، (ثم جاءنا بدل إيجار البيت ٦٠٠ ليرة وهي ١٢٠
جنيهاً باركة علي برسرين ، ولا أقدر أن أوفر شيئاً لوفاءها من دخلي ، لأننا نريد
أن نعيش ونحن تسعة أنفس مع الخدم) . ثم اذا انتقل الى جنيف وأقام بها ، لم
تتوقف الشكوى ، فهو يذكر كيف بلغ منه الخناق مبلغه من جهة المعيشة :
(وفي آخر حساب علمته وجدت علي ألف جنيه ديناً . وأسعار لوزان وسويسرا
من الغلاء بحيث تزيد في بعض الأصناف عشر مرات على مثلها في بيروت ، وحتى
بعضها خمسة عشرة مرة ، وفي الفاكهة والحضروات عشرين مرة) ... ومن

أجل هذا يقرر أن يرسل أسرته الى بيروت وذلك حتى يخفف أعباء المعيشة (ويتحمل مضض فراقهم) ، وذلك بعد أن وجد أن عليه في هذه السنة - ١٩٣١ - ألف جنيه .

ويقول : وفي هذه السنة أرسلنا الى دمشق لبيع مزرعتنا المروضة ، التي من جهات وادي العجم ، ولكن في السنين القادمة سنضطر الى البيع من أملاكنا في لبنان .

(وبالإختصار قررت إرسال العائلة الى الوطن ، فإنه سيوفر بذلك ثلثي المصروف بالأقل .. ثم يتعلم غالب العربي ...)

ثم يعود في رسائله الى شرح ضائقة حياة الغربية ، فيقول عام ١٩٣٢ : « كنا ننفق مائة جنيه في الشهر ، فأصبحنا ننفق أربعين جنيهاً ، بقينا نأكل برفاة ولكننا تركنا الزوائد والفضول ، واقتصرنا في الملبوس على ما لدينا ، وتركنا لبس الجديد ، وأطرحنا كل ما ليس بضروري ، وفي مدة شهر ونصف لم يأكل عندنا الا أربعة أو خمسة ضيوف ، بعد أن كانت الناس على سفرتنا بصورة دائمة تقريباً .

وكنا ننفق على المأكل والشرب ٦٠٠ فرنك سويسري في الشهر ، فلما اضطررنا للتوفير صرنا لا ننفق عليها أكثر من ٢٥٠ فرنكا ، ولقد كنت ألوم البخلاء وأقول قبحهم الله ، ماذا عسى أن يكون مصروف الضيافة . فكنت أجادل في ذلك ولا أقنع بعكسه الى أن حصلت الأزمة واضطرت بفقد الدراهم من يدي أن أقتصد رغم أنني » .

ويقول أن بعض دائنيه عندما علموا أنه انتقل الى جنيف « صاروا يكتبون لنا مكاتيب مزعجة وينذروننا بإقامة الدعاوى » .

« ووصل بنا الأمر الى أن عرضنا رهن بعض الحلي عند أحد الجوهريه الذين لا نعرفهم » .

ومع هذا الفقر والحاجة كان صابراً محتسباً ، يكتب ويؤلف ، ويرسل كتبه الى المنار والفتح والحلي لنشرها نظير جنيهاً قليلة ، ويحصل على النسخ فيرسلها الى الحبشة والكونغو وشرق أفريقيا وجاوه ، والى كل أصدقائه في العالم العربي والإسلامي لتوزيعها وإرسال ثمنها . ويعتذر للشيخ رشيد رضا الذي يطالبه بأن له ٦٢ مقالة لدى جريدة السياسة لم يدفعوا له عنها شيء ، ومقالاته عند حافظ عوض في كوكب الشرق ، وتأخر صاحب الجهاد عن دفع مقالاته .

ويدعو الى الاجتهاد في تصريف الكتب . ويحصل من كتاب « حاضر العالم الإسلامي » على مائة نسخة نظير كل مجهوده الضخم ، فاذا باعها لم يجدد من يشتريها بأكثر من خمسين جنيهاً ويوالي تأليف الكتب وطبعها حتى يحصل على ما يسد به بعض الديون .

وأحياناً يكتب الرسالة في يومين ونصف ، كما فعل في رسالة « لماذا تأخر المسلمون » يقول : « كتبها بعجلة زائدة ، كرجل يريد الخلاص من عمل ليتفرغ لأعمال أخرى » .

ويشقيه خصومه بالانتماء به ، وينشرون ضده رسائل بالزئكوغراف منسوبة اليه ، فيكتب خمسمائة صفحة في خمسة عشر يوماً ، وتكل يده من الكتابة ، ويرسل أصدقائه وأعوانه في مختلف أنحاء العالم العربي والإسلامي ، فينفق أكثر من خمسين جنيهاً في العام على المراسلات .

وهو مشوق الى مصر ، يريد أن يقيم فيها ، ويسأل رشيد رضا أن يتصل عبد الحميد سعيد بالملك فؤاد من أجل أن يسمح له بذلك .

فاذا سافر الى الحجاز منعو من النزول بمصر ، ثم يسمح له بعد الجهد بالنزول في السويس لينتقل من مركب الى مركب .

ومجلته الفرنسية تكلفه خسارة قدرها خمسمائة جنيه في العام الواحد . ومع هذا الشقاء كله تجده صابراً قوياً صامداً ، اذا ما نزلت بالعرب نازلة هنا

أو هناك شرع قلعه ومضى يكتب للملوك والأمراء والعظماء ، ويجمع المال ويطبع المنشورات ، ويوالي الصحف ، ويحرك الرأي العام في قوة ، ومع هذا الفقر والمشقة كان يقابل أينما حل مقابلة الملوك فيقول في زيارته لشرقي أوروبا (بودابست - فينا - زوريخ) : « زرت بضعا وعشرين مدينة وقرية زينت المنازل بالأعلام ، وكان العلماء والأشراف يخرجون الى مسافات بعيدة للملاقة بأقواس النصر والموسيقى ، وكلما مررنا نسمع هتافات الجماهير ، جيفو أي فليحيى ، أما الذي لقينته من الحفاوة في بوسنة وهرسك ففوق الوصف ، بل فوق التخيل » .

« كلفتنى سياحتي الى الأندلس وبعض المغرب مائتي جنيه ، واستمرت ثلاثة أشهر ، وقد اقترضت من الدكتور بيضا . وكان عليّ من قبل ستائة جنيه فصار عليّ الآن ٨٠٠ جنيه ولكنني ما سررت في حياتي بسياسة سروري بهذه السياحة ، برغم التذكريات الم حزنة المؤلة التي تشوب سروري ، وكان انفاق المائتي جنيه على مثلي مثل العسل .

ويقول : « سيكون كتابي انشاء الله كبيراً عن الأندلس ، وجاء فيه ما لا يعرفه العرب حتى الآن . » .

ثم يعود فيقول أنه يزمع العودة الى الأندلس « فاتتني أشياء لا بد أن أراها في نفسي ، غرناطة ومدن أخرى ، وفاتتني أن أرى المرية ووادي آش ومالقه وأماكن كثيرة ، ثم أفني لم أشاهد الغرب أي بطلبوس وبلاد البرتغال .. »

وهكذا لا يتوقف شكيب أرسلان في غريته عن العمل ولا عن الرسائل :

« الحال أن الأشغال لا تمهلي أن أتنفس ، ولولا أن الله يمين بالقوة ما كان يمكنني أن أقوم بذلك وحدي ، ولولا ضعف العينين ، لا أشكو هذه المدة من شيء ، ولكن وفرة الكتابة تضطريني الى غسل عيوني بالبايونج الحار ثلاث مرات في اليوم » .

وبعد فهذه صورة حياة المغترب كما عاشها شكيب أرسلان ، و رسمها بقلمه في رسائله الى رشيد رضا .

ولا شك أنه كان لهذه الرسائل التي نشرها الشرباصي أهمية تاريخية بعيدة المدى ، وسيكون للرسائل الباقية « وهي ٨٥ رسالة » وأغلبها سياسية أثر بعيد .

والواقع أن العمل الأدبي الذي تحقق بنشر دراسة مستفيضة عن شكيب أرسلان ، في ١٥٠٠ صفحة وثلاثة مؤلفات ، عمل كبير نافع ، وجدير بالتقدير ، مع المطالبة بالإتمام السريع ، والدعاء للشرباصي بالتوفيق .

● (أحمد الشربيني جمعه الشرباصي) من مواليد ١٩١٧ ، من خطباء الأزهر

وأعلامه ، من خريجي كلية اللغة العربية والأستاذ بها ، يعد الآن رسالة الدكتوراه عن « رشيد رضا » .

من مؤلفاته : الإسلام والاقتصاد ، القيم الروحية والأخلاقية وأثرها في الشخصية

العربية ، أحاديث الجهاد والفروسية ، أدب أمير البيان ، النيل في

ضوء القرآن ، الاشتراكية والدين ، طبقات الصوفية ، عائد من

الباكستان ، في رحاب الصوفية ، أمين الأمة أبو عبيدة ، وسائل تقدم

المسلمين ، أيام الكويت ، حفيد رسول الله السيدة زينب ، قصة

التفسير ، مسرحيات إسلامية ، صلوات على الشاطيء ، مولد الهدى ،

الأئمة الأربعة ، الغزالي والتصوف الإسلامي ، بطولات إسلامية

وعربية ، في عالم المكفوفين ، بين صديقين ، من أجل فلسطين ،

التصوف عند المستشرقين ، لمحات عن أبي بكر ، محاضرات الثلاثاء ،

حركة الكشف ، مذكرات واعظ أسير ، حب الوطن في نظر الدين ،

خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز ، سيف الله خالد ، الدين وتنظيم

الأمر ، الدين والميثاق ، دعوة الاسلام (مجلدة) ١٩٦٣ ،

دستور الطالب .

أحمد عطية الله كتابة الموسوعات

أعتقد أن النهضة الفكرية في العالم العربي اليوم ، أحوج ما تكون الى المراجع الدقيقة السريعة ، وذلك بعد أن تعددت مطالب الحياة ، وتنوعت أسبابها ، وتشعبت ، بحيث لم يعد هناك من الوقت ما يسمح للكثيرين بمراجعة الأسفار المطولة ، فنحن نعيش في عصر السرعة ، بل السرعة الحاطفة ..

وقد فهم الأستاذ احمد عطية الله هذا الغرض منذ سنوات طويلة ، منذ عام ١٩٤١ ، وهو منذ ذلك التاريخ الى اليوم ، يعمل في هذا المجال على نحو يلفت النظر حقاً ، ويدفع الباحث الى المراجعة والانتباه . ففي خلال نيف وعشرين عاماً أصدر هذا الباحث خمسة قواميس متنوعة الأحجام والموضوعات ، كان هدفه منها تقريب المعلومات المختلفة الى الباحث المتعجل ، والى الصحفيين والكتاب بنوع خاص ، في ميادين متعددة ، في مجال السياسة والوطنية والإسلاميات والمعلومات العامة .

ولقد عمل في هذا الميدان منذ وقت بعيد ، أعلام لا نستطيع أن ننسى

جهدهم ، وفي مقدمتهم البستاني وفريد وجدي ، ودائرة البستاني لما تكتمل حتى اليوم ، والدكتور فؤاد افرام البستاني قد أخذ على نفسه عهداً بإتمامها ، وما أظن أن جديداً قد أضيف حتى الآن ، وهي بالإضافة الى دائرة فريد وجدي التي ظهرت قبل الثلاثينات من هذا القرن ، قد بعدت عن مجال المعلومات العديدة ، التي تتجدد كل يوم في كل مجال ، خاصة مجال العلم وفتوح الكشوف والاختراعات ، ولذلك فأننا نتلفت من حولنا فلا نجد إلا مشروعات لدوائر معارف وموسوعات لعدد منها ، عن هيئات حكومية في مختلف أنحاء العالم العربي ، ولكننا ما زلنا نؤمن بالجهود الفردي ، إذا صدقت التنية وتوفرت الإمكانيات . والأستاذ عطية الله رجل دؤوب منظم ، أتبع له منذ مطلع حياته أن يسافر الى أوروبا ، وأن يقضي بها سنوات طويلة ليحصل على عديد من الدرجات في التاريخ وعلم النفس من جامعة لندن ، ثم هو منذ عاد الى مصر يواصل العمل في مجالاته الفكرية المختلفة ، ففي الصحافة والكتابة والتأليف ، له عشرات من الكتب الانيقة المهدومة ، وله سلسلة من سلاسل الأعلام ، قدم عشرات من الشخصيات ، وأدى اهتماماً كبيراً للشباب والأطفال ، فقدم ٣٢ كتاباً وقصة تأليف وترجمة ، وطبع مجلة للأطفال ما تزال حتى الآن مرجعاً لكل من يكتبون في هذا الفن . وهو واحد من ثلاثة قدموا هذا الفن الى الأدب العربي : كامل كيلاني ، وأحمد عطية الله وسعيد العريان .. وله مؤلفات في علم النفس والتربية ، درس فيها نظريات متعددة ، وهي تقويم التعليم ، والذاكرة ، والنسيان ، وسيكولوجية الضحك ، والطفل الشاذ ، وله مؤلفات في الرحلات .. وكتب عن لندن وبرلين ، وله : يوم في باريس ، وعلى الدانوب ، وحدث في باريس ، فضلاً عن تراجمه عن محمد عليه السلام ، والسلطان عبد العزيز ، وهارون الرشيد ، وصلاح الدين الأيوبي ، وعبد الله النديم . وفي مجال المؤلفات التاريخية له : الهاربون ، والجيش الفاتح ، والحقائق والوثائق عن ثورة مصر ...

ويعيننا هنا بصفة خاصة ان نقدم هذا الباحث في مجاله الكبير ، مجال الموسوعات ، وذلك بمناسبة ظهور موسوعته الجديدة « القاموس الإسلامي » ..

التي ضمنها تعريفاً بمصطلحات الفكر الإسلامي ، ومعالم الحضارة الإسلامية ،
وتاريخ الدول الإسلامية ، وتراجم الأعلام والمشاهير ، مع التعريف بأشهر
المؤلفات في المكتبة العربية والإسلامية .

ويضم هذا القسم الأول أكثر من ألفي مادة ، والقسم الثاني في الطريق
إلى قرائه ...

ونحن نعلم أن هناك دائرة المعارف الإسلامية التي ما تزال لجنتها في القاهرة
منذ سنة ١٩٣٢ تواصل ترجمتها ، ولما اتصل بعد الى حرف (ش) في جهد
مشكور ، ولكنه طويل ، ربما كان مضيقاً حيث ظهرت دوائر معارف إسلامية
جديدة ، فضلاً عما أخذ عليها من نقص وأخطاء وانحرافات .

من أجل هذا كانت الحاجة ماسة الى موسوعة مفهومة عن الفكر الاسلامي
والحضارة الاسلامية ، للتعريف بهذا التراث الإنساني ، الذي عاش من عمر
الزمان أربعة عشر قرناً ، ويشير الأستاذ عطية الله الى المحاولات التي سبقته ،
فشكرها ، ولكنه لا يستطيع أن ينكر أن بعضها كان قاصراً عن تحقيق روح
الفرض وجوهر الغاية التي تستهدفها موسوعة إسلامية تعرف وتحقق وتحدد
للقارئ مدلولات ومعاني الأسماء والمصطلحات التي يلتقي بها في دراساته
وقراءاته ، فإذا قيل أن هناك مؤلفات كثيرة في هذا المجال ، كانت من رأي
صاحب الموسوعة : أن الفائدة لا تنهيا منها الا للخاصة من القراء المتمكنين من
هذه الدراسات ، فضلاً عن أن أمهات هذه المؤلفات قد وضعت في عصر غير
هذا العصر ، فهي تحتاج الى إعادة نظر في صياغاتها ، والى تجديد مادتها ..
وعنده أن أشد ما يؤخذ على هذه المؤلفات المعجمية ، أنها لا تحيط بشئ نواحي
التراث الإسلامي ، فهي إما أن تكون معنية بالمادة اللغوية أو الفقهية أو
العقائدية ، وإما أن تكون معنية بالتاريخ الإسلامي الى عصر المؤلف ، أو بتراجم
أعلام الفقهاء والعلماء والأدباء ورجال الحكم والحرب والسياسة ، أو بأسماء
الأمكنة وما إليها . وقد راجع المؤلف كل الأعمال التي سبقته ، وحاول أن

يكون عمله جديداً وثافعا ، وكان من رأيه أن الحاجة ملحة الى معجم تتسع مادته بحيث تشمل مصطلحات التراث الإسلامي من أعلام ومسميات ، وبضيق حيزه بحيث لا تتضاعف مجلداته الى الحد الذي يحرم كثيرين من الحصول عليه ، أو يثقل عليهم استخدامه ، ومن هنا جاء هذا القاموس الذي عني بمختلف آثار العالم الإسلامي من أقصى المشرق الى أقصى المغرب ، جغرافية وأعلاماً وحضارة وتاريخاً ، مع الرسوم والصور والخرائط المناسبة . وكان عمل المؤلف السابق في قاموسه : القاموس السيامي ودائرة المعارف الحديثة واضحاً ، فقد تمرس بهذا اللون من العمل وأجاده ، وبلغ فيه مبلغ الثقة والتقدير من مختلف الباحثين .

فاذا رجعنا اليوم الى (القاموس السيامي) ، وهو أول أعماله في هذا الميدان ، وجدنا المؤلف دقيق العناية يختلف حاجات الباحث في ميدان الحرب أو السياسة أو الاقتصاد ، فاذا وجد الحاجة ماسة لقاموسه أعاد طبعه وأضاف اليه (خلال الحرب العالمية ١٩٤٣) قسماً جديداً ، تحت عنوان : (قاموس الشؤون الجارية) وقد جعله منفصلاً ، حتى إذا ما استقرت شؤون العالم بعد ذلك مزجه مع الأقسام الأخرى ، وتلك حيلة نافعة ، حتى لا تتأثر حقائق التاريخ الرئيسية بأحداث الحاضر المتذبذبة .

وفي قاموسه هذا ، يقدم رؤساء الدول ، وأنظمة الحكم ، وعواصم العالم ، وتعداد سكانها ، ومدن العالم الكبرى ، والعملة في العالم ، وميزانيات الدول ، ووارداتها وصادراتها ، والديون الدولية ، والأساطيل التجارية ، ومواصلات العالم البحرية ، ونسبة المواليد والوفيات في العالم ، وإنتاج العالم للواد الغذائية . ويوجه للعالم العربي عناية خاصة ، ويضم الى ذلك أطلساً سياسياً مزوداً بالخرائط .

فاذا انتقلنا الى دائرة المعارف الحديثة ، وجدنا عملاً أنيقاً مرتبطاً ، فيه طابع العلماء وطابع رجال الفن معاً ، فالأستاذ عطية الله يضع في تقديره أن هذا العمل سينتفع به الصحفيون والأدباء والمفكرون وهيئات التدريس في الجامعات والمدارس ، ولذلك فهو يزوده بكل ما يستطيع من صور ورسوم وخرائط ،

وقد أعانته على هذا العمل أنه كان مديراً لمتحف التعليم فترة من الزمن ، مما هباً له جواً علمياً في العمل ، لم يتوفر له من بعد عندما عمل مديراً لمكتب البعثات التعليمية في النمسا ، وملحقاً ثقافياً بالسفارة المصرية بفيينا ، ولكنه كان في خلال هذه المراحل من حياته العملية ، الرجل المشهود له بالخبرة والبراعة ، وأخشى أن أقول الصراحة في أداء الواجب كاملاً على النحو الذي يحقق أحسن النتائج ، ولقد أتيت لنا أن نعمل معاً في مجال المطبوعات الفكرية والسياسية سنوات ١٩٥٣ ، ١٩٥٤ ، وفي برنامج صوت الشباب في الإذاعة المصرية ، فكان مثلاً من أمثلة العالم المدقق ، الذي لا يقبل شيئاً إلا بعد مراجعة دقيقة وفحص علمي واف ، وما زلت أذكر كيف كان يعمل هو الساعات الطويلة في مراجعات طويلة ، حتى يخرج العمل أشد ما يكون كمالاً وقوة ، ولعل هذا يرجع الى طابع الصعيد وطابع أسوان بالذات . فكذلك عرف العقاد جاره وابن بلده ، فإذا أضفنا الى ذلك كفاحه المتصل في مجال العلم سنوات طويلة ، واتصالاته بأوساط الباحثين والعلماء في جامعة لندن ، وعمله في مجال الصحافة المصرية والتعليم ومراقبة الصحافة وإدارة الشباب ومراقبات نشر الثقافة والمطبوعات ومتحف التعليم ، خلال حياة خصبة ما تزال عامرة بالعمل الدائب ، قدرنا هذه العقلية الموسوعية التي تأخذ خطأ واضحاً ما أحوجنا الى أن نضاعفه .

ولقد عني الأستاذ عطية الله بالموسوعة الإسلامية منذ ظهر المؤتمر الاسلامي ، وزاد من اهتمامه بها عندما عين مديراً لمعهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة . وما زلنا ننتظر منه إعادة طبع دائرة المعارف الحديثة ، وقد مضى عليها اثنا عشر عاماً ، وقد احتفلنا بها في جريدة الزمان بكلمة تحية في ٤ ابريل ١٩٥٢ جاء فيها : « عكف الأستاذ عطية الله منذ وقت طويل ، على دراسة دوائر المعارف الفرنسية والإنجليزية والأمريكية ، واستخلص من لبها الذي صدر في عشرات الأجزاء عملاً قوياً ناعماً ، أضاف اليه من بلادنا وتراثنا الشيء الكثير . ولقد كنت أزور الأستاذ عطية الله فأجده في أي وقت من الصباح أو الساء عاكفاً على مراجع الضخمة ، يحاورها ويستخلص منها بنوده التي ضمنها دائرة معارفه ،

فلم يذق النوم عاماً كاملاً . فأدهشني هذا الانكباب وهذا التجرد لبعثه ، وهذا الانصراف عن بنيه وأولاده ومشاغله الخاصة ، واستهائته بأمر راحته في سبيل العمل . وقد استطاع بذلك أن يقدم خدمة جليلة للفكر الحديث ما أظن أن جيلنا المعاصر يستطيع أن يقدرها حق قدرها أو يحزى بها .

واليوم وبعد ١٥ عاماً ، أعود فأقول أن أحد عطية الله ، يكفيه أنه وضع اسمه بين الخالدين من مؤلفي الموسوعات ، وأنه الآن إذ يقال (البستاني ووجدي وعطية الله) في العالم العربي ليكفي ، أما الجزء المادي فما أظنه يتطلع إليه . ولو كان من ربائبه لوجه جهده الى المجالات التي تدر الألوف ، وهو القادر على أن يحسن كل ما يعمل ، في أي ميدان ..

- أحمد عطية الله من مواليد ١٩١٠ في اسوان ، خريج جامعة لندن تفرغ للقواميس والموسوعات وعني بدراسة التربية وأدب الطفل وأصدر مجلة للأطفال ، وحرر باب يوميات التعليم في الاهرام ١٩٣٤ .
- من مؤلفاته : بسائط علم النفس ، تقويم الشعب ، برلين ، الحقائق والوثائق عن ثورة مصر ، دائرة معارف التربية ، دائرة المعارف الحديثة ١٩٦١ ،
- الذاكرة والنسيان ، رحلة ابن بطوطه ، العهد الجديد ، طارق بن زياد ،
- على الدانواب ، قاموس الثورة المصرية ، القاموس الاسلامي (صدر منه ٢ جزء) ، ميثاق الثورة ، يوم في اوربا ، الماربون ، القاموس السياسي ،
- لعب الأطفال ومكانها في التربية ، لندن ، المصانع الحربية ، مصر في الميدان ، مزين بغداد .

(٧)

الدكتور أحمد غلوش الدعوة إلى الإسلام

ما يزال اسم الدكتور « أحمد غلوش » واضح الدلالة في العالم العربي كله على دعوته إلى تحريم الخمر ، ودراساته المتصلة في هذا المجال ، كما عرف بمؤلفه عن الإسلام الذي كتبه باللغة الانجليزية وطبع عدة مرات وترجم إلى عديد من لغات العالم ما عدا اللغة العربية .

ولعل هذا الجانب هو الذي أعطى الدكتور أحمد غلوش شهرته الواسعة حيث أصبح كتابه مرجعاً من المراجع الأساسية لدراسة الإسلام ، وبالرغم مما ظهر بعد ذلك من عديد من المؤلفات فما زال يمثل الريادة في هذا المجال .

وكان الدكتور غلوش قد سبق إلى هذا المجال منذ عام ١٩٣٦ تقريباً ، حين أصدر كتابه (حقائق الدين الإسلامي) باللغة الإنجليزية في جزئين ، إثر تجربة طويلة في مجال المثقفين الأوروبيين والهيئات المختلفة ، وبعد أن توالى زيارته

لأوروبا من أجل دعوته الى تحريم المسكرات ، والتقاءه بالعشرات من المتعطشين الى معرفة حقيقة الإسلام ، وكان مما أعان الدكتور غلوش على هذا العمل أنه تخرج من جامعة لندن عام ١٩١٣ أستاذاً في اللغة الإنجليزية ، بالإضافة الى دراسة واسعة للعلوم الإسلامية في جامع الشيخ ابراهيم بالإسكندرية على النحو الذي يدرسه العلماء في الأزهر الشريف . وقد بلغ في إجادته للإنجليزية أنه يعد واحداً من عدد لا يبلغ أصابع اليد في العالم الإسلامي كله .

فلما أحس الدكتور غلوش بحاجة غير العارفين باللغة العربية إلى هذا العمل ، وجه نفسه إليه ، وأمضى سبع سنين باحثاً دراساً ، حتى استطاع إخراج كتابه مشتملاً على دراسات عن الإسلام وسيرة الرسول ، شارحاً الرسالة الإسلامية والعقائد الدينية ، مقيماً الأدلة على صحتها ، مفنداً للشبهات والمفتريات التي أثيرت حول النبي وحول الإسلام بلغة المحلزية سليمة .

يقول الدكتور غلوش : « كان مفروضاً على جماعة العرب المسلمين أن يهتموا بتبليغ رسالة الإسلام على وجهها لمن لم تبلغه ، فهي رسالة عالمية لا تخص العرب وحدهم دون غيرهم من الأمم والشعوب ، لا سيما وقد كثر الكتاب الأجانب المعرضون ، ونهض المبشرون المحترفون ، لإثارة الشبهات والمفتريات حول أصول الاسلام ونبي المسلمين ، فكان حقاً علينا معشر العرب المسلمين أن نهيب لدرء الشبهات عن ديننا ، ثم أن هناك أقواماً مسلمين يعدون بعشرات الملايين يقيمون في الأقطار الأجنبية مثل الهند والصين والباكستان والملايو واندونيسيا وغيرها ، كما يوجد في الأقطار الإفريقية الحديثة الإستقلال أقوام عديدون ، يقرأون باللغة الانجليزية دون العربية ، وهم لا يعرفون من مسائل دينهم الا التذر اليسير ، فهم في حاجة الى معرفة ما خفي عليهم من أمور دينهم وأصوله ، باللغة التي يفهمونها وهي اللغة الانجليزية » .

وقد وجد كتاب الدكتور غلوش شهرة واسعة ، نظراً لقدرته الفائقة في إذاعته وإهدائه الى عشرات من الأعلام والسفارات والمسؤولين في مختلف أقطار العالم ، وفي الهند لقي الكتاب رواجاً كبيراً ، وفي الولايات المتحدة شق الكتاب طريقه الى كثير من المسلمين الذين لا يعرفون العربية ، وكان من ترجم الكتاب الى اللغة اليابانية ، وقال البروفسور كلارك الأستاذ بجامعة أكسفورد أنه (بعد أن قرأ في الكتاب سيرة الرسول محمد أكثر من مرة لم يجد لقباً جديراً به الا لقب النبي إذ أن صاحب هذه السيرة لا يمكن إلا أن يكون نبياً) .

كما لقي كتاب الدكتور غلوش تقدير الباحثين المتخصصين ، الذين أجمعوا على أن الكاتب أجرى مقارنة بين نصوص الكتب المقدسة ، من شأنها أن تعين القارئ على تفهم حقائق الاسلام على وجهها الصحيح ، وأنه كان أقرب الى المؤرخ العادل منه الى الكاتب المدافع عن دين قومه ، فلم يعمد الى المديح أو الميل مع الهوى بل بسط الحقائق كما هي ، على نحو موضوعي دون أن يكون عمله مذكرة دفاع .

كما عد من أسباب أهمية الكتاب في مجال التعريف بالاسلام ، أنه عالج كافة المسائل الأصولية للإسلام .. وما جاء به من الشرائع الأساسية والإصلاحات والأنظمة الاجتماعية وكما تناول الأحوال الشخصية وحقوق المرأة .

وما زال الدكتور غلوش بعد سن السبعين فتياً صادق الإيمان مدفوعاً الى العمل ، لإضافة دراسات جديدة عن مقارنات الأديان .

وقد صور الدكتور غلوش تجربته في هذا المجال فقال :

« أن هناك أقواماً مسلمين يعدون بعشرات الملايين ، يقيمون في الأقطار المختلفة ، يقرأون باللغة الانجليزية ، دون العربية ، وهم لا يعرفون من مسائل دينهم الا النذر اليسير ، فهم في حاجة الى معرفة ماخفي عليهم من أمور دينهم ، وأصوله باللغة التي يفهمونها ، وهي اللغة الانجليزية . ولقد وقفت أثناء تجوالي

في الأقطار الأجنبية على هذه الحقائق ، فصح عزمي على وضع مؤلف باللغة الانجليزية يؤدي عن العرب والمسلمين الواجب ، ولقد اطلعت على ما كتبه المؤلفون الأجانب عن الاسلام لأقف على مواطن النقص والأباطيل التي تحتويها والشبهات التي أثرت فيها .

وقد علمت علم مشاهدة ويقين ، من مخالطي كثير من الاوربيين والأمريكيين ، أن هؤلاء القوم قد أوتوا حظاً كبيراً من العلوم المدنية والمعارف الكونية ، فاستنارت عقولهم وثققت أذهانهم ، بحيث اذا عرض عليهم الحق بادروا الى قبوله ، وقد اتفق لي حين اتصلت بآخرين من الأوربيين المثقفين أن وجدتهم يزعمون أنهم على بينة من دين الاسلام ، ولكنني حين تحدثت اليهم ألفتهم لا يعرفون في الواقع من أمر هذا الدين غير ما قرأوه في مصنفات وضعها بعض دعاة الكهنة أو المستشرقين ، إما بعدم تحييصهم لما يشبتون وينقلون ، وإما استكباراً ، وقد وقعت في يدي مصنفات من هذا القبيل ، وقد خلصت الى أمرين (الأول) : إن الغربيين ، خصوصاً المثقفين والمستنيرين منهم ، يتوقون فعلاً الى كتاب من وضع المسلمين أنفسهم ، يرشدهم الى حقيقة الرسالة الاسلامية وما تنطوي عليه من عقائد دينية ومبادئ عمرانية وآداب عامة ، و (الثاني) : أنه قد أصبح من أوجب الواجبات علينا ، ان نهتم جد الاهتمام بأن ننشر ما ينطوي عليه الاسلام من العقائد والمبادئ والأحكام ، في كتاب جامع بإحدى اللغات الأوربية لتبين أمهات المسائل الإسلامية ، ونرد فيه على الشبهات التي أثارها بعض الكتاب ، وإذ كنت بفضل الله مثقفاً ثقافة إسلامية ، وقادراً على تبيانها باللغة الانجليزية فقد صنف هذا الكتاب .

● الدكتور أحمد غلوش : داعية منع المسكرات منذ عام ١٩٠٥ والباحث الاسلامي الذي يجيد الحديث عنه باللغة الانجليزية بطلاقة . وله أبحاث عديدة موزعة في بطون الصحف والمجلات خلال اكثر من ستين عاماً .

الدكتور أحمد شلبي الدراسات الإسلامية

برز في ميدان الدراسات الإسلامية « الدكتور أحمد شلبي » ، الذي أتيح له أن يبدأ عمله الفكري الاسلامي في (أندونيسيا) ، حين عمل مديراً للمركز الثقافي للجمهورية العربية يجاكارتا ، وأستاذاً للدراسات الإسلامية بالجامعات الإسلامية بأندونيسيا في الفترة بين ١٩٥٥ - ١٩٦١ ، هنالك أتيح له أن يخرج عشر مؤلفات باللغة الأندونيسية أهمها عن « مقارنة الأديان » و « الفكر الاسلامي » ، و « التربية الإسلامية » و « التاريخ الاسلامي » . كما تحقق له أن يترجم عديداً من مؤلفاته وبخاصة كتابه عن تاريخ التربية الإسلامية الى الأوردية ، وأن يترجم أيضاً الى اللغة الانجليزية .

والواقع أن الدكتور شلبي باحث متعمق موسوعي ، فإنه قد وضع لعمله في التعريف بالاسلام خطة ضخمة بعيدة المدى ، وأخذ نفسه بالعمل لها وفق نظام دقيق ، وأبرز أعماله هي دراسات مقارنة الأديان في أربع مؤلفات كبرى ، عن اليهودية والمسيحية والاسلام وأديان الهند الكبرى « الهندوسية - اللجينية والبوذية » .

وقد أتيح له أن يكون علم مقارنة الأديان من أعماله في عديد من الجامعات ،
وكان لعمله في أندونيسيا أثره الواضح في اهتمامه بالدعوة للإسلام في منطقة
جنوب شرق آسيا ، وفي هذه المنطقة الضخمة بين قارة الهند وجزر أندونيسيا .

وقد استطاع بذلكه الفائت أن يجيد اللغة الأندونيسية ، وأن يكتب بها
ويحاضر ، بالإضافة الى العربية والانجليزية . ومن ثم تحقق له أن يكتب بها
مؤلفاته العشر التي تعد ركيزة الدعوة الإسلامية في هذه المنطقة وأساسها والتي
ما تزال تطبع منها عشرات الألوف بأذن مطلق من مؤلفها .

والواقع أن الدكتور أحمد شلي بدأ حياته الفكرية بداية كانت ترمز الى
هذا الدور الضخم الذي قام به في مجال التعريف بالإسلام ، فقد كانت أطروحته
من أجل إجازة الدكتوراه في جامعة كمبردج عن « تاريخ التربية الإسلامية » ،
وهو موضوع شائق مبتكر لم يسبق فيه بمؤلفات أو دراسات ، وقد أجده هذا
البحث الذي تطلب منه رحلة طويلة من لندن الى دمشق وحلب وبيروت
وبغداد والنجف والقاهرة ، من أجل الحصول على الوثائق في الموضوع الدقيق ،
الذي كان ينقص المكتبة العربية حقاً ، فقد كان الشباب المثقف في العالم العربي
والشرق ، يعرف كثيراً عن أصول التربية الاغريقية والانجليزية والفرنسية ،
ولكنه لا يعرف شيئاً عن التربية الإسلامية ، فاستطاع بهذا العمل أن يسد هذا
الفراغ ، ولقد شهد أستاذه المستشرق الدكتور آرثر اربري بهذا العمل ، فوصفه
بأنه دراسة قوية الدعائم وناجحة الى أقصى حدود النجاح ، إعتمد الباحث في
إخراجها على المصادر الأصلية المتعددة ، وبخاصة مجموعة كبيرة من المخطوطات
التي تيسر له قراءتها في أثناء رحلته العلمية الى دول أوروبا والى دول الشرق ،
وأشهد أن الدكتور شلي في اختبار هذه المصادر وفي دراسته لها وانتفاعه بها ،
قد تجلت فيه مواهب البجائية الدقيق من جلد وعمق وإحاطة وحماسة وامتياز
ومقدرة على الوصول الى قلب المشكلة ، وموهبة الوضوح وحسن النظام وروعة
العرض .

ثم كان أن اتجه الدكتور شلي الى عملين كبيرين هما: دراسة الفكر الاسلامي في مجالاته الثلاث : الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، فكان كتابه « المجتمع الاسلامي » الذي ترجم للفتين الأوردية والأندونيسية ، كما ترجم كتابه عن التربية الاسلامية ، ويبدو في هذا البحث الجهد الشاق الذي بذله الباحث في شرح النظريات الاسلامية في مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع والاخلاق ، ثم يشرح حال المسلمين وأسباب اضطراب مجتمعاتهم ، والأسباب التي قادت الى هذا الاضطراب ، وهو كما وصفه مؤلفه رحلة طويلة من جهة الزمان والمكان ، وقد أتيح لهذه الدراسة الخصبه المادة أن تجسد مجالاً نافعا في أندونيسيا والملايو والباكستان ، ووجد إقبالاً وشغفاً حتى عد في هذه الأقطار من الكتب الرائدة البناء ، وطبع منه عشرات الآلاف من النسخ .

وأتيح للدكتور شلي أن يشارك بدراساته هذه في بناء الحكومة الأندونيسية في أواخر ١٩٥٦ عندما انعقدت الجمعية التشريعية لوضع الدستور .

فقد استطاع أن يقدم عملاً نافعا في هذا المجال ، طلبه منه السيدان الحاج محمد ناصر رئيس حزب ما شومي والحاج عبد الفتاح كفاوي وكيل الجمعية التشريعية وأبرز أعضاء حزب نهضة العلماء ، فقام من فوره بعمل رسالة بعنوان « الحكومة والدولة في الاسلام » أقبل عليها القراء العرب والأندونيسيون إقبالاً ملموساً ، مما دعاه الى تعميق البحث حتى برز أخيراً في صورة أكثر كلاً وإفاضة تحت عنوان « السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي » ويستكمل دراسة الفكر الاسلامي بكتابه عن الحياة الاجتماعية الذي يعده الآن .

وقدم الدكتور شلي موسوعة أخرى عن التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية في خمسة أجزاء ، تناولت تاريخ الاسلام منذ بزوغ فجره الى الوقت الحاضر ، كما تناول تاريخ العرب من قبل الاسلام ، وهكذا فتحت هذه الدراسات الطريق أمام العمل الكبير الذي أتيح له أن يقوم به ، ويوغل فيه ، ويحقق جهداً ضخماً في أربع لغات : العربية والانجليزية والأندونيسية والأوردية .

ويمكن القول أن الدكتور شلي نموذج فريد في تكوينه ، فقد تعلم في الأزهر ودار العلوم وجامعة كمبردج ، وهو مما لم يتح الا للقليل من المثقفين ، ولعل هذا هو مصدر اكتمال بنيانه الثقافي ، على نحو يجعله من أبناء المدرسة الوسطى ، التي استطاعت أن تتصل ببيئات المستشرقين ، وتعيش فيها سنوات دون ان تتحرف أفكارها أو تضطرب مقاييسها ، لأن القاعدة الأساسية للبناء الفكري كانت متكاملة وناضجة قبل الرحلة ، مما أتاح له ما أتيح من قبل لعبد العزيز شاويش وحسين توفيق العدل ، وغيرهم من الأعلام ، الذين وردوا موارد الثقافة الغربية ، ثم استفادوا منها أسلحة مشحونة للدفاع عن الفكر العربي الاسلامي ، وتنقيته وترقيته وإبلاغه مكانته الحققة .

ويتحدث الدكتور شلي عن تجربته الثقافية ، فيقول :

عشت في الأزهر تسع سنين ، أبتدأت وسني حوالي خمس عشرة سنة ، وانقضت وأنا في الرابعة والعشرين ، وفارقت الأزهر بعد ذلك ، ولكنني ظللت متصلا به بثقافتي وأقاربي الذين يتعلمون ويعلمون فيه . وقد سئلت في أوروبا هذا السؤال :

— ما أهم الأحداث والمفارقات التي حدثت لك بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين ؟ .

وسألت أنا بدوري : لماذا تقصدون هذه الفترة من العمر ؟ .

وتلقيت الجواب : إنها فترة الشباب المضطرب : مجازفات ، رحلات ، رياضة حب ، أخطاء ، أزمت نفسية ، خيال ، أمل ، تردد ، إقبال .

وفكرت في هذه السن وفي حالتي وقتها وأجبت :

— لم تمر علي هذه الفترة بعد .

وقال محدثي بمكر : هل لم تصل بعد الى الثامنة عشرة ؟

قلت : لقد وصلت في حساب الزمن ، ولكفي كنت في هذه الفترة طالباً بالأزهر ، فلم أعرف المجازفات ولا الرحلات ولا الرياضة ولا الخيال ولا الأمل ..

وانما عرفت ألفة ابن مالك والمتون والشروح والخواشي ، وكنت طالباً مخلصاً للعلم ، فكانت هذه الدراسات هي عالمي الذي فتحه لي « الأزهر » دون أن يفتح لي باباً سواه ... ولعل من حقي أن أقرر أن معرفتي بالأزهر كانت أعمق من معرفة الجهرة الغالبة من الطلاب به ، وسبب ذلك أنني كنت طالباً حريصاً الحرص كله على العلم ، وكنت أتمتع بجانب من الذكاء لا بأس به ، ولأضع لك هذه الحقائق في أرقام أدق بياناً وايضاحاً ، أقرر أنني لا أذكر أنني تخلفت درساً واحداً ولا يوماً واحداً طيلة هذه السنين ، وأنني كنت أول الناجحين في جميع الامتحانات التي دخلتها بالأزهر ، ويدخل ضمن هذه الامتحانات امتحان الشهادة الابتدائية على جميع المعاهد الأزهرية في القطر كله .

ولقد منحت الأزهر كل نفسي ، وأقبلت عليه إقبالاً نادراً ، وكنت موضع تقدير الشيوخ وحبهم .

* * *

وفي الأزهر اتجه الدكتور شلبي الى الأدب وقراءة الدواوين الشعرية ، فأصبح خطيباً مرموقاً ، وعضواً بارزاً في لجان السياسة ، حتى أسلمت له مقاليد العمل الوطني في المعهد الثانوي بالقازيق . غير أن العمل الوطني وجد جزاءه الحرمان من دخول الامتحان فاتجه الى دار العلوم بعد نجاحه الفائق في ثانوية الأزهر ، وانتهت دراسته في كلية دار العلوم الى درجة الامتياز ، مما أتاح له أن يسافر الى أوروبا ويعبر البحر ويلتحق بجامعة لندن ، ثم جامعة كمبردج .

يقول : وكافحت كثيراً لأثبت قدمي ، ولكن طالما عرض لي هذا السؤال : كم لغة كنت أستطيع أن أجيد ، وكم كتاباً كنت أستطيع أن أقرأ لو

وجهت لذلك ؟ وبذلت فيه الوقت والجهد اللذين بذلتها لحفظ الألفية وفك
ألفاظها وحفظ قطر النداء وشذا العرف والسعدي والأشمتوني والخطيب .

وبعد ، فقد قدم الدكتور شلبي للمكتبة الإسلامية في اللغات الأربعة ، آثاراً
نافعة بعيدة المدى في خدمة الدعوة الإسلامية ، في مجال التعريف والدفاع عن
الاسلام ، وما زال يشق طريقه في قوة وعون من الله .

وفي هذا المجال يمكن أن يذكر الكثيرون ممن قاموا بالعمل في هذا الميدان
من العرب منهم : الأستاذ حسن الموجي الذي ترجم البخاري الى الانجليزية ،
وأحمد شفيق مؤلف كتاب الرق في الاسلام بالفرنسية ، ومن المسلمين سيد أمير
علي ، ومولاي محمد علي ، وعبد العليم الصديقي .

● الدكتور أحمد شلبي : من خريجي دار العلوم ، اشتغل بالتدريس فترة في
افرنسيا والسودان .

من مؤلفاته : التاريخ الاسلامي والحضارة الإسلامية (موسوعة) في ستة أجزاء .
موسوعة مقارنة الاديان : الاسلام والمسيحية واليهودية ، وأديان الهند
(أربعة أجزاء) .
التربية الإسلامية .
تاريخ الفكر الاسلامي (٥) ، السياسة والاقتصاد في الفكر الاسلامي ،
المجتمع الإسلامي .

بدوي طبانه دراسات النقد الأدبي

من أهم ما تمتاز به نهضتنا الفكرية المعاصرة ، ظهور كتب « أصول » ، لها طابع الشمول والاتساع والدراسة المستوعبة ، وكان طابع المؤلفات في فترة الثلاثينات والأربعينات مقالات مجمعة ، ربما تحمل طابع النقد والعرض ، ولكن ينقصها الشمول والاستيعاب .

أما الدراسات الجديدة ، التي تمثل طابع مرحلتنا الفكرية في الستينات ، فهي العمل الكبير الواعي . ومن أبرز الأمثلة على هذا اللون من الدراسة ، كتاب الدكتور بدوي طبانة الذي صدر بإسم : « التيارات المعاصرة في النقد الأدبي » .

ففي أكثر من (٤٤٠) صفحة من القطع الكبير ، استطاع هذا الكاتب النابه ، أن يلم إلماماً شاملاً وافيّاً بتطور النقد في الأدب العربي المعاصر ، ممنياً بمصر على وجه الخصوص ، مستعرضاً في دراسة علمية هادئة مدعمة بالأدلة والأسانيد والوثائق هذه الحركة الضخمة ، في محاولة للإجابة عن سؤال ما زال يشغل الباحثين من مؤرخي الأدب ودارسي تطور النقد ، وهو : « هل استطاع

النقد المعاصر أن يؤدي رسالته في التقدير الصحيح للأعمال الأدبية التي تعرض لها ، ووضعها في موضعها الصحيح ، بين آيات الفن الأدبي ؟ وهل استطاع أن يحقق غايته الكبرى في توجيه الأدب نحو أهدافه المثلى التي ينشدها ، وأن يكون معيناً حقاً لجمهور الأدباء ، يرسم لهم خير السبل لتحقيق غايتهم في الفن ؟ .

وجملة قوله في الإجابة على هذا السؤال ، هو : أنه رغم أن نقادنا قالوا كلمة الحق ، فأشادوا بما يستحق الإشادة ، وزيفوا الضعف والتردي في كثير من ألوان الأدب ، ورسما بنقدهم المنهاج الواضح لمن يريدون الإفادة والتوجيه ، إلا أنه يبدو أن الهوى لا يزال طاغياً على الكثرة الكثيرة منهم ، بل ربما زاد طغيانه في هذا الزمن الذي يدعو كل شيء فيه إلى التثبث بأذيال الموضوعية ، وربما كانت ذاتية المعاصرين أشد ضراوة من ذاتية القدماء ، فكان ثناء وثناء ، ولكن ثناء على الأسماء لا على الأعمال ، وكان قدح وإنكار ، ولكنه ينصب على الأشخاص أكثر مما يصيب الآثار النقدية على كثرتها وتنوع مؤلفيها ، لا تصلح أن تكون أصلاً ثابتاً ، وهذا الضعف المستولي على البشر في تمجيد ما لا يستحق تمجيده ، وما ليس صاحبه في حاجة إلى التمجيد إنما هو ضرب من الملق الرخيص ، وقد تراه في انتقاص ما لا يوجب الانتقاص ، وما قد يكون صاحبه في أمس الحاجة إلى التشجيع ، وفتح الطريق أمام بواكيره ، التي تبشر بمستقبل زاهر وحياة فنية خصبة .

وقد عرض الدكتور بدوي طبانة لمواقف النقد ، فأشار إلى أن تلك الآثار النقدية على كثرتها وتنوع مؤلفيها ، لا تصلح أن تكون أصلاً ثابتاً يرجع إليه في نقد الأدب المعاصر أو سواه ، لأنها آثار متباينة يتجه كل منها إتجاهاً خاصاً ، وينظر إلى الأعمال الأدبية من زاوية خاصة . والسبب في ذلك أن الأدباء أنفسهم قد تباعدت اتجاهاتهم وتباينت مناهجهم واختلفت مبادئهم ومثلهم ، وعنده أنه لم تقم عندنا مدارس ذات مناهج أو تعاليم أدبية متكاملة ، فلم يستطع هذا العصر أن ينتج معام موحدة أو تقاليد متشابهة في أدب مجموعات من الادباء ،

ومن عوامل اضطراب النقد التحزب والتكتل حول بعض أعلام الأدب للإحتماء بهم ، والتعلق بأسبابهم للظفر ببعض الأغراض المادية والمنافع المعنوية ، حتى تعددت في حياتنا الأدبية الجماعات التي تقوى صفوفها وتقف في وجه جماعات أخرى ، تنافسها على السيادة ، وقد تناصبها العداوة ؛ فهو في الحقيقة تجمع لاقتسام الأسلاب ، وتوزيع الغنائم ، خشية أن تظفر بها جماعة مناوئة ...

ويرى الدكتور طبانة أن أغلب النقاد غلبت عليهم الثقافة الأجنبية ، وأن هذا الفريق لا يستحسن من الأدب إلا ما أثر عن الأجانب الذين عرف أدبهم ، وأحسن بما ركب فيه من نقص أن لا أدب إلا أدبهم ، فهو مثله الأعلى الذي يقيس عليه كل أدب ، ولذلك وقف على ما عند الأجانب من أصول النقد ومناهج الأدب ، فلا يعرف غيرها ، وتراه يحاول ما استطاع أن يغض من تلك المقاييس العربية التي لا يعرف عنها قليلاً ، ولا كثيراً ، محاولاً تحكيم مقاييس غربية في الأدب الذي ألفه أدباء عرب ، عاشوا على أرض العروبة واستظلوا بسماها .

وعنده أن هذا الفريق من النقاد ، الذين هام بكل ما هو أجنبي ، يحاول تحكيم الآراء النقدية العتيقة ، التي خلفها أرسطو ، ويحاول أن يوازن بين الأدب العربي والأدب اليوناني ، موازنة تنتهي إلى الحكم بتفضيل الآخر على الأول ، وهذا يبين مدى تطرف هذا الفريق في اتجاههم نحو تقديس آراء أولئك النقاد ، على الرغم من تباینها عنده .

وعنده أن هذه الطبقة اليوم من النقاد هي أعلاها صوتاً ، وذلك بسبب عاملين : أولهما تكاتف أفراد هذه الطبقة وتكتلهم لصد التيار المدافع ، الذي تمثلهم الطبقة الأولى ، ومحاولة تنحية أصحابها عن الحياة الأدبية ، وعن المشاركة في أي لون من ألوان النشاط العام في درس الأدب ونقده ، وذلك ليضمنوا لأنفسهم السيادة في هذا المجال ، وما قد تجر من مغنم أدبية وغير أدبية ، وتمثل المغنم الأدبية في الترويج لبضاعتهم ، وكسب الشهرة ، وذبوع الصيت

في البيئات الفنية وغيرها ، فهم أعضاء المحافل ، وأصحاب الأدوات ، وهم المحكمون في المسابقات الأدبية ، وقد غرهم ذلك حتى أصبحوا يتكلمون في كل شيء ، يدخل في دائرة تخصصهم ، في فن الشعر وفن الكتابة وفن القصة .

كما يتكلمون ويكتبون في جرأة غريبة في شؤون السياسة والاقتصاد والاجتماع . وغير ذلك مما لم يخلقوا له ولم يعدوا أنفسهم لدراسته وعلاجه ..

ولم يعد أمر هذا الانحراف في النقد غريباً ، فقد أشار اليه كل باحث منصف وقد عرضت له الشاعرة « نازك الملائكة » حين قالت : أن الناقد العربي اليوم يقف وقفة الخشوع والتقديس ، أمام النقد الأوربي ونظرياته الوافدة ، وكأن ذلك النقد نموذج في الإبداع والعبقرية ، لا يمكن أن يصله الفكر العربي الا بالتقليد والاقتباس والنقل ، وفي غمرة هذه العقيدة الواهمة ، أغلق الناقد العربي الباب على منابع الفكر الخصوبة والموهبة في ذهنه ، ونسي هؤلاء أن النقد الأوربي ينحدر من تاريخ منغلز انغزالاً تاماً عن تاريخنا ، وكيف يتاح لنا أن نطبق أسس ذلك النقد الأجنبي على شعراً الذي يتدفق من قلوب غير تلك القلوب وعصور غير تلك العصور ؟ ! .

وأشار الدكتور بدوي أن لأدبنا العربية شخصيتها المستقلة ، وأن النقد الذي يصلح لشعراً يختلف بالضرورة عن النقد الأوربي .

وأن نقادنا ما يكادون يقرأون اليوت ورتشاردز وبرادلي وفاليري ، حتى يحاولون أن يطبقوا ما يقولون على الشعر العربي ، مهما كلفهم ذلك من تصنع وتعمس وجور .

وأشار الى أن الآداب الأوربية ثروة ضافية اذا واجهناها مختارين ، ولكنها تكون من سقط المتاع اذا نقلناها وانصعنا لها .

ومن أهم ما عرض له الدكتور بدوي طبائفة من مقاتل النقد المعاصر : « طابع الذاتية » ، وعنده أن السر في إخفاق النقد الأدبي الحديث في تحقيق

غايته ، والوصول الى أهدافه ، هو صبغه بالذاتية ، واتخاذ النقاد إياه أداة لإشباع شهواتهم ، في النيل من خصومهم من الأدباء ، الذين لم يستطيعوا أن يبلغوا مبلغهم من القوة ، أو القدرة على الابداع ، أو يحققوا ما حققوه من أسباب الشهرة وذيوع الصيت .

وكان ذلك سبباً من الأسباب التي حركت أطماع منافسيهم ، الى الظفر بمثل ما ظفروا به ، من العناية وبعد الصيت في الحياة العامة ، فلم يحدوا من الوسائل لتحقيق مآربهم سوى سهام النقد نحو خصومهم ، ليسقطوهم من عليائهم ، ويحلوا منازلهم بدافع الحسد أو الطموح . كما اتخذ النقد سلاحاً للنيل من الخصوم والتشهير بهم والخط من أقدارهم ، اتخذ وسيلة للتنويه والإشادة بالأنصار والأولياء ، ومن ثم تخلى النقد عن منهجه في التقويم والتمييز .

وأشار الدكتور بدوي الى ما كان من أثر للصحافة في النقد ، وهو دور مشهود « هوى بالنقد وأساليبه الى الحضيض » ، فالصحافة هي التي أذكت أوار المعركة ، وأشعلت نار العداوة ، وأثارت الأحقاد بين الأدباء ، وهبطت بأقلامهم وفنيتهم ذلك الهبوط الذي شهدته الحياة الأدبية ، مما قل أن نجد له نظيراً في حياة الأدب والنقد .

كما عرض « للسياسة الحزبية » ودورها في إشعال هذه الفنية وإذكاء نارها فقد كانت لا تتورع أن تتذرع للوصول الى غاياتها من الخط من شأن الخصوم وزعماء الاحزاب المناوئة ، بأحط وسائل السباب ، ووجدت من بعض الأدباء وأقلامهم خير معين على تحقيق هذه الغاية .

وهكذا كشف الدكتور بدوي طبانة في صراحة ووضوح عن « أزمة » النقد المعاصر ، ثم واصل في إفادة وعمق تصوير اتجاهات النقد المعاصر ، ونقد الأغراض الأدبية ، وتحدث عن لغة الأدب ، وصورة الأدب ، ونقد المعاني الأدبية . وألم للمأماً واسعاً شاملاً بكل ما صدر من آثار ومؤلفات في مجال النقد الأدبي على نحو لم يسبق اليه من ناحيتي الشمول والعرض الفني .

ولم يكن الدكتور بدوي جديداً على الميدان ، وهو الذي عني بدراسات النقد الأدبي منذ شبابه الباكر ، حين بدأ كتاباته في الأدب والنقد والشعر في صحف البلاغ والاهرام والدستور ومجلة أبولو والنهضة الفكرية منذ عام ١٩٣١ .

غير أنه منذ عشر سنوات كتب مؤلفه الأول في هذا المجال (دراسات في نقد الأدب العربي) ، مقدمة لاتجاه ظل يقوى ويعمق حتى أوفى على غايته في كتابه الذي أصدره أخيراً .

وفد عني بالنقد الأدبي منذ مطالع الأدب العربي القديم ، حيث تناول أشهر النقاد ومناهجهم وآثارهم ، من الجاهليين الى اليوم ، وفي خلال ذلك تناول بالدرس شخصيتين من أبرز شخصيات النقد الأدبي هما : أبو هلال العسكري وقدامة بن جعفر .

وللدكتور بدوي جهود ضخمة في ميدان الأدب ، من أبرزها مؤلفاته : البيان العربي ، والسرقات الأدبية ، ومعلقات العرب ، وعلم البيان ، والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ومقدمة في التصوف الاسلامي .

وفي خلال إقامته في العراق خلال ست سنوات ، أتبع له أن يكتب دراسة أدبية عن معروف الرصافي (شاعر العراق) ، وبيئته السياسية والاجتماعية ، كما ألف كتابه : « أدب المرأة العراقية » ، حيث تناول بالدرس الأدب النسوي والتعريف بشواعر العراق ..

والدكتور طبانة باحث يتميز بالصدق والصراحة والوضوح ، وقد أجمع النقاد على أنه يستعرض شخصياته في أصالة ، ويقول ما لها وما عليها .

وقد أحس منذ مطالع شبابه بالائمان الصادق بالعروبة واللغة والعقيدة ، ولا غرو ، فان دار العلوم « مدرسة فكرية » لها طابعها وسمتها ، وقد عاش خريجوها مجاهدين في سبيل المثل العليا والقيم ، وكانوا وسطاً بين جمود المدارس القديمة وبين اندفاع المفكرين المتأثرين بالغرب ، وقد ولد عام ١٩١٣ ببسطة الشهداء (منوفية) ، وأحس منذ مطالع دراساته بالرغبة في التعبير عن النفس ،

فقال الشعر ، ونشر منه قصائد متعددة في أبولو والنهضة الفكرية ، ثم اتجه الى النثر ، فكتب في مطالع كتاباته : (الشعر القصصي ونصيب العرب فيه) وذلك حوالى ١٩٣٢ في البلاغ .

ثم تحقق له أن يعمل في ميدان التدريس عام ١٩٣٨ ، وأن يتولى التدريس في معهد المعلمين بالعراق بين عامي (١٩٤١ - ١٩٤٧) (١) ، وكانت له انطباعات عربية في خلال إقامته بالعراق ، عمقت مفاهيمه في العروبة والقومية والوحدة ، وأتيح له أن يكتب دراسة مخلصه صادقة عن « الرصافي » ، هدد بشأنها هناك من الحكومات البائدة ، فقد كان الرصافي خصماً للقصر العراقي ، ومعارباً لحكومة نوري السعيد . وكان الدكتور طبانة مخلصاً فقال فيه كلمة الحق التي عجز كثيرون عن قولها ، منصفاً لهذا الرجل ، وقد دارت بينه وبين بعض كتاب العراق مساجلات في هذا الصدد .

وليس كتاب (التيارات المعاصرة في النقد الأدبي) هو آخر إنتاج هذا الباحث النباه ، بل له مؤلفات أخرى ما تزال تحت الطبع ، في مقدمتها (معجم البلاغة العربية) ، ودراسة عن صاحب بن عباد .

ولست دراساته هذه بالدراسات الخاصة أو المتصلة بعمله في دار العلوم ، بل هي من مستوى الدراسات العامة الشاملة ذات الأثر الكبير في مجال الفكر ، ولا أعتقد أن باحثاً يكتب في النقد الأدبي ، يستطيع أن يتجاهل أو يستغني عن كتابه الذي نحن بصدد (التيارات المعاصرة) .

وهو في جملته خطوة في الطريق الذي تجرّي فيه النهضة الفكرية المعاصرة ، من العمل للموسوعات والأبحاث الكبرى ، التي تتسم بالشمول والدراسة المستوعبة الجادة .

(١) عاد الدكتور طبانة الى العراق ١٩٦٣ وبدأ دراسات جديدة في الأدب العربي.

● الدكتور بدوي طبانة : من خريجي دار العلوم ، اشتغل بالتدريس فترة في العراق.

من مؤلفاته : أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية ، البيان العربي ، التيارات المعاصرة في النقد الادبي ، دراسات في نقد الادب العربي في الجاهلية ، السرقات الأدبية، علم البيان ، الفلك الدائر على المثل السائر (تحقيق) ، قدامة بن جعفر والنقد الادبي ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الاثير (تحقيق) ، معروف الرصافي ، أدب المرأة العراقية ، الخ .



حمدي حافظ الدراسات السياسية العالمية

أصبحت الكتابة في المشكلات الدولية اليوم فناً مستقلاً من فنون الكتابة المتخصصة ، لا يصلح لها إلا من عاش لها ، ووقف قلمه عليها ، ومضى يرصدها ويتابعها ، فقد تعددت هذه المشكلات وتعمدت ، واختلفت فيها وجهات النظر ، ولم يعد في الإمكان أن يعالجها الكاتب السياسي أو المفكر من خلال دراسات أخرى . فضلاً عن أن الحاجة الماسة الى باحثين متفرغين لكل فن ، أوجت بأن يتجه من لهم شغف خاص لهذا الفن من القضايا العالمية الى مزيد من الاستيعاب والدراسة ، وفي السنوات الأخيرة خرجت من القاهرة أبحاث مدروسة متخصصة في عديد من هذه المشكلات ، تكشف وجهة نظر الأمة العربية ، التي أصبح لها ثقل واضح في المجال الدولي ، ورأي صريح في قضاياها ، قوامه العمل على تحرير الأجزاء الباقية من سيطرة الاستعمار ، وتبني مختلف قضايا الحرية والوحدة ، ومن ثم أصبح لها صوت مسموع في المجال الدولي ، زاده قوة تضاعف عدد الدول الإفريقية الجديدة ، التي تحررت وانضمت الى المؤسسة العالمية ، وسارت في ركب الدول المتحررة ، وقد بدا ذلك واضحاً في عديد من المؤتمرات ، التي

عقدت في باندونج وأكرا والقاهرة وأديس أبابا ، سواء على مستوى الأفروآسيوية ، أو في سبيل الوحدة الإفريقية .

وكانت قضية الجزائر خلال سبع سنوات كاملة ، من أبرز القضايا العالمية التي عاشت الأقلام تتابعها وتواجه مختلف تطوراتها ، وما تزال قضايا عُمان وأمارات الخليج العربي وخليج العقبة . وفي المجال العالمي ما تزال مشكلة توحيد ألمانيا ومشكلة برلين تشغل الأذهان ، وكذلك قضية الملونين في أمريكا ، وقضية نزاع السلاح ، ودور الأمم المتحدة ومستقبلها ، وقضية حق تقرير المصير ، والعدالة الدولية ، كل هذه القضايا عاشتها الأمة العربية بعمق ، لأنها متصلة بها من قريب أو بعيد ، وكان لها في هذه القضايا رأي ووجهة نظر .

* * *

ويعد الأستاذ « حمدي حافظ » من أبرز الكتاب في العالم العربي في السنوات الأخيرة في التخصص للقضايا العالمية ، وكشف وجهة النظر العربية كلها ، وقد ظهرت له عشرات الأبحاث في هذا الصدد ، يمكن أن يطلق عليها دائرة معارف في القضايا والمشكلات الدولية . ومع أن بعض هذه الأبحاث قد اتصلت بقضايا فصل فيها أو تحقق منها النصر ، إلا أن مجموعها ما تزال تمثل قطاعاً مستقلاً من الدراسة العالمية المتخصصة ، التي كان من الضروري أن يتجرد لها كاتب عربي ويصرف كل جهده إليها .

ولم يكن « حمدي حافظ » قبل دراساته وأبحاثه هذه بعيداً عن مجال الفكرة ، بل على العكس من ذلك كان قريباً إليها أشد القرب ، فهو بدراسته القانونية وعمله بمجال القضاء ، كان قد أعد نفسه لأن يعمل بعد في قضية كبرى ، هي قضية الحرية في عالمنا ، والدفاع عنها على النحو الذي اختاره من بعد في أبحاثه المتعددة ، ومؤلفاته الكثيرة ، عن مشكلة توحيد ألمانيا ، ومشكلة برلين ، وعُمان والجزائر ، وخليج العقبة ، وإيران الغربية .

وأبحاثه الأخرى هي : عن العدالة الدولية ، وكتابته عن الأمم المتحدة في العالم المتطور ، ففي مختلف هذه الأبحاث نحس روح القانوني وطابع القاضي ، وعندما يعرض مثلاً لحق تقرير المصير يعرفه بأنه حق كل أمة في أن تكون هي وحدها صاحبة السلطة العليا المختصة ، في تقرير شئونها دون أي تدخل أجنبي ، واستقلالها داخل حدودها ، وحريتها في تكييف حياتها وصلاتها واستثمار مواردها وخيراتها والمحافظة على القيم الأصلية في تاريخها وثقافتها .

ثم يمضي الى القول بأن حق تقرير المصير يهدف أساساً الى التحرر من التدخل الأجنبي ، وأقرب مثال على ذلك هو الشعب الايرلندي ، فإنه لم يكن يفترق الى الحرية السياسية حين كان مرتبطاً بالجزيرة ، كما أن مصالحه لم تكن مهملة ، وكل هذا لم يصرف الشعب الايرلندي عن المطالبة بحق تقرير مصيره .

ثم يتناول البحث ما يتطلبه ممارسة حق تقرير المصير من استقرار الشعب على رأي موحد صادر عن جنسيته والوسائل التي يعبر بها الشعب عن إرادته .

ويرى « حمدي حافظ » أن قضية نزع السلاح هي قضية البشرية كلها ، إذ يجب المحافظة على الجنس البشري من الفناء التام ، لا من دمار محدود أو خسائر مؤقتة .

فإذا عرض لمشكلة « الزوج في أمريكا » ، كشف عن جذورها الأصلية وأرجعها الى ما بعد الحرب الأهلية الأمريكية ، فالشمال المنتصر في هذه الحرب فرض على الجنوب المنهزم بدون روية نظام احتلال عسكري ، وضغط اقتصادي ، وتركه نهياً للمغامرين الشماليين ... وهكذا يمضي أمام كل مشكلة يتعمق أصولها ، ويعرضها في أسلوب قانوني علمي دقيق من ناحية المضمون ، سهل ميسر عن طريق الأداء والتعبير .

وحين يعرض لأتابيب البترول وناقلاتها في الشرق الأوسط - وهو أول كتاب من نوعه في اللغة العربية - يعتبر أن كل خط أتابيب في العالم العربي بمثابة

قناة خاصة « وأنها أداة فعالة في إحياء التجارة العالمية والإبقاء على السلام بين الشرق والغرب » ، ويرى أن من حق العرب وضع سياسة بتروولية عربية موحدة يكون من أثرها أن يدبروا بأنفسهم منابع ثروتهم وطرق الانتفاع بها .

وفي كتابه [الأمم المتحدة في العالم المتغير] يعرض الكاتب للمؤسسة الدولية وتكوينها وأهدافها ، وما يتوقع لها من مستقبل في خدمة الانسانية وحل مشاكل الشعوب ،

وهكذا يمضي « حمدي حافظ » في نفس الطريق الذي رسمه منذ مطلع حياته عندما تخرج من كلية حقوق القاهرة عام ١٩٣٥ .

وهو لم يتغير الا حين استبدل كرسي القضاء بكرسي الدفاع عن قضايا الأمة العربية في المجال العالمي ، فقد بدأ حياته منذ فجرها بالاتصال بالصحافة والكتابة بها ، ويذكر أن أول مقال له في السياسة اليومية ١٩٣١ كان تعليقاً على تعيين مستر ايدين كلول وزير المجليزي لشئون عصبة الأمم ، وهكذا يبين الارتباط بمجال السياسة العالمية منذ ثلاثين عاماً ، هذا الاتجاه الذي تبلور من بعد وتوسع بعد أن مر بمراحل طويلة ، فقد ظل (حمدي حافظ) يواصل الكتابة في الصحف العربية ويتصل بهذا المنبر ، رغم مشاغله في عمله بالقضاء أو النيابة ، وكان أكثر ما يعنى به - تقديم المؤلفات التي يقرأها ، والتي كان شغوفاً بها ، فضلاً عن كتاباته عن الشخصيات العالمية وملاحظاته في رحلاته الى الغرب .

وفي خلال عمله كفاح ، أولى اهتمامه للقضايا الحائرة ، وكان قد رحل الى أوروبا وأمريكا زائراً ، متصلًا بزملائه رجال القضاء ، « جالساً الى جوارهم على المنصة » دارساً باحثاً منقّباً فيما يعرض عليهم من القضايا ، ومن خلال هذه القضايا الحائرة أصدر عام ١٩٤٥ كتابه عنها ، وقد أعيد طبعه ١٩٦٢ ونفذ بسرعة مذهلة .

يقول في مقدمته : « خرجت من ميدان القضاء بخبرة تقول : أن عديداً من

المشكلات والقضايا والمحائث تلتهمي ، وهناك خلاف كبير بشأنها ، بين الأحكام التي تصدر فيها ، وبين ما يظنه فيها عامة الناس المتتبعين لها .
ومن هذه القضايا الغامضة قدم أكثر من خمسة عشر قضية .

* * *

فلما أُتيح له أن يعمل مراقباً لمصلحة الاستعلامات عام ١٩٥٤ ، فوكيلاً لها ، كان مجاله التحقيق في العمل الكبير الذي تخصص فيه ووجهه كل إمكانياته قد قد فتح على مصراعيه ، ذلك هو مجال دراسة القضايا العالمية والدولية ، والتخصص في دراستها وعرضها ، ووضع الحلول ذات الطابع العربي المستمد من مفاهيمها الثورية ، وقد عالج هذه القضايا بروح القانوني المنصف غير المتحيز ، وحمل لواء العمل فيها على النحو الذي يحمله المحامي في الدفاع عن قضية حق .

وهكذا بلغت مؤلفات (حمدي حافظ) أكثر من عشرين مؤلفاً في الشؤون الدولية والمشكلات العالمية المعاصرة ، بعضها بالاشتراك ، وإن كان طابعه القانوني واضحاً فيها جميعاً . وكان هذا جزءاً من عمل ضخم قامت به مصلحة الاستعلامات في سبيل خلق أكبر مكتبة سياسية دولية في الشرق الأوسط .

ومما ساعده على هذه الدراسات اختياره لالقاء محاضرات في جامعات هارفارد (أكبر جامعة في العالم) وبوسطن ولوس أنجلوس ، عن شؤون الشرق الأوسط والقضايا العالمية .

من أعماله كتابه الضخم عن ثورة ١٩٥٢ المصرية العربية الذي يدرس اليوم في الجامعات العربية .

وجملة القول أن « حمدي حافظ » تخصص في الدراسات العالمية للقضايا الدولية ، وبرز في هذا المجال بعدد من الابحاث ، ذات الطابع العلمي القانوني التي تكشف عن وجهة النظر العربية الخالصة .

- حمدي حافظ : تخصص في الدراسات العالمية وأبحاث الأمم المتحدة، من أقطاب الإستعلامات في الجمهورية العربية المتحدة .
- من مؤلفاته : الاشتراكية والتطبيق الاشتراكي ، الأمم المتحدة ، أنابيب البترول والشرق الأوسط ، باكستان المعاصرة ، التأميم ، الجزائر : كفاح شعب ومستقبل أمة ، حقوق الإنسان في الصراع الدولي ، قضايا حائرة ، الملونون في الولايات المتحدة ، توحيد المانيا ، ثورة ٢٣ يوليو ، وله مؤلفات أخرى بالاشتراك .



خالد محمد خالد الدراسات الإسلامية

بين حين وآخر ، يطوف أحد كتابنا بالمذاهب والأفكار والثقافات من شرقية وغربية ، ثم لا يلبث أن يجد في التراث الإسلامي العربي ضالته ، وهويته ، وزاد روحه ، ومداد قلمه ، وضياء نفسه .

وربما كان الكاتب له إلمام بذلك الفكر منذ قدیم ، ولكنه لا ينكشف له في روعته وجماله وإشراقه ، إلا بعد رحلة طويلة في الآداب والثقافات المختلفة ، كذلك صنع الدكتور « هيكل » من قبل ، وصنع الدكتور منصور فهمي وكثيرون ، طافوا بالثقافات والمذاهب والعقائد ، ووقفوا عندها واحدة بعد أخرى ، يلتهمسون فيها سعادة لأمتهم وضياء لأوطانهم ، ثم خلفوها واحدة بعد أخرى ، وقد فقدوا الأمل فيها ، حتى إذا ما عادوا إلى فكرنا الأصيل ، وتراثنا الشرقي العربي الإسلامي ، وجدوا فيه ذلك الضوء الساطع ، والمورد الغنير .

ومنذ كتب الأستاذ خالد محمد خالد كتابه (معاً على الطريق : محمد

والمسيح) ، أحسست أنه قد وجد طريقه الذي يستطيع من خلاله أن يقول كلمته ، ويجد دعاء الانسانية الذي يفشده ، ثم امتدت سلسلة كتبه :

« إنه الانسان ، أفكار في القمة ، نحن البشر ، إنسانيات محمد ، الوصايا العشر ، بين يدي عمر ، في البدء كانت الكلمة ، كما تحدث القرآن ، وجاء أبو بكر ، مع الضمير الانساني في مسيره ومصيره ، كما تحدث الرسول » .

اثني عشر كتاباً قبل هذا الكتاب ، تطوف في مجال الفكر الإسلامي والعربي ، وتستظهر جواهره وأضواءه ، وتعرضها في ثوب جديد ، حتى ليخيل للباحث المتطلع الى آفاق كاتبنا « خالد » ، أنه وجد مجاله الحقيقي الذي يرضي روحه ويلائم فطرته .

وهكذا الكاتب الموهوب ، يبدأ من حيث يبدأ ، ثم يطوف بمجالات الفكر ، حتى يصل الى مكانه الحقيقي ، الذي يحس أنه إنما خلق له ، ويجد المنطقة التي لا بد يدعها بفكره وآثاره ، ولطالما كان خالد حفيظاً بالتجديد والابتكار ، حتى حين يعرض للقديم .

ولطالما كانت دعوته ان ينصرف الكتاب عن « أدب الدروب المطروقة » الى أدب الابداع والابتكار ، القائم على الدراسة العميقة والأناة والخلق الفني . كذلك كان يحكي لي قصة تطور فكره وهو على الطريق الجديد .

هكذا كنت أراه في أوائل عام ١٩٥٧ وفي مجلة « أضواء » . حاولت أن أصور نفسيته في هذه الفترة بالذات ، فقلت : « لا أدري مصدر هذا الصمت الذي يخيم على ذلك القلم الثائر العميق ، الذي قام بدور ضخم في تحطيم الفساد قبل فجر الثورة في مؤلفاته القوية الحية ، وإذا كان هناك كتاب تظل إمكانياتهم الروحية والفكرية مذخورة ، حتى تبرز مرة واحدة ، في عمل ضخم كبير ، يهز ويترك دويًا ، فإن « خالد محمد خالد » واحد من هؤلاء . كذلك كان كتابه « من هنا نبدأ » ، عندما أثار عاصفة ضخمة في محيط السياسة والفكر والدين والحكم .

ولقد كنا نتحدث في هذا المعنى بالأمس ، فقال لي : « أن الكاتب في نظري هو ذلك الذي له انعكاس فكري على المجتمع ، الكاتب الذي له ظل ، كيفما كان هذا الظل » .

وقلت فيه هذه الكلمة عام ١٩٥٧ : « إنني أراه اليوم يقرأ كثيراً ولا يكتب ، لقد أعلنت صحيفة يومية كبرى قبل صدورها عن اسمه كأحد كتابها ولكنه لم يفعل ، لقد رأيت بنفسه ناشرأ كبيراً يفاوضه في مؤلف جديد ، ولكنه ليس عنده ما يقدمه الآن .

ولست أدري الى أي مدى تصدق القصة التي رويت عنه ، من أنه منذ أكثر من عام يمر بمرحلة جديدة في تفكيره ونفسيته ، حقاً هل هناك هزة تضطرم في أعماقه ، تحاول أن تنقله مرحلة جديدة في تفكيره .. لقد كان خالد في مؤلفاته داعياً الى أفكار جديدة مثيرة ؛ في محيط الدين والمرأة والمجتمع ، فهل هو اليوم يحتر هذه الافكار مرة أخرى ، أو يعيد النظر فيها ، لقد ذهب خالد الى أقصى اليمين ثم ذهب الى أقصى اليسار ، ترى هل هو اليوم بسبيل أن يأخذ طابع المدرسة الوسطى ؟ .

انه يقرأ فلسفات الأديان هذه الأيام : زرادشت وكنفوشيوس وغيرهما ، فما هو الاتجاه ؟ انه هو نفسه لا يعرف ، إني أراه حالماً : أراه يريد أن يضع يده على الشيء الجديد : إنه منقبض عن القلم ، ترى ما هو موقفه من مؤلفاته وأوراقه الأولى ، ترى هل سيكتب شيئاً جديداً ؟ ومتى ؟ متى تنتهي هذه التهويع ليعود الى دنيانا ، ترى هل هو في طريقه الى « بردة الصوفي » أو في طريقه الى « إهاب الفيلسوف » .

إني أراه أقرب الى الأول ..

لقد كنت سمعت قصة أحلام رآها ، أرادت أن تدفعه الى التصوف العميق وسمعت أنه كان ينبغي ان يقصد المدينة المنورة ليقضي بها شهوراً ، مجاوراً لساكنها صلوات الله عليه ، فإلى أي مدى من الحقيقة يصل هذا كله ؟ .

إن الأستاذ خالد الذي تميز بمثاليته وخلقه ، ووضوح فكرته وثبل شخصيته ، وروحه العميقة ووفائه .. لا بد أن يقول كلمة صريحة واضحة حول هذه العزلة الروحية ، وهذا البرج العاجي الذي يعتكف فيه .

إنني أول مشتاق الى أن أسمع ما يريح نفسي ..
ترى هل أستطيع بهذا الأسلوب أن أغريه بالكتابة ؟
لونجحت لكان ذلك كسباً ضخماً . »

هذا ما كتبه عام ١٩٥٧ في مجلة « أضواء » تحت عنوان « فترة مخاض »
وكنت أظن يومها أنني قد فهمت الحقيقة ، ومنذ ذلك اليوم بدأ ظهور هذه المؤلفات ذات الطابع الإنساني الواسع .

وقلت لنفسي : لقد اتجه خالد الى « الانسان » ، وثروته الثقافية والروحية كمرحلة جديدة بعد مؤلفاته الخمسة ، التي سبقت هذه المرحلة من فكره وحياته . ولكن خالد اليوم لا يريد أن يقال أن حياته الفكرية مرت بمرحلتين ، أو أنه تطور من صورة الى صورة ، ومن أسلوب الى أسلوب ، وإن كان هدفه الأساسي ما زال قائماً ، وهو الانسان وتحرير فكره ، كل ما هنالك أنه كان يفكر في حدود القضايا والمشاكل والأحداث المتصلة بواقع السياسة والمجتمع والاقتصاد ، ولكنه الآن يرقى في مجال البحث الى قضايا الانسان الكبرى : الحرية والإنسانية والروحية والضمير .

ومعنى هذا أنه انتقل من « القضايا » الى « القيم » ، وليس في مجال البحث عن « القيم » أخصب مجالاً من تراثنا الفكري الاسلامي الانساني الواسع .

ويكشف خالد عن منهجه في مقدمة كتابه « إنه الانسان » ، فيقول : « في صعبة تفاؤل عظيم بمستقبل الانسان كتبت هذا الكتاب ، وفي صعبة هذا التفاؤل أعيش - دوماً - وأحيا .

وصاحبكم من الذين يربطهم بالانسان ولاء غير مجذوذ ، ولا محدود ، وكل ما في الناس من ضعف ، لا يصرفني عن رؤية الانسان الكامن في داخل ذواتهم وصفوفهم ، والكادح الى الكمال كدحاً فملاقيه . صحيح أنني - أحياناً - أبتئس بما يفعلون ، وبما أفعل ، ويتراءى لي مشهد الفيلسوف الإغريقي « ديوجنيز » حين صاح من فوق هضبة عالية « أيها الناس » .. فلما سارعوا اليه هز رأسه أسفاً ، وقال : لم أنادكم .. أنا أنادي الناس .

لكن الانسان لا يلبث أن يظهر ، متربعا على عرشه القويم فوق كل هذه الفوضى ، حاملا مشعله المضيء ، وسط كل هذا الظلام ، فتذهب من فورها تلك الحشرات الكاذبه ، وتتطاير غواشي الكآبة واليأس أمام عظمتة السامقة » .

ثم يقول : أن عمله هذا جهد متواضع لاكتشاف الانسان ، اكتشاف حقيقته ، واكتشاف مشيئته ، واكتشاف الفرص الواجب توفرها له كي يبلغ كاله الميسور ويدرك مجده القادم . ثم يقول :

« ينبغي أن نشق بالانسان ونطمئن الى مصيره ، وينبغي أن يكون جهادنا دائما مرتبطاً بجهاده ومتمعاً له .. وأن نتحرى مشيئته ونعمل وفقها .. علينا أن ننقل الانسان الى حياتنا ، ونملأها برؤاه وبإصراره ، وعلينا أن نعمل من أجل مستقبله ومصيره . لنثق تماماً ، أن هذه الارض لن تشهد يوماً ما جنازة الانسان ، فالانسان الذي قضى ملايين السنين في أحضان التطور لكي يبلغ الرشد الذي يبدأ منه رحلته الجادة الصاعدة ، لن يقضي نحبه حين تدق ساعة رشده وتبدأ بشارت عصوره ، ولقد دقت الساعة وأهلت البشائر . ولولم يبق من البشر سوى ألف أو مائة فسيعمل الانسان داخل هذه الألف ، أو هذه المائة .

واذا لم يبق من نوعه الا عشرة ، فسيعمل مع هذه العشرة ، واذا لم يبق الا واحداً ، فسيبدأ بناء عالمه الجديد بهذا الواحد ، واذا في هذا الواحد ،

ايضاً ، فسيتمكن الانسان داخل (أمبيا) يهرب بها من الفناء ، ويبعث من داخلها نفسه مرة أخرى ، وينشر وجوده وحياته ورسالته من جديد .

هكذا يؤمن « خالد محمد خالد » بالانسان ، وهو بهذا يضع نفسه في صف كتاب الانسانية الذين يبحثون في وعي وذكاء قضاياه ، وهي جولة موفقة متصلة عندما تصل الى غايتها ستكون من أمجد أعمال الفكر العربي الاسلامي المعاصر .

وهذا كتابه [رجال حول الرسول] يصدر في أربعة أجزاء ، ويتناول « تجربة الحياة » لمجموعة من أعلام الصحابة والرجال الذين جاهدوا مع الرسول .. فلقد تعودنا أن نكتب عن أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، ونقصر الكتابة عليهم ونكتفي بأن نرى من خلال حياتهم عظمة العصر الذي ينتمون اليه ، بل الذي ينتمي اليهم ، ولكن أخانا خالد يحاول أن نتعرف في غبطة وشوق الى ثلة مباركة من الرجال العظام الذين عاشوا مع النبي ونهضوا حوله ، ومثلوا فوق أرض الله أعظم ادوار التفوق والعظمة .

وعنده : « أن بطولة أولئك الرجال في حمل أنفسهم على الزهد والورع والتقوى والبذل ، وفي أخذها الى كل رفيع وجليل من قيم الحق وفضائله ، لشرف كبير للجنس البشري بأسره ، وحتى بطولاتهم في الجهاد والقتال من أجل الدين ، لا تعدم مكانها العالي في عصرنا هذا الذي يستنكف الحرب ويمجد السلام ، ذلك أنهم مارسوا القتال المشروع في عصر كانت القوة فيه هي الحماية الوحيدة والفريدة للحق ، كما مارسوا الجهاد حين مارسوه ، دفاعاً لا عدواناً ، ومحربين لا متجبرين .. » .

وهكذا يصل خالد محمد خالد - في كتابه (رجال حول الرسول) ، وفي هذا العقد من الدراسات الانسانية الممتازة الى غايته ، الى حق الكلمة عليه ، حيث تجدد الانسانية حلولاً لقضايها العليا في قيم الفكر الاسلامي وميراثه .

● خالد محمد خالد : من خريجي الازهر ومن أقطاب الدراسات الديمقراطية والاسلامية أحدثت مؤلفاته هزة كبيرة في الماضي ، كتب في الاهرام والجمهورية .

من مؤلفاته : الوصايا العشر ، رجال حول الرسول (٥ اجزاء) ، أزمة الحرية في عالمنا ، بين يدي عمر ، أخطار في القمة ، انسانيات محمد ، وجاء ابو بكر ، في رحاب علي ، الدين للشعب ، هذا أو الطوفان ، من هنا نبدأ ، مواطنون لا رعايا ، لله وللحرية (٣ اجزاء) ، لكي لا تحرقوا في البحر ، كما تحدث القرآن ، في البدء كان الكلمة ، معاً على الطريق : محمد والمسيح ، انه الانسان ، الديمقراطية ابدأ ، الخ .



خير الدين الزركلي الأعلام

يقولون أن الأعمال الفكرية الضخمة قد قام بها دائماً « أفراد » من الرجال وأفذاذ من العلماء . وفي تاريخنا الأدبي المعاصر تبرز هذه الظاهرة بوضوح في أكثر من عمل : دائرة معارف فريد وجدي ، معجم المؤلفين « كحالة » ، معجم الأطباء « الدكتور أحمد عيسى » ، معجم النبات « الأمير مصطفى الشهابي » .. و « الأعلام » لخير الدين الزركلي واحد من أهم هذه الأعمال ، فقد شغل به صاحبه أكثر من خمسة وأربعين عاماً ، منذ بدأ إعداده عام ١٩١٢ ، حتى أصدره في صورته النهائية عام ١٩٥٩ ، ومعنى هذا أن أمضى زهرة عمره في مصاحبة هذا العمل إعداداً وإبرازاً في الصورة الأولى ١٩٢٧ ، ثم في الصورة النهائية بعد بضعة وثلاثين عاماً .

ولا يعرف فضل هذا العمل في الحقيقة إلا من يحتاج إليه ، ولقد كان لاشتغالي بدراسات الأدب العربي المعاصر ، وما يتصل بها من دراسة تاريخ أعلامه ، ما لفت نظري إلى ذلك الجهد الضخم ، الذي استطاع أن يحققه « الزركلي » ، في إعداد موسوعته التي بلغت أكثر من أربعة آلاف صفحة ، تضم أكثر من عشرة

آلاف شخصية ، من العرب والمسلمين في القديم والحديث ، وعبر أكثر من أربعة عشر قرناً متصلة ، فإذا أضفنا الى ذلك الجهد الذي بذله الباحث الكبير في إعداد خطوط وصور أكثر من ١٤٠٠ شخصية معاصرة ، وما حققه من إضافة سبع مجلدات كاملة الى الثلاثة مجلدات الأولى ، وما زال يواصل بإضافة المستدرك ، وما سيصدره من ملاحق وما أضافه من استدراك على المستدرك ، كل هذا يعطي صورة قريبة لأهمية هذا العمل الكبير الذي قام به الزركلي ، فإذا علمنا أن مشروعه في أول الأمر كان عبارة عن إعداد مؤلف مدرّس للأعلام ، عام ١٩١٢ ، ثم اتسع من بعد مرة ومرة ، حتى بلغ هذا القدر ، إستطعنا أن نقدر ما لموسوعة الأعلام اليوم من أهمية لدى الباحثين ، في مختلف فنون البحث الأدبي العلمي والتاريخي والاجتماعي .

والحق ، ان كفاية الباحث وظروفه ؛ تكون بعيدة الأثر في إعداد بحثه ، وبلوغه الذروة ، فلا بد أن يكون الزركلي عربياً من الشام يتصل في حياته وظروفه بالعراق وسوريا وفلسطين والأردن والحجاز ، وأن يرد مصر فيقيم بها وينشئ فيها المطبعة العربية ، ثم لا يقف الأمر به عند هذا الحد ، بل يذهب الى المغرب ، فيقيم به ويتصل بالتراث العربي في ليبيا وتونس والجزائر ومراكش ، ثم يذهب الى الأسكوريال في الاندلس ويوزور خزائن الكتب في لندن وباريس وبرلين ، ويتصل بالمختصين بأمور المكتبات ، والمخطوطات ، في مختلف دور الكتب في الهند والأسكوريال والحجاز والشام وأمريكا . وان تقوم صداقات بينه وبين الأعلام من دهاقنة المؤلفات والمخطوطات ، أمثال : كرد علي وأحمد تيمور وأحمد زكي الملقب بشيخ العربية وأحمد عبيد صاحب المكتبة العربية بدمشق والعلامة أحمد خيرى .

ولو أن عالماً أو باحثاً لم تتح له مثل هذه الظروف السخية ، والمعارف والمراكز المرموقة لما قدر أن يحقق لعمله هذا النجاح وهذا الاكتمال والشمول ، ولو أن الزركلي ظل مقيماً في المشرق ، لتقص جانب كبير من عمله ، وهو

إمامه بأعلام المغرب في القديم والجديد ، وقد كان هذا الجانب ضعيفاً ومجهولاً لنا في المشرق قبل عام ١٩٥٤ ؛ وقد استطاع الزركلي أن يوفي لأعلام المغرب في القديم والحديث ، وأن يقدم لنا صورة واضحة جلية تعدل صورة المشرق ، وتكمل صورة الأدب العربي في اتجاهاته وأعلامه .

وقد كان شأن الزركلي في هذا ، شأن العلماء المسلمين العرب القدامى ، الذين سبقوه على طريق العمل الموسوعي ، ابن خلكان ، وابن تعزي بردي ، وصلاح الدين الصفدي ، وابن حجر العسقلاني ، تواضعاً وخفض جناح واعترافاً بالفضل لأهله فأشار الى الأعلام الذين عضدوه وأعانوه ، وفي مقدمتهم « كرد علي » ، الذي أرشده الى صحاح المصادر وفتح له خزانة كتبه ، وأحمد عبيد صاحب المكتبة العربية في دمشق الذي أمضى عشرين عاماً يراجع موسوعته الأعلام الأولى ، بما يقع له من مخطوط ومطبوع وغريب وطريف فضلا عن نواذر المخطوطات .

وقد ذكر الزركلي منهجه في العمل في اختيار أعلامه ، وما اختلف فيه عن غيره من أصحاب الموسوعات ، يقول : « جعلت ميزان الاختيار أن يكون لصاحب الترجمة علم تشهد به تصانيعه ، أو منصب رفيع كان له فيه أثر بارز ، أو فن يميز به ، أو أثر من العمران يذكر له ، أو شعر أو مكانة يتردد بها اسمه ، أو رواية كثيرة ، وضابط ذلك كله أن يكون ممن يتردد ذكرهم ويسأل عنهم وذلك دون أن يفرضه » من أغدق عليه نعوت التمجيد وصفات الشناء « وقد لقي عناء التوفيق بين التاريخين الهجري والميلادي (مخافة ان أتهم بارتجال التاريخ في عصر كثر فيه مرتجلوه) . وأشد ما لقيه من المتاعب في عمله هو ما أعاناه من تراجم المعاصرين ، يقول : « عانيت من تراجم المعاصرين نصباً ، بدت لي فيه ظاهره خلقية غير مرضية في كثير من كتبت اليهم أو كلمتهم لاستكمال نقص في ترجمة أب أو أخ » .

وأبلغ ما أعاناه خطوط المترجم لهم وصوره : « اندفعت أنقب عن خطوط

المصنفين في أوائل كتبهم وأواخرها ، وبين سطور ما نسخ على عهدهم منها ، ونشط البررة من إخواني فأمدوني بالتحف... وتهيأت لي رحلات اقتنصت فيها خطوطاً لم أكن أحلم بها... وتفتحت أمامي أبواب المتاحف والمكتبات ، وتختلف الخزائن السلطانية ، والبيوت العريقة في القدم ، فإذا بي والأفق أمامي لا نهاية له ، كخائض البحر أمام الجزر داهمه المد ، والخطوط الى جانب قيمتها الأثرية فلذ من أرواح أصحابها ، أبدية الحياة ، يكمن فيها من معاني النفوس ما لا تقرب عنه صور الأجسام .

وقد حرص الزركلي على أن يكتب بالعربية الأسماء الأجنبية كما نطق بها أهلها في الاغلب .

ومن ابرز مشاق عمله اختلاف المؤرخين ، وتضارب رواياتهم وتعدد نزعاتهم ، واختلاف النسخ من الكتاب الواحد ، وكثرة الاغلاط في المطبوع والخطوط ، وتداخل أخبار القوم بعضها ببعض ، وفقدان العدد الأوفر من مصنفات الأقدمين ، ومنع بعض الفرق كتبها أن يطلع عليها غير أبنائها . ذلك وما هو باليسير كاف لأن يجعل تأليف كتاب عن الأعلام عملاً شاقاً تكتنفه المصاعب وتعارضه المزالق .

* * *

والحق أن عملا يشغل صاحبه زهرة حياته فيبدأه سنة ١٩١٢ ، وهو في حدود الثلاثين من عمره ، ويظل يواصله من بعد ذلك الى اليوم (١٩٦٦) ، أي ما يربو على أكثر من أربعين عاماً ، دون أن يشغله عمل فكري آخر ، ويظل يأخذ بمجامع نفسه وعقله ، ويكون قاسماً مشتركاً على حياته ويومه وأسفاره ورسائله ومعارفه ، ومشغولاً به ، رغبة في تحسينه واستكمالها ، والإضافة إليه والارتفاع به الى مستوى العمل العلمي القريب الى الكمال ، ومن عجب أن هذا العمل قد حجبت حياة الزركلي الفكرية ، قبل هذه الموسوعة ، وكاد أن ينسي الباحثين

ما مرت به من عمل الشاعر والاديب ، ما يكفي وحده لأن يدخل صاحبه في عداد شعراء وأدباء الأمة العربية المعاصرين ، فقد عدّ الزركلي منذ مطالع شبابه من بين باقة شعراء الوطنية والعربية في الشام ، في العشرينات : خليل مردم ، وفؤاد الخطيب ، وشفيق جبري ، وخير الدين الزركلي ، فقد هزم مع رفاقه النفس العربية بالدعوة الى الحرية والوحدة ، في شعر بالغ الروعة ، مما جعل الفرنسيين على الحكم عليه بالاعدام مرتين . ولم يقف قلمه عند الشعر وحده ، فقد برز في مجال الصحافة بعد الحرب العالمية الأولى وأنشأ جريدة « المفيد » سنة في ١٩٢٠ ، فلما اضطر الى الهجرة أنشأ في (حيفا) جريدة الحياة ، وفي هجرته الى مصر أنشأ المطبعة العربية ، وله في هذه الفترة مؤلفات ترسم مراحل حياته وأهمها :

(١) ما رأيت وما سمعت : وصف فيه حالة سوريا بعد معركة ميسلون بين العرب والفرنسيين .

(٢) عامان في عامان : وصف فيه أيامه في إمارة شرق الأردن .

ولا شك أن الزركلي لم يجد في الشعر مجال طموحه وإن ظل مرتبطاً به يجد فيه وسيلة الافضاء حين تهزه النفس بالشوق الى وطنه (دمشق) ، وهو في رحلة الحياة والعمل الدبلوماسي ، بعيداً عن الفيحاء التي حرم منها . فقد عاش في شوق الى مرابع صباه وبلده وهو يقول :

أنا في هواك كما يشاء هواك لي كلفُ بحبك يا دمشق ودود
لم أنا عنك قسلي ولا لتقيصة ما أنت إلا ربعي الحمود
ولقد هجرتك حين حاق بي الأذى ما للأباة على الهوان تعود
أقصيت عنك ولو ملكت أعنتي لم ينسبط بيني وبينك بيد

وقد وصف الناقد أحمد الجندي شعره بأنه يتسم بالسهولة والنعمة الحلوة ، دون تكلف أو تقعر ، وانه لا يحتاج الى تعمق في الفكرة ، أو بحث عن المعاني ، مادامت هذه المعاني تنثال عليه انشياً ، يدفع بها الاحساس الصادق ،

وقد أصدر ديوانه الذي أطلق عليه (الشعرى) سنة ١٩٢٥ . ولقد وجد الزركلي في الشعر أقل اهتمامه حين أتيح له أن يبدأ عمله في « الأعلام » ويتوفر عليه ويوقف له كل جهده ، وبالرغم من طابعه الشعري ، فقد اتجه الى العمل الجديد ، عالماً مرتبطاً بالمنهج العلمي والاسلوب العقلي القائم على البحث والمراجعة والتحقيق والتمحيص ، فأصبح بحق خليفة ياقوت وابن خلكان ...

وما يزال لدى الزركلي مجموعة كبيرة من الأدب والتاريخ ، قديماً وحديثاً لم ينسقها ولم يسمها .

* * *

ولد « خير الدين الزركلي » في بيروت ١٨٩٣ ، وهو دمشقي الأب والأم ، تعلم في بيروت وعاد الى دمشق أوائل الحرب (١٩١٤) ، وأصدر بعد الحرب (لسان العرب) ، واشترك في جريدة المفيد اليومية ، عمل مفتشاً عاماً للمعارف في الاردن ١٩٢١ ، وأنشأ في مصر المطبعة العربية سنة ١٩٢٣ ، وعام ١٩٣٠ أصدر جريدة الحياة ، عمل في الأعمال الدبلوماسية للمملكة السعودية في مصر والمغرب حتى عام ١٩٥٩ ، وفي عام ١٩٣٠ ضم الى المجمع العلمي العربي في دمشق ، والى مجمع اللغة العربية في القاهرة ١٩٤٦ . وأتيح له أن يقوم برحلات الى خارج العالم العربي : إنجلترا ١٩٤٦ ومنها الى فرنسا ، والولايات المتحدة ١٩٤٧ ، أمضى سبعة أشهر بين كاليفورنيا وواشنطن ونيويورك ، وزار أثينا العاصمة اليونانية واستانبول وقونس وإيطاليا والقاهرة .

- خير الدين الزركلي : دمشقي . طاف العالم العربي والاسلامي ، أبرز مؤلفاته موسوعة الأعلام (١٠ مجلدات) .
- وله : ديوان خير الدين الزركلي ١٩٣٥ .
- عامان في غامان ١٩٢٦ .
- ما رأيت وما سمعت ١٩٢٣ .

(١٣)

خيري حماد الترجمة من الآداب الأجنبية

هذه النهضة التي يعيشها العالم العربي اليوم ، لا تكتفي بأن تجدد فكرها بالكتابة والتأليف ، ولا تقف عند حد بحث وإحياء الفكر العربي في أمهات كتبه وذخائره ، ولكنها تأخذ خطأ واضحا في مجال الترجمة . هذا الخط الواضح في حاجة الى مفاهيم وقيم ، يحملها المترجمون أولاً ، وإلا فإن أزمة الترجمة منذ الثلاثينات ستظل مستمرة تعمل عملها ، وتفعل فعلها في تحويل شخصيتنا العربية أو تقيسها أو تدمير مقوماتها ، ذلك أننا في حاجة كبرى الى الترجمة ، فنحن نؤمن بالنهضة القائمة على فتح النوافذ ونقل الثقافات المختلفة ، والفنون الفكرية المتجددة . ونحن حين نؤمن بشخصيتنا العربية القائمة على أساس من مقوماتنا وقيمنا وتراثنا وفكرنا ذي الطابع الواضح ، لا نحب أن نجمد ، ولا أن نقف ، وإنما نؤمن بالتطور والمتابعة للفكر الانساني مشاركين فيه ، متفاعلين معه ، ومن هنا كانت أهمية الترجمة في هذه المرحلة من حياتنا الفكرية الجديدة ، ومن هنا كان هذا التطلع الى المترجمين المؤمنين بأمهم وقيمها أولاً ، ثم المؤمنين بأمانة الترجمة ومقومات الفن نفسه ، ومدى القدرة على الفهم والتعمق والتجاوب مع الكاتب المترجم له واللغة نفسها ومضمون البحث موضع الترجمة .

* * *

لذلك كان لا بد أن تثلث بشدة إلى مترجم جديد ، نزل ميدان الترجمة منذ خمسة أعوام فقط ، ولكنه برز فيه على نحو مذهل ، أثار حوله الشائعات والتهم - لكثرة إنتاجه - بأنه يرأس لجنة من المترجمين يقدمون له الجذاذت والسلخ ، ثم يضع عليها اسمه ، وقد كذبت هذا القول « التجربة » حيث نقرأ له أي عمل من أعماله ، فنجد أسلوبه يسود الكتاب كله ، وروحه واضحة في كل سطر ، وربما جاء هذا الانهم نتيجة لكثرة الانتاج ، فقد استطاع « خيرى حماد » أن يصدر سبعين كتاباً حتى نهاية عام ١٩٦٣ وهو عمل كبير يربو على أكثر من ٣٠ ألف صفحة ، غير أن من يقابل خيرى حماد ويرى متانة بفيانه الجسدي وشبابه وعزيمته الواضحة في ملاحه ، وإيمانه بالامة العربية وقيمها ، لا يدهش.. فهو الرجل المقطوم من الشهوات ، الذي يعيش أيامه ولياليه لفنه الذي أحبه ، والذي يحيل ساعات ليله سهرأ متصلاً في العمل بين قهوته وسيجارته ومدفئته..

ولقد جاء « خيرى حماد » ليحتل مكاناً كان شاغراً حقاً بعد وفاة مترجمين من أبرز أعلام الترجمة عندنا ، وهما : « محمد بدران وعبدل زعيتر » . وقد تركا في ميدان الترجمة من الانجليزية والفرنسية آثاراً ضخمة ، ومن قبل سبقها « المازني » ، وكان مجاله في ترجمة القصة والبرقيات السياسية ، ومن قبله محمد السباعي ، ومحمد مسعود ، وحافظ عوض ، وفتحي زغلول وهؤلاء جميعاً من أعلام الترجمة في الأدب العربي المعاصر . غير أن مترجنا « خيرى حماد » ربما اختلف عن هؤلاء ، ولعل سر نضوجه وحيويته وقدرته الباصرة في الأداء والفهم وامتصاص روح المترجم له ، إنما يرجع في الحق الى ذخيرة ضخمة من التجربة وحصيلة كبيرة من القوة العملية ، فهو رجل أمضى أكثر من ربع قرن في مجال الصحافة ، قطع فيها مراحل ضخمة من القراءة والإستيعاب والترجمة والكتابة ، فمرن ذهنه ومرن أسلوبه ، واستطاع أن يضع النصوص الأجنبية في القوالب العربية المناسبة ، بما يحقق الاحتفاظ بروح المؤلف ، وايصال المعنى في بساطة الرأي ويسر الى القارىء كما أعطته الصحافة تلك القدرة المتصلة واليقظة الدائمة .

وكان خيرى حماد قد استهل حياته الفكرية بالعمل الصحفي في جريدة « الاستقلال » في بغداد عام ١٩٢٩ وهي صحيفة الوطنية الصادقة فعاش لها على طريقته ، مؤمناً صادق الايمان ، متحمساً ، مندفعاً يكتب مقالاً فيسقط وزارة ، ويتحدى الظروف فيكتب الجريدة كلها ، بعد أن تخلى عنه زملاؤه فيها ، ثم يلهب حماس الجماهير ، حتى يرتفع البيع من ٦٠٠ نسخة الى ثلاثة عشر ألفاً .. وعاش خيرى ثورة العراق سنة ١٩٤١ وشارك فيها بقلمه ، وسجن خيرى حماد من أجل حرية رأيه مرة ومرة ، وعاد الى بلده فلسطين ، ليحرر جريدة « الدفاع » ويصدر جريدته « المستقبل » ثم « الوحدة » . وتمضي الأيام ، وهو يقرأ ويتابع ويعيش الأحداث السياسية للوطن العربي ، ويتحول خيرى حماد من فلسطين الى دمشق ، ليبداً مرحلة جديدة من حياته الفكرية ، هي : « مرحلة الترجمة » التي بدأها في حذر وقلق وتطلع ، ووجد متاعب المقتحم لميادين جديد ، وكرس جهده للعمل الذي أوغل فيه وصبر وظفر ، فقد كان ايمانه بنفسه وعمله ، يدفعه الى أن يقدم شيئاً ضخماً وجاءت الفرصة تلو الفرصة متتابعة ليبرز ويحقق ذاته ، وكانت مطالع شهرته في ترجمة « مذكرات ايدن » التي رفض الناشر أن يضع اسمه على غلافها ، ثم « مذكرات تشرشل » ثم كان كتابه الذي طبع عشرات المرات « الطريق الى السويس » وتوالت مترجماته في ثلاثة ميادين : قضايا الوطن العربي ، وكتب السياسة العامة ، ومترجمات الأدب ، وفي مقدمتها قصة همنغواي الخالدة ، التي أحرز بها جائزة نوبل . « لمن تفرع الاجراس ».

ولقد أقدم خيرى حماد على ترجمة هذه القصة هيوباً متردداً ، فقد كانت تجربة جديدة له ، لما فيها من الإقدام على « تعريب » وهو يفضل هذه العبارة عن عبارة « ترجمة » وهمنغواي شيخ كتاب القصة في العصر الحديث ، وقصته حازت الجائزة .

ومع ذلك فقد أقدم ونجح ، شأنه دائماً ، كان في تقديره دائماً أن التعريب

الصحيح يجب أن يضاهي القصة الأصلية ، في قوة أساليبها ومثاقها تسلسل
الحوادث فيها ، وروعة خوارها ، وجزالة لفظها ، وبداع تصويرها ، ودقة
الوصف الظاهر في كل أجزائها ، وفي هذا ما فيه من عبء ضخم ومهمة شاقة ،
وإلا فقدت القصة المعربة ما في أصلها من إبداع حلتق بها الى الاوج ، ويمكن
واضعها من الفوز بجائزة نوبل ...

يقول خيرى حماد : « وقبلت التحدي ، وأقبلت على القصة الطويلة الرائعة ،
أنقلها الى العربية ، فأشعر عند نقلها بما يحس به كل من يقدم على عمل كبير من
لذة ومتعة ، ورحت أغوص في هذا البحر الواسع من الفن القصصي الرائع ،
أتوخى الدقة في التعبير عند نقله الى العربية ، وأستهدف إعطاء الصورة الكاملة
التي رسمها المؤلف الفنان بريشته الفذة .. »

وتصور قصة « لمن تدق الأجراس » الحرب الأهلية الاسبانية ، وترسم
خطوط النضال بين الفاشية والشيوعية ، وبين الدكتاتورية والجمهورية .

ولخيرى حماد مذهب واضح في الترجمة ، فهو يؤمن « أننا في مرحلتنا
الحاضرة في حاجة الى النقل ، لأننا نحاول أن نقطع في العام الواحد ما قطعه
غيرنا في عشرات السنين ، وهذا لا يتوافر لنا الا اذا حشدنا كل النتائج الفكرية
عند الأمم المتحضرة » وعنده أننا يجب أن ندرس ونترجم :

أولاً : ما يتعلق بالوطن العربي ، ونعطي أهلنا صورة لما يقال عنا ، وما يفكر
به الغرب في مشاكلنا ، أحياناً هذا يحتاج الى الرد والتعليق لانه مهما بلغ الكتاب
الغربي من الانصاف فإنه يظل عاجزاً عن فهم كثير من أمورنا ، يضاف الى هذا
أنه لا يستطيع أن يتحرر كل التحرر من عواطفه الشخصية والقومية ، حتى
ولو توخى الموضوعية .

ثانياً : الفكر السياسي العالمي ، مثلاً في أمهات الكتب السياسية العالمية ،
ففي هذه المرحلة الثورية ، تجدنا في أشد الحاجة الى الاهتمام .. بالنواحي
الاقتصادية .

ويرى خيرى حماد أن «الأمانة» هي العنصر الأساسي في التعريب والترجمة، وعلى العرب أن يكون صادقاً كل الصديق في نقل آراء المؤلفين إلى اللغة التي يترجم إليها، وإلا كان الانتاج الجديد مختلفاً كل الاختلاف عن الانتاج الاصلي وغير محقق للغاية المرجوة .

وتتصل الأمانة في النقل إلى ناحية الكفاءة والقدرة على تفهم ما أراد المؤلف تماماً في كتابه ، ولعل مسؤولية المترجم الأولى تكون في أن يحكم على نفسه في ضوء قدرته على تعريب الكتاب أو الموضوع الذي أخذ على عاتقه القيام به ، فإذا ما تحقق من هذه القدرة توجب عليه آنذاك الأمانة في النقل ليحقق الغاية الأساسية من ترجمته لذلك الكتاب .

وعنده أن حركة التعريب قد أسهمت إسهاماً كبيراً في دفع الأدب العربي إلى الأمام : وتغذيته بمختلف الصور والمرئيات ، فإذا قدرنا أن بعض أدبائنا لا يلمون بأكثر من انتاج لغتهم ، وأن بعضهم لا يعرف أكثر من لغة واحدة ، اعترفنا بدون مكابرة بأن مائدة الفكر لا تزال عندنا هزيلة وأدركنا مدى حاجتنا إلى الترجمة .

ويؤمن خيرى حماد بأن اللغة العربية لغة غنية جداً، وأن في الإمكان العثور على مصطلحات عربية كثيرة ، تقابل المعنى في اللغة الأجنبية المترجم عنها ، وأنه في الإمكان عند عدم وجود معنى كامل لها أن يعرب نفس الاصطلاح ، ومع كثرة الاستعمال يصبح هذا اللفظ مستساغاً مثلاً كلمة «تكنولوجيا» استخدم له كلمة (التقنية) وهي كلمة عربية ، أو كلمة « استراتيجي » يمكن استعمال كلمة (سوقية) مقابلها وتكرر حتى يستسيغها القارىء .

وحق نستطيع أن نستكشف شخصية «خيرى حماد» يحب علينا أن نعرف جوانبه الثلاثة : مترجماً ومؤلفاً ومعلقاً . وعلينا أن لا ننسى خيرى حماد الأديب إلى جانب خيرى حماد المترجم والصحفي .. فهذه هي موهبته الأولى ، موهبة الأدب ودراساته ، فقد استهل حياته الفكرية بدراسة عن شكسبير نشرتها مجلة

الرسالة في أوج مجدها القديم عام ١٩٣٦ نُحِث عنوان «الكائنات الغيبية في شعر شكسبير» ثم كتب سلسلة أخرى عن توماس كارليل وفلسفته . وهذا سر نجاحه في ترجمة همنغواي . وله ترجمات أدبية أخرى عن أوسكار وايلد « امرأة غير ذات قيمة » ، والبير كامبي « المنفى والملكوت » وليناكسوف « الانسان الضائع » ، وكولن ولسون « عصر الهزيمة » ، وباسترنالك « شجاعة العبقري » .

وفي مجال التأليف له سلسلته الضخمة التي أصدر منها مجلدين وهي : « أعمدة الاستعمار البريطاني السبعة » تضم سبعة من أعلام الاستعمار وهم : فيليبس ، لورنس ، برسي كوكس ، جوتروودبل ، وروالد ستورس ، وسيريز وكلوب . ومن آماله ترجمة دائرة المعارف العالمية مع تعريبها لتلائم ثقافتنا . وله مؤلفه الضخم « قضايانا في الأمم المتحدة » الذي يقع في ٦٠٠ صفحة ، عالج فيها القضايا العربية التي عرضت على الأمم المتحدة بصفة عامة والقضايا الرئيسية الثلاث (دورة ١٩٦١) فلسطين والجزائر وعمان .

وهدفه في التأليف سياسي واضح يضع فيه خلاصة خبرته الصحفية والسياسية الطويلة ، فهو يعدد الى تصحيح ما يكتب في تاريخ العرب الحديث ، ويعتقد أن هذا التاريخ قد شوه لعدة أسباب من سيطرة بعض الأسر ذات النفوذ .

وهو لا يقف في الترجمة أحيانا عند حد التعريب ، وإنما يشرح في الهوامش ويصحح ويحقق ، وإن كان لا يمنعه اختلافه مع المؤلف في الرأي من أن ينقل فكرته بأمانة وصدق .

وقد عني كثيراً بجوانب لم يطرقها المترجمون كثيراً ، عني بمكيافيلي وحياته ومطارداته ، وترجم لبرتزاندي رسل ، واهتم اهتماماً كبيراً بإفريقية ، وحوار مع نهرو ، ووجه همه الى الجزائر وصعراثها ، وترجم عن اليمن ، والعراق ، ومراكش وألمانيا النازية . ومن الكتب التي ترجمها وعلق عليها : الفتوحات الاسلامية لكلوب ، والجوانب القومية والوطنية ، واهتمامات المترجم بالوطن

العربي ومعاركه مع الاستعمار واضح وضوحاً كبيراً ، وأعتقد أنه يمثل الجزء الأكبر من إنتاجه ، وذلك في حدود عقيدته وإيمانه بمروءة الترجمة لما يكتب عن الوطن العربي ، وهو بهذا الاتجاه بكل رسالته الأولى ، رسالته الصحفية حين عمل في العراق وفي فلسطين ، وقاوم الاستعمار وسجن من أجل إيمانه وفكره .

وكانت جريدته التي حررها « الاستقلال » جريدة الوطنية في العراق وكانت جريدة « الوحدة » لسان حال الحركة الوطنية في فلسطين . وفيها كتب ألوف المقالات في اتجاه الحرية والوحدة وكانت قضية فلسطين في الأهمية الأولى .

ومما يسجل لخيري حماد أنه لم يجمع بين الترجمة حين بدأها منذ خمس سنوات وبين عمل آخر ، كما جمع المازني ومسعود وحافظ عوض ، وإن كانوا جميعاً لم يبلغوا حظه من التقدير المادي ، وذلك ميزته أنه يتفرغ لفنه تفرغاً كاملاً ، فلا يشغل نفسه بالعمل الصحفي ، ويجد من جناحه المثل على النيل مواجهاً الجزيرة والشمس والقلمة ، ما يمدّه بالقوة على العمل المتصل ويهيئه للإنتاج الضخم .

- خيري حماد : صحفي ومؤلف ومترجم من فلسطين ، اشتهر بإعادة الترجمة وسرعته وورث في ذلك أعلامها أمثال فتحي زغول وجلال زعيتر .
- له عديد من الترجمات عن البير كامي ، وجون دلوي ، وأوسكار وايلد وبرتراند رسل ، كما ترجم عشرات من المؤلفات السياسية عن العالم العربي ومصر ، ومذكرات تشرشل وديغول .
- من مؤلفاته : التطورات الأخيرة في قضية فلسطين .
- صور من أوروبا .
- قضايا في الأمم المتحدة .

الدكتور زكي علي الدعوة إلى الإسلام

لفت نظري اسم هذا الباحث الكبير خلال مراجعاتي للصحف المصرية في الثلاثينات ، إلى حد أدهشني بفزارته موضوعاته ، وتخصصه في بحث أحوال المسلمين وقضايا الإسلام ، وزاد الأمر أهمية أنه قام بالسعي مع الأمير شكيب أرسلان وغيره في عقد المؤتمر الإسلامي الأوروبي في خريف عام ١٩٣٣ ، بقصد « توحيد صلات التعاون والتآزر والوثام بين جميع المسلمين المقيمين في أوروبا ، مما يكون من ورائه ترقية شئونهم الدينية والاقتصادية والاجتماعية » ، وكانوا يبلغون إذ ذاك « نيفاً واثنى عشر مليوناً » وكانت فكرة هذا المؤتمر قد نشأت على أثر مباحثات « المؤتمر الإسلامي العام » في القدس ديسمبر ١٩٣١ .

كما ترجم الدكتور « زكي علي » كتاباً ضخماً عن (نهضة آسيا) لكاتب الإنجليزي حر هو « ه. ه. م. هندمان » بدأ نشره في جريدة البلاغ (١ - ١٢ - ١٩٣٣) .

وقد واصل الدكتور « زكي علي » أبحاثه من (بادن) بالنمسا أولاً ، ثم من

جنيف بعد ذلك ، عن (الاسلام) على نحو رائع ، حتى أتيح له عام ١٩٣٨ أن يصدر أولى كتبه باللغة الانجليزية ، ثم توالى بعد ذلك مؤلفاته في هذا المجال على هذا النحو :

— الاسلام في العالم (بالانجليزية) لاهور ١٩٣٨ طبعة أولى ، ١٩٤٧ لاهور طبعة ثانية .

— لمحات في الاسلام (بالفرنسية) جنيف ١٩٤٤ .

— أوروبا والاسلام بالانجليزية جنيف ١٩٤٥ وترجمة دار الكشف ببيروت الى العربية ١٩٤٧ .

— اللغة العربية في العالم (بالألمانية) جامعة جنيف ١٩٥٠ .

— الاسلام على الأبواب : مترجم عن توماس رايشهارت (المانيا) ١٩٣٩ .

— فضل الحضارة الاسلامية على الغرب (أولين بسويسرة) ١٩٦٠ .

وللدكتور زكي علي كتاب طبعه في القاهرة قبل هجرته عام ١٩٣١ ، هو « رسالة الطب العربي » الذي ترجم الى البرتغالية في البرازيل ١٩٣٢ .

* * *

وقد اثار كتابه (الاسلام في العالم) عند صدوره إهتماماً كبيراً ، فقد ضم ١٣ فصلاً ، وملحقاً به إحصاء المسلمين في أنحاء العالم ، وقد استند المؤلف الى ٢٨٠ مرجعاً من أمهات الكتب ، التي ألفت عن الاسلام والشرق والعروبة في جميع اللغات الحية .

وعني الدكتور زكي علي بتحقيق إحصاء المسلمين في الثلاثينات ، وإستطاع أن يؤكد أن عددهم في ذلك الوقت ٣٩٥ مليوناً و ٧٥٨ ألفاً . في نفس الوقت الذي كان الأوروبيون وغيرهم يحاولون أن ينتقصوا هذا العدد الى ٣٥٠ مليوناً ،

يقول : « لا بلبت الباحث في إحصائيات المسلمين في أنحاء العالم أن يتبين
إختلافا كبيرا ، وخطأ كثيرا ، مما دونه الكتاب والمؤرخون والجغرافيون ،
الذين عنوا بوضع إحصاء شامل لعدد المسلمين على ظهر الارض ، وجبل هؤلاء
الكتاب من الغربيين . وقد وجدنا أثناء قيامنا بمثل هذا البحث تضاربا عظيما
في الآراء ، وخطأ شنيعا في كثير من الأرقام التي ذكرها المدونون في السنوات
الأخيرة أمثال ماسينيون المستشرق الفرنسي ، والدكتور زوير وغيرهما ،
فمعظم تلك الأرقام دون الحقيقة بكثير ، وإن كنا نقرر من باب الإنصاف أن
معلوماتنا عن عدد المسلمين في كثير من البقاع ، التي لا يعرف عنها سوى النذر
اليسير ، مثل أواسط إفريقيا ومجاهلها ، وقد وصلتنا عن طريق المبشرين
المسيحيين الكاثوليك أو البروتستانت الذين توغلوا في تلك البقاع » .

* * *

وقد صور الدكتور « زكي علي » هدفه من البحث فقال : « أنه إنما قصد
به الى غرضين : الأول تصوير الاسلام على حقيقته منذ بزغ نوره ، والثاني :
تطويره وبلوغه الحال الحاضرة التي واجه فيها دول أوروبا وشعوبها ، وحمد في
المعارك الطويلة التي أرغمت أوروبا أن يخوض غمارها وخرج من معظمها فائزا
منتصرا ، فليس الاسلام دين تعصب ولا جهل ، وليس في تهوض الاسلام خطر
يتهدد الحضارة الأوروبية ، التي هي وليدته في كثير من المناسحي ، كما أثبت
أكابر علماء الغرب أنفسهم أمثال : كوسان دي برسيفال ، وسد ليوت ،
وجوستاف لي بون ، وجولد زيهر ، و ه . ج . ولز ، وعشرات غيرهم » .

وقال : « أن الاسلام المنتشر في آسيا وإفريقية قد بدأ ينتشر في أوروبا
وأمریکا وأستراليا ، وقد يصير في وقت قريب قوة لا يستهان بها ، فوجب
إذن أن يحسب له حساب ويؤخذ بيده » .

* * *

وقد تناول « لطفي جمعة » هذا الكتاب في فصلين طويلين في مجلة « الرابطة العربية » (مايو ١٩٣٨) ، وقال : « أنه لم يضع كاتب حديث ولا قديم ، بلغة غير لغته كتاباً على النمط العالي كما صنع الدكتور « زكي علي » نزيل جنيف وخادم العلم والوطن والملة ، وإذا كان هذا الرجل الفذ لا يزال في منتصف العقد الرابع كما علمنا من بعض عارفه الثقات ، فلا يعلم الا الله ما يصل اليه بعد عشرين عاماً من الدرس والتنقيب والتأليف ، فهو يمتاز قبل كل شيء بالصدق والأمانة في النقل ، كما يظهر ذلك في الفصلين اللذين عقدهما لحضارة الاسلام وتوسع الاسلام وامتداده ونفوذه ، ويمتاز بخلة ثانية نفيسة هي قدرته على سرعة الالمام بمقائلي العلم ووقائع التاريخ وسهولة اهتمامها ، وصياغتها في أفضل قالب وأبلغه وأوضحه ، وقد دل بكتابته في الاسلام على قدرة في التأليف بالانجليزية بدرجة أسلوبه العربي الرائع .

وأن الدكتور زكي علي لم يرم الى تمجيد الاسلام وحسب ، بل رمى الى حل مشاكله المعاصرة ، فقد شرح النضال الحامي بين الشرق والغرب في فصل ممتع ، ألم فيه بكل ما يهم العرب أن يعرفوه عن تاريخ النزاع بينهم وبين أوروبا المحتاجة الفاصبة .

وأن أوضح ملامح هذا الكتاب هو غيره المؤلف ، وسعة علمه ، وشدة إيمانه بمستقبل هذه العقيدة ، التي صحبتها حضارة هي أرقى الحضارات القديمة والحديثة في الشرق والغرب .

وأن المؤلف يشع ثاراً ونوراً في سبيل نصره هذا الدين ، وسعة انتشاره والتبشير به لصالح الانسانية ، وقد وهبه الله جلدأً وصبراً وقدرة فائقة على تحمل المشقات ، لا يكون الا للهواة والمرشدين ، الى جانب تفكير قوي ، وأسلوب غني ، وفكر منظم ، وارادة نافذة وقاهرة .

وأشار لطفي جمعة الى أن الدكتور « زكي علي » الذي غادر القاهرة ١٩٣٢ ، في جو غامض ، لم يعد حتى كتابة هذه السطور . وقال : « تحرير

البحث عن هذه الشخصية الفذة فإذا هي غير شخصية الطبيب ، الذي كانت له صلة بجريدة المؤيد منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، وهو دكتور في الطب ، أصله من مديرية الشرقية ، تخرج من كلية الطب ، وسافر الى أوروبا في بعثة علمية ، أتقن الانجليزية والفرنسية والألمانية ، واشتغل بالطب والتاريخ والسياسة ، وهو ذو شخصية معروفة محبوبة ، ومعدودة في أوساط العلم والسياسة ، كما أنه معروف في فينّا وجنيف ولندن معرفة جيدة ، ندبته محطات الاذاعة الأوروبية للخطابة في موضوعات إسلامية وشرقية ، باللغات الألمانية والفرنسية ، وشهرته في الطب لا تقل عن شهرته في السياسة .

والذي علمناه من سيرة الدكتور زكي علي ، بدلنا على أنه سافر من مصر لسبع سنين خلت في بعثة طبية حكومية ، بعد أن تخرج من كلية القصر العيني ، ومارس عمله في المستشفى الملحق بها ، ولم يدر بخلده اذ ذاك ان طوارئ الحداث استطوح به في تيارات غربية عن مهنته ، وقد استغرقت فكره وعلمه ووقته ومواهبه ، وحولت خطة حياته في العلم والعمل الطبي الى الجهاد العلمي السياسي في سبيل الاسلام والمسلمين ، حتى ذهب ماله ، ونضب معين ثروته ، دون أن يفكر في الاستفادة من جهوده المختلفة ، معانياً في تلك السبيل مرارة العيش والالام والاغتراب ، كالشهداء والمهاجرين الأول ، الذين لولاهم لما قامت للمعتقدات الكبرى قائمة ، لقد وجد أن أوروبا جاهلة بشئون الاسلام الجهل كله ، كما وجد علاقة الغرب بالحضارة العربية علاقة مرضية مزمنة تحتاج الى أشد عناية وأدق علاج « فانقطع الى البحث والدرس » .

فكانت نتيجة بحثه هذه الدراسات والاعمال الكبرى في التعريف بالاسلام بالانجليزية والفرنسية والألمانية .

* * *

هذا ما كتبه لطفي جمعة عام ١٩٣٨ ، وللقارئ أن يسأل اليوم « أين الدكتور زكي علي بعد ثلاثين عاماً من هجرته ؟ ..

هذا هو ما كان موضع التساؤل في مختلف أنحاء العالم الاسلامي ، فإن اسم الدكتور زكي علي الذي كان مدوياً ، لا يمكن أن يخفت أو ينطوي ، وهذا ما دعاني الى الاتصال به في مهجره ، فهو واحد من هؤلاء الأعلام الذين هاجروا وعملوا من أجل فكره كبيرة ، يوضع في صف شكيب أرسلان وعبد العزيز الثعالبي ومحمد فريد وعبد العزيز جاويز والخضر حسين وغيرهم ، من أعلام العالم الاسلامي الذين تغربوا من أجل « الكلمة » .

وقد استطعت فعلاً أن أحرز النجاح في الاتصال بهذا العلامة المجاهد المهاجر ، الذي كان له الفضل في هداية عشرات من المثقفين الى الاسلام ، ومنهم الصحفي المسلم « أحمد هوبر » الذي زار القاهرة واستقبل فيها استقبالاً رسمياً في العام الماضي .

لقد كان الدكتور زكي علي منذ مطالع شبابه مثقفاً ، كان والده من خريجي الأزهر وتعلم عليه كثير من رجال التعليم والتربية ، رباه تربية اسلامية عربية ، فنشأ زاهداً في الدنيا ، راغباً عن زخارف المدنية ، تطلعت نفسه منذ شبابه الى الاشتغال بطب الأبدان وطب الأديان ، وكان في نفسه أن يكون طبيباً لما أصاب الاسلام والمسلمين من المحنة والعلل بالعمل على إقامة معالم الاسلام وإحياء مجد الأمة الاسلامية . وكان هذا في نظره يستلزم تحرير ديار الاسلام ، وفي مقدمتها مصر ، يقول :

« لهذا كنت في طليعة الطلبة الذين قاموا بالمظاهرات ، وإعداد المنشورات إبان الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ، وأنا يومئذ طالباً بالمدرسة الحديوية الثانوية بالقاهرة ، وقد دونت في ورقة وأنا فتى في الزقازيق رغبتى في أن أكتب عن الاسلام كتاباً بعنوان « لمحات في الاسلام » ليوزع في بلاد الشرق والغرب ، ثم نسيت ذلك ، واذا بهذه الرغبة تتحقق في سويسرا عام ١٩٤٤ ، وبهذا العنوان بالذات (بالفرنسية) .

وحدث عندما تقدمت الى امتحان دبلوم الطب (ديسمبر ١٩٢٦) ، أن

غُبنَت في الدرجات بسبب غامض ، وكُنْتُ حصلت على أعلى درجة في امتحان أمراض العيون في تاريخ مدرسة الطب إطلاقاً ، وإذا بهذه الدرجة تنقص بلا وجه حق ولو لم يقع ذلك لكنت أول خريجي الطب ، ثم عرضت عليّ بعثة علمية فرفضتها عام ١٩٢٧ ، واشتغلت طبيباً بقصر العيني ، ثم طبيباً بشركة الزيوت الانجليزية المصرية (شل) في الغردقة على البحر الاحمر سنة ١٩٢٨ ، وهالتي سوء معاملة الشركة للعمال المصريين ، فدافعت عن حقوقهم ، وفرضت على الشركة كثيراً من الامور لمصلحة العمال .

وسافر الدكتور زكي علي في بعثة علمية عام ١٩٣١ ، ليقضي وقتاً في باريس ، ثم في فيينا عاصمة النمسا ، ثم في لندن : « وما أن وصلت الى باريس حتى سارعت ليس بالتردد على المستشفيات الفرنسية فحسب ، بل وبالتردد على الأوساط العربية والاسلامية بها ، وجمعت حولي الكثيرين ، وعرفت عدداً من المستشرقين وكبار الأطباء .. وصار مسكني نادياً يجتمع فيه كل الشرقيين من العرب والمسلمين » .

وحضر المؤتمر العالمي لتاريخ الطب في مدريد ، وقدم بحثاً عن تاريخ الجراحة العربية في الاندلس ، يقول : « وعندما وصلت الى فيينا عام ١٩٣٢ ، كنت وطدت من قبل علاقات كبرى مع العاملين في النضال العربي والاسلامي شرقاً وغرباً ، مع قيامي بالكتابة عن الاسلام ومصر والشرق بالصحف وبالخطابة والمحاضرات وبالاذاعة ، وصرت أحلم بتحرير بلادي وبإحياء مجدها ، فأسست رابطة الثقافة الاسلامية هناك عام ١٩٣٢ ، وكان لها نشاط عظيم وتأثير بالغ المدى في الأوساط الأوروبية ، ثم ازداد النشاط بتأسيس جمعيات مماثلة في لندن ومدريد والبوسنة .

« غير أن هذا لم يرض الأوساط الاستعمارية والأوساط المعادية لمصر ، والتفوذ في مصر يومئذ كله بيد الانجليز ، فوشى بي بعض الأطباء من الانجليز بقصر العيني الى الحكومة ، وصادف في نفس الوقت مرضي بالكبد في فيينا ،

وأضطرابي لدخول مستشفى للإقامة فيه شهرين ، فأندرتني الحكومة بالرجوع
وبعدم السفر الى لندن ، ورغم احتجاجي على هذا التصرف الظالم ، اذ كنت
مريضاً من جهة ، ولم تتم مهتي الطبية من جهة أخرى ، ولكن الحكومة قررت
فصلي من قصر العيني ، وأصبحت بين عشية وضحاها صفر اليدين من أي وسيلة
للعيش ، وهنا بدأت حقيقة كفاح مرير من ضيق ذات اليد وعسر الزمن .

وقال له الامير شكيب أرسلان : « يادكتور لقد ضحيت بمرکزك في
مصر ، وليس لك مورد للقوت ، ورغم شبابك فبدون المال ستعاني وستقاسي
كثيراً في سبيل ما تصبو اليه من العمل لتحرير مصر وديار العرب وإنهاض
المسلمين » .

واقترح عليه الامير شكيب الهجرة الى سويسرا ، وأن ينضم الى زملائه
في الجهاد ، غير أن الدكتور زكي علي قال كلمته الفاصلة في خطاب الى « فؤاد » :
« ان عرشاً لا يقوم على دعامة من رضا الشعب لهو عرش فوق بركان ثائر لا
يؤمن له انفجار ، وأن الأمة التي ذاق طعم الحرية في (بيت الأمة) لن تقبل
طبائع الاستبداد في (عابدين) » .

ولم يتوقف الدكتور « زكي علي » عن العمل بعزيمة وإصرار ، فأخذ يكتب
في الصحف داعياً الى حرية مصر واستقلالها ، فأشراً دعوة العروبة والاسلام ،
وأتيح له في خلال هذه السنوات المعجاف أن يعمل كثيراً ، وأن يلتقي
بالكثيرين من أهل الشرق والغرب فيكون حصيلة ضخمة من التجارب
والدراسات والثقافة في مجالات مختلفة .

وظل الدكتور « زكي علي » مرابطاً في أوروبا بعد أن عاد شكيب أرسلان
الى الشرق ، وعاد علي الغاياتي الى مصر ، وقبل ان تشرق أضواء الثورة المصرية
العربية كانت قد أصيب المجاهد القديم والمحارب الكبير بالذبحة الصدرية
(بسبب كمدي من أحوال بلادي وبسبب الجحود) .

يقول : « إنني منذ سنين اخترت العزلة ، وأنست الاعتكاف ، وحجب إلى نفسي سلوك سبيل الصوفية ، مقتدياً في ذلك بالامام الغزالي - رضي الله عنه ، وهكذا استقلت من وظيفتي بجامعة جنيف ، حيث كنت أقوم بتدريس اللغة العربية وآدابها زهاء عشرين سنة ، وتحورت من شواغل الدنيا ، وإنني أجد راحة النفس وصلاح البال في شقتي الصغيرة ، التي يسميها أصحابي « الصومعة » ، حيث أعيش وحيداً لا زوجة ولا ولد ولا خادم ولا خادمة ولا تلفون ولا راديو ولا تلفزيون ، وإنما وسط تلال من الكتب والمطبوعات المقدسة في كل جانب ، فلا عجب أن أطمئن إلى ما رضيت به نفسي ، وخاصة بعد أن انتقل إلى الدار الباقية جلّ من عاصرت وعرفت عن كتب أو عن تراسل أو شاطرت الجهاد ، وبعد أن كدت أكون نسياً منسياً لدى أهل هذا الجيل ، وقد تغيرت أحوال الدنيا ، وبعد أن امتحنني الله فابتلاني بآلام الذبحة الصدرية منذ ثلاثة عشر سنة فرضيت قضائه وصبرت على البلاء .. » .

وذكر الدكتور زكي علي أنه عام ١٩٤٢ والحرب على أبواب مصر من ناحية ليبيا ، كان يعد كتاباً بالإنجليزية تحت عنوان « The real Egypt » : « مصر الحقيقة » نأدى فيه بزوال الملكية في مصر وقيام الجمهورية وكان إهداءه :

إلى فلاحى مصر ... الذين ولدت في إحدى قراهم ، وعاشرتهم فعرفت محنتهم وبلوهم ، وسمعت وان سكتوا أنينهم وشكواهم ، والذين عاجلت مرضاهم طبيباً وأحن اليهم غريباً .

وهكذا كان في خاطر الدكتور « زكي علي » دائماً وطنه وفلاحوه ..

- الدكتور زكي علي من مواليد ١٩٠٨ .
طبيب مصري مقيم في جنيف منذ ١٩٣٤ .
من مؤلفاته في دار الكتب المصرية : رسالة الطب العربي وتأثيره في أوروبا
(١٩٣١) .



عبد العزيز بن عبد الله التحقيق اللغوي والتاريخي

إن المغرب العربي في نهضته الفكرية بعد الاستقلال ، يرسم صورة رائعة للعمل البناء في مجال التأليف والبحث والتعريب جميعاً ، فقد نهض عدد غير قليل من شباب الأدباء والعلماء ، فمضوا يشقون الطريق بقوة ، لبناء الفكر العربي الاسلامي المغربي ، على أسس ثلاثة : (١) : بعث التراث وإحيائه وتقديمه وفق المنهج العلمي ، باعتباره يمثل صورة الإمتداد التاريخي للأدب العربي منذ فجر الاسلام الى اليوم . (٢) : إحياء التعريب ودراسات اللغة العربية ، باعتبار أن المغرب في مجال الفصحى دور ضخم يلتقي بالدور الذي قام به اللغويون في المشرق . (٣) : كتابة التاريخ المغربي العربي الاسلامي من جديد في مراحل المختلفة .

* * *

وقد ظهر في هذا المجال عديد من الأعلام ، في مقدمتهم : علال الفاسي ، وعبد الله كنون ، وعبد الكريم غلاب ، ومحمد الفاسي ، ومحمد بن تاويت الطنجي ،

ومحمد الحجوي ، ومحمد ابراهيم الكتاني ، ومحمد داود ، ومحمد عباس القباج ،
ومحمد الصبّاغ ، ومحمد عبد السلام بن عبود ، ومحمد عزيز الحبّايي ، ومحمد مكي
الناصري ، وعبد العزيز بنعبدالله .

وعبد العزيز بنعبدالله هو المشرف على مجلة « اللسان العربي » التي يصدرها
المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي ، وله دراسات للغة المتعددة .
ولقد كان عليّ أن أذكر عمله الضخم الذي يقوم به ، وهو معجم الضخم عن
الفصح في العامية المغربية ، ويحتوي آلاف الألفاظ ذات الأصل العربي ، وقد
أرفقه بدراسة مقارنة لتطور استعمال تلك الألفاظ ووجوه اشتقاقها ، مع
موازنة ذلك بالتأثيرات اللغوية التركية والفارسية واليونانية واللاتينية والفرنسية
والاسبانية . وقد حمل عبد العزيز بنعبدالله منذ وقت بعيد لواء الدعوة الى
تفصيح العامية في العالم العربي ، وأجرى مقارنات بين عامية المغرب وعامية
الشام من ناحية ، وعامية المغرب وعامية مصر من ناحية أخرى .

وفي دراسة لمنهجه يقول : ان أغلب الأصول والقواعد الأساسية مشتركة بين
الفصحى والعامية المغربية ، حق ما يتصل بالقلب والإبدال والتسهيل والترخيم
والنحت ، وتمتاز العامية بمظاهر بسيطة تجعلها في بعض الأحيان أكثر إيفالاً في
القلب والتسهيل .

ويقول : يجب أن يعيد التاريخ نفسه في تفصيح العاميات العربية وتوحيدها ،
فقد تعددت اللهجات في الجاهلية بتعدد القبائل الكبرى ، وخفت أوجه الخلاف
بما استوثق اذ ذاك من صلات في الاسواق الاقليمية والمبادلات التجارية
والمصاهرات ، ولقد لعبت فرنسا دوراً هاماً في انتقاء أجود اللغات فسقت
واجتنت أفضل لغات العرب « وحاول بعض العلماء تفصيح اللهجات العامية
(مثل الأستاذ عبد القادر المغربي) ، ويرجع عدم نجاحهم الى عدم اتخاذ مسطرة
منطقية فعالة جماعية ، مصادق عليها من مجموع الدول العربية ، لمواجهة الفروق

المختلفة الناتجة من تشعب القواعد العامة ، تبعاً لاختلاف التأثيرات ا
أو التأثيرات اللغوية الدخيلة .

* * *

وللأستاذ بنعبدا الله أبحاث مختلفة متعددة ، نشر كثيراً منها في المجلات العلمية المغربية ، وقد قرأت أولها في مجلة رسالة المغرب (١٩٤٦) التي كانت يرأس تحريرها الأستاذ عبد الكريم غلاب مدير تحرير جريدة العلم كبرى الصحف المغربية اليوم . وقد كشفت هذه الأبحاث عن اتجاه كاتبنا نحو إحياء التراث والتحقيق العلمي في مجال الأدب والتاريخ معاً ، في دراسات عن تراث ابن خلدون ، وتراث المغرب الفلسفي ، ومؤرخي الدولة العلوية ، ومراكز المغرب الثقافية ، والمعاهدات بين المغرب وأوروبا في العصور الوسطى .

وأعظم ما لفت نظري دراسته « مظاهر الحضارة المغربية » وهو بحث مطول بدأ في نشره عام ١٩٥٢ ، ثم أصبح من بعد مؤلفاً ضخماً من مؤلفاته ، استكله بدراسة أخرى هي (معطيات الحضارة المغربية) ، ثم « الفن المغربي في مختلف العصور » ثم « التيارات الكبرى لحضارة المغرب » ، وأضاف إليه تاريخ المغرب في دراسة مقارنة للنصوص العربية والأجنبية ، ثم « جغرافية المغرب » ثم « الطب والاطباء بالمغرب » ، من هذه المجلدات السبع تكونت موسوعة ضخمة ، تعد من المراجع الأساسية للحضارة المغربية ، ولا عجب فالأستاذ عبد العزيز هو أستاذ الحضارة والفن بكلية الآداب بجامعة محمد الخامس ، بالإضافة الى إدارة المكتب الدائم للتعريب . فهذا عمل تخصص فيه منذ عشرين عاماً ، فإذا عرفنا أنه من مواليد عام ١٩٢٣ ، وأنه أحرز الليسانس في الآداب والحقوق عام ١٩٤٦ ، ثم درس العلوم الإسلامية على مجموعة من كبار العلماء بالرباط عجبنا لهذا الذكاء والنبوغ .

ولقد لفت نظري عبد العزيز بنعبدا الله بصورة باهرة ، في خلال إعداد دراستي عن الفكر والثقافة في المغرب العربي بأقطاره الأربعة في فترة الاحتلال الفرنسي لهذه الأقطار حتى عام ١٩٥٤ تقريباً ، لفت نظري بإنتاجه الضخم

الواسع المنوع ومنهجه العلمي ، وله الى هذه الموسوعة عن الحضارة المغربية آثار أخرى منها « الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب » و « الاسلام في تطور » أو الاسلام في طريق التقدم كتبه باللغة الفرنسية ، وله بالفرنسية أيضاً « الفن المغربي » .

ومن هنا كان اهتمامي بكتابته عن تاريخ المغرب في العصر الحديث والفترة المعاصرة ، الذي تحدث فيه عن تاريخ المغرب منذ قيام الدولة العلوية ، وتجديد وحدة المغرب الى العصر الحديث ، مولياً اهتمامه للعصر الاسماعيللي ، ثم الاستعمار الفرنسي بالجزائر ، والمقاومة المغربية المسلحة ، والكفاح السياسي لهذه الحماية ، ودور الملك محمد الخامس والشعب في المقاومة ، وقد اهتم المؤرخ بحركة الأمير عبد الكريم الخطاطبي في الريف ، ومضى في دراسته مفصلاً تطور الحضارة والفن ، وموارد الدولة ، ونظم البلديات ، والتعليم ، والمحاكم الأهلية . ثم رسم صورة رائعة للمقاومة والمطالبة بالاستقلال وقيام الكتلة الوطنية ملتفة حول الملك محمد الخامس .

* * *

ولعل أروع ما في هذه الدراسة ، ذلك المعجم التاريخي عن أهم الأحداث والأعلام والأماكن ، الذي يبدو جمّ الفائدة للباحث من خارج نطاق المغرب ، حيث تبدو بعض الكلمات ولها طابع فريد معين :

- (١) فالبحر الأخضر مثلاً تعبير كان يطلق على البحر الأبيض المتوسط .
- (٢) (الراية) حيث أشار الى أن أقدم راية مغربية كان لونها أزرق وأحمر وأبيض ويرجع تاريخها الى القرن الثامن الهجري .
- (٣) وأشار الى أنه يوجد في المغرب إقليم اسمه الشام (الصغير) وهو اقليم من تطوان الى وادي سبو .
- (٤) من هذه الاصطلاحات (الغدير) وهي المراعي التي احتفظ بها الحزن

(أي الحكومة في عهد الاحتلال) لنفسه في الأراضي التي كانت تابعة لبيت المال .

(٥) أشار الى (العرب) التي أوردها ابن خلدون ، وقال أنه تناقض في الظاهر مع نفسه ، حيث وصف العرب بالتوحش والنهب وروح التخريب من مقدمة تاريخه ، ثم ذكر أنهم بعد الفتح الاسلامي تمدنوا فبلغوا الغاية في ذلك وتطوروا بتطور الحضارة ، وقال « والواقع أنه لم يقصد بالتوحش سوى الأعراب الأجلاف في الجاهلية أو بعدها ، أما العرب الحضريون فهم غير ذلك . وبهذا لا يكون العرب بدعاً من الشعوب الأخرى كالبربر مثلاً ، الذين نلتبس فيهم نفس الخصائص في البداية ونفس الاستعداد للتطور في الحضارة .

(٦) أشار الى عروبة الفينيقيين وقال: أكد الاستاذ توفيق المدني في (تقويم المنصور الصادر سنة ١٣٤٨ هـ) ، أن الكشوف الحفرية ونقوش الحجارة أثبتت كنعانية الفينيقيين ، كما أبرزت أن كلامهم كان عربياً شديد الشبه بالعربية العامية المستعملة بالعاصمة التونسية وجزيرة مالطة قبل أن تختلط بمختلف اللغات الأوروبية .

(٧) أشار إلى مدينة « فاس » فقال أن القلقشندي في صبح الأعشى ذكر أن فاس مدينتان ، إحداهما بناها إدريس بن عبد الله وتعرف بعودة الأندلس ، والأخرى بنيت من بعده وتعرف بعودة القرويين .

(٨) في مادة (جامع القرويين) قال أن « دلفان » قال في كتابه « فاس وجامعتها » أن جامع القرويين هو أول مدرسة في الدنيا .

(٩) في مادة (المغرب العربي) قال : أن وحدة المغرب العربي تحققت سياسياً منذ القرن الأول ، حيث ولي هشام بن عبد الملك (عبد الله ابن الحبحاب) مصر وإفريقية والأندلس ، فكان له من العرش الى طنجة (الى السوس الأقصى ، الى الأندلس وما بين ذلك .

(١٠) قال في مادة (اليمن) أن هانز هو افريتز في كتابه حول اليمن ، قد أشار الى التشابه الملحوظ بين الألحان في أغاني الجنوب العربي وبين الموسيقى البربرية ، التي تمكن العالم كارل ولهم لحنان من تسجيلها ، فأبرز وحدة إنشاد الأغاني . أضف الى ذلك وجود أبنية مرتفعة بالأطلس، تشبه تلك التي تقوم في الجنوب العربي ، وتحمل نفس المظاهر المعمارية كالنتوءات والأنايب الخشبية لنقل مياه الأمطار والكوات والثقوب .

* * *

وبعد فقد توسعت في إيراد جوانب من المعجم التاريخي ، الذي ضمه المؤلف الى كتاب المغرب ، والذي تناول فيه أكثر من ثلاثمائة مادة ، لأدلل على منهج البحث العلمي ، الذي يبرز دائماً في دراسات عبد العزيز بنعبدالله ، بما يدل على تنوع دراساته وتعمقها واشتغالها على أبحاث التراث واللغة والتاريخ والحضارة .

● عبد العزيز بنعبدالله (الرباط) للمغرب .

من مؤلفاته : تاريخ المغرب في العصر الحديث والفترة المعاصرة .

معجم الأصول العربية والاجنبية للعامة المغربية .

الفلسفة والأخلاق عند ابن الخطيب .

الطب والأطباء بالمغرب .

عامر محمد بحيري شعر الملاحم

لا شك أن الشعر العربي المعاصر ، يخطو اليوم خطواته الواسعة في المجال العالمي والانساني ، بظهور عديد من الدواوين التي يبرز فيها طابع الشعر الملحمي واضحا من الغلاف الى الغلاف ، متخصصة فيه ، مستقلة به .

وقد أصدر « عامر بحيري » ملحمة الثالثة (الجلاء) وبذلك وضع نفسه في مكان واضح من مجال تجديد الشعر العربي ، الذي كان طبيعياً أن يتجه بالشعر العربي المعاصر الى « الملحمة » ، بعد أن كتب شوقي وحافظ ومطران قصائد مطولة . وفي مقدمة من تناولوا هذا اللون « أحمد محرم » حين نظم ملحمة (الألباظة الإسلامية) ، التي ظلت سنوات طويلة لم تنشر حتى أتيح لها ذلك في هذه الأعوام .

وكان عامر محمد بحيري في مقدمة من حمل هذا اللواء ومضى به طويلا ، حتى نظم ملحمة الشعرية « أمير الأنبياء » في ١٢٠٠ بيتاً . ثم أتبعها بملحمة (إيزيس وأوزيرس) فملحمة « الجلاء » .

ويظهر عمل عامر محمد بحيري في ميدانين كبيرين : فن الملاحم ، وتجديد العروض .

وقد كان عمله هذا في خلال ثلاثين عاماً خليقاً بأن تلقى اليه نظرة فاحصة ، فعامر بحيري منذ عام ١٩٣٢ بدأ يعمل على تجديد الشعر ، حتم عليه هذا الاتجاه دراسته للشعر الانجليزي وفي مقدمته شعر شكسبير ، ومقارنته بمسرحيات شوقي التي ظهرت في هذه الفترة وشغلته كثيراً ، حتى أنه بدأ ينسج على منوالها في محاولات متوالية .

وقد هيا له ظهور مجلة « أبولو » في ذلك التاريخ فرصة لنشر منظوماته ونقوده ، ولم يلبث أن أصدر عام ١٩٣٦ مجموعة شعره الأولى « البخت الذهبي » تحمل طابع التجديد الذي أخذ نفسه به .

كان اتجاهه في التجديد .. ينصب على القالب ومضمون الشعر في وقت واحد . وكان تجديد القالب يتمثل في إدخال أوضاع شعرية جديدة أظهرها الأسماء الرباعية والثمانية والتساعية التي أخذها من بعض الشعراء ، وخاصة تساعية « آدموند سبنسر » وثمانية « بيرون » .

ثم جرت محاولته فيما بعد لادخال نظام « السونته » ، وهو يتكون من ١٤ شطراً أدبياً وسمّاه « الصدحات » لما لمسه من قرب الجرس الصوتي بين الكلمتين العربية والأجنبية ، ولما تؤديه كل منهما من معنى اللحن والغناء .

وشغل عامر بحيري في أهم ما شغل به من فكرة تجديد الشعر ، بتجديد العروض ، فقد لاحظ أن محور الشعر العربي تنقسم الى قسمين : بسيطة ومركبة . بنينا محور الشعر الأوربي مثلاً كلها بسيطة . ومعنى المحور البسيطة أن البيت يتكون من تقيلة واحدة متكررة نحو : مستفعِلن ، مستفعِلن ، مستفعِلن (في الرجز) ومتفاعِلن ، متفاعِلن ، متفاعِلن (في الكامل) و : فعولن ، فعولن ، فعولن (في المتدارك) .

وفي البحور المركبة ، أن البيت يتكون من تفعيلتين مختلفتين تتكرران واحدة تلو الأخرى . نحو فعولن مفاعيلن ، فعولن ، مفاعيلن (في الطويل) ومستفعلن فاعلن ، مستفعلن ، فعولن (في البسيط) وفاعلاتن ، مستفعلن ، فاعلاتن (في الخفيف) .

يقول : ولما كنت قد تبينت تمام التبين أن الشطر في الشعر إنما هو البيت نفسه ، وأن البيت المعروف في قصائدنا العربية والمكون من شطرين ما هو النوع من الشعر المزدوج ، وذلك يظهر بوضوح أكثر من البيت الأوربي الذي يسمونه سطرأ أي بيتاً ، كما يظهر بوضوح أيضاً عند ترجمة الشعر الأوربي ، إلى شعر عربي - وهو ما عالجته - فيقع المعنى الوارد في البيت الأوربي حينئذ ، في شطر واحد من الشعر العربي ، لذلك رأيت أن أول واجب نحو تجديد العروض العربي ، وجعل الشعر العربي يستوعب الموضوعات الكبيرة كالملاحم والمسرحيات ، إنما هو في الرجوع إلى هذه الحقيقة ، وهي رد بيت الشعر العربي إلى شطر واحد بدلاً من شطرين ، لا داعي لها خصوصاً مع التزام القافية في الشطر الثاني على طول القصيدة ، مما كان مثار الشكوى من جود الشعر العربي ، من حيث المعاني والموضوعات ، على أيدي ضعاف الشعراء ، وأدعياء الشعر على مر العصور .

غير أن جعل البيت شطرأ واحداً في العربية لا يكفي ، لأنه لا يزيد عادة عن ثلاث تفعيلات ، بينما هو في الشعر الأوربي خمس أو ست ، لذلك رأيت أن أنسب وضع للبيت العربي الجديد هو أن يكون من خمس تفعيلات في البحور البسيطة .

على أن ما حاولته فعلاً هو النظم في خماسيات البحور البسيطة ، وإن كان النظم في سداسيات البحور المركبة ممكناً ، إلا أن الأول أيسر منه ، وأنسب لموضوع القصة أو الملحمة .

وبيدي عامر بحيري رأيه في محاولات التجديد في الشعر العربي ، وبخاصة

من حيث العروض التي ظهرت في الفترة الأخيرة (عام ١٩٥٠) وما بعد ..
فيقول :

إن كان المقصود بها تطوير الشعر العربي فعلاً، والخروج به من حيز الجود الى حيز المرونة والانطلاق والاستيعاب ، وان كانت تتفق كذلك مع بعض القواعد الا أنها في أكثرها بحاجة الى تصحيح وتقويم، ومن مأخذي على هذه الحركة تحطيم التفعيلة الواحدة، واختيار البحور الضعيفة، وعدم التقيد بالقافية او اهمالها، مع ضعف الأسلوب غالباً ، مما يجعل هذا النوع حتى الآن أشبه بالترجمة النثرية لشعر أوربي منه بنظم شعري مبتكر، ولو روعيت فيه بعض الضروريات من تكامل التفعيلة واستقامة البيت والاعتماد على قوة القافية، مع العناية بالأسلوب الذي هو روح العربية وريحانها، لكان منه شيء قريب مما ذكرته الآن، وبفيته على دراسة مستأنية واعية أمينة على تراث العربية المجيدة وثروتها اللغوية والموسيقية الخالدة .

هذا بالنسبة لتجديد العروض عند « عامر بحيري » . أما بالنسبة لدوره في الملاحم والمسرحيات ، فقد ذكر أنه تأثر بمسرحيات شوقي ، وشغل بها الى حد كبير ، كما راح منذ مطالع حياته يترجم من مسرحيات شكسبير فترجم من العاصفة ومكبث وأنطونيو وكليوباترا وغيرها .

كما قام بمحاولات خاصة منها « ماري أنطوانيت » و « الجيل الجديد » و « الرسالة العادلة » و « خالد بن الوليد » و « الأمين والمأمون » وله محاولة لم تتم عن قناة السويس .

أما الملاحم عنده فهي الميدان الذي لم يجد في حلته من شعراء العربية فارساً ، رغم ما هو موجود فعلاً في أدبنا القديم من قصص شعري ومن ملاحم أغلبها نثري يتضمن في أثنائه أبياتاً من الشعر تمثل حواراً بين الشخصيات .

وقد دفعته دراساته للقصص الشعرية في الأدب الانجليزي الى تجربة مثل هذه المحاولة ، على نحو يختلف عما فعله شوقي الذي يرى عامر بحيري أنه اكفى بنظم

التاريخ (كما فعل في تاريخ العرب والاسلام) ، أما هو فكان يتجه الى القصة الفنية الخالصة . واستطاع في خلال السنوات المتوالية منذ عام ١٩٣٦ كتابة : الساحرة ، يوسف الصديق ، الحمامة البيضاء ، إيزيس واوزوريس ، أمير الأنبياء يقول : « أن هناك فرقاً كبيراً بين نظم التاريخ ونظم القصة المستقلة لقواعد الفن القصصي وشرائطه ، وبالرغم من أن بعض محاولاتي ، ربما يبعد من نظم التاريخ ، مثل ملحمة « أمير الأنبياء » التي كان جلال موضوعها وشخصية البطل فيها ، مما يدعوني الى الاقتراب ما أمكن الى حوادث التاريخ ، بل الى تحري الصحيح منها دون الموضوع . إلا أنني في محاولات نظم الملحمة بصفة خاصة كنت أهدف الى نظم القصة الشعرية الفنية ما أمكن ذلك » .

ثم كانت المرحلة الطبيعية بعد ذلك في تطوير عمل عامر بحيري أن يتجه الى عمل كبير ضخيم في تاريخ مصر كقصة الجلاء ، فهي عنده قمة في المحاولات التي مر بها في تراث وصبر ، مدى سنوات طويلة ، وقد نظمها في بحر مبتكر ، لا يبعد عن أصول العروض العربي ، ولا تكاد تختلف في نظائرها في القصص العالمية الكبرى . وقد بدأت الملحمة منذ بدأت نذر الحرب العالمية الثانية ، عندما تصدر شباب الجامعة الصفوف وتعرضوا لرصاص الانجليز ، وتساقط منهم الشهداء ، وكيف انطوت هذه الحركة ، ولم يلبث الشباب أن جدد حركته وكانت الدعوة لا تعتمد على الاحزاب وانما تعتمد على منطق القوة ، بدأت هذه الحركة في داخل الجيش وبدأ الشباب المتحمس في داخل الجيش وخارجه يتصيدون جنود الانجليز ، أفراداً وجماعات ، وبدأت تقتشر خلايا هذه الحركة التحررية الكبرى التي انتهت بقيام الثورة ١٩٥٢ ثم كيف قوّلت أحداثها في إعلان الجمهورية وتحقيق الجلاء وتأميم القناة .

وهي مع اتصالها بالتاريخ القريب ، فقد نظمت على نحو في متحرر من كل القيود والالتزامات ، أفرادها جميعاً من خلق المؤلف ، وليس فيهم شخصية واحدة لها نظير في الوجود الخارجي ، أعطت صورة من حياتهم ، كما صورت الحياة الجامعية في مصر ، وبعض مشاكل المجتمع ، وحياة الريف والمدينة .

ويدل هذا العمل في جملته على استمرار عامر بحيري في رسالته التي آمن بها، والتي لم يتحول عنها على الرغم مما لقي من إغراء، إلا أنه أثر الاخلاص لرسالة مدى الحياة، ثم أخذ في تطوير هذه الرسالة حتى شملت القصة والملحمة والمسرحية، وقد لقي في سبيل هذا الاتجاه خصومة شديدة، وتأخر بين الصفوف عن حد قوله، لولا إيمان بالله وبالرسالة التي وهب نفسه لها.

● عامر محمد بحيري : من خريجي كلية الآداب بالجامعة المصرية .
من مؤلفاته : تحية الهجرة ، خالد بن الوليد (مسرحية شعرية) ، اليخت الذهبي ،
الجللاء ، تحت لواء العروبة ، قصائد إفريقية .
وله : تحقيق ديوان إسماعيل صبري ، واختار من كتاب الإتقان في علوم
القرآن للسيوطي .



عمر الدسوقي تطور الأدب العربي

ما تزال دار العلوم تمثل المدرسة الوسطى في الفكر العربي المعاصر بين الأزهر والجامعة ، حيث الأزهر يوغل في الدراسات الاسلامية واللغوية التقليدية ويحتفظ بطابع المحافظة والتعمق والتوسع ، وحيث الجامعات تأخذ بالدراسات العصرية الحديثة دون أن ترتبط بمحذورها من الثقافة العربية .

أما دار العلوم فتتمثل الارتباط والتعاقد بين المنهجين ، ومن هنا كانت لها قيمتها الذاتية ، كحلقة تربط الثقافة الحديثة الغربية بالثقافة العربية الاسلامية وتخلق التفاعل بينها . ومن هنا كانت أهمية دراسة الاستاذ عمر الدسوقي كركن من أركان الدراسات فيها منذ ربع قرن تقريباً حين عاد من لندن ١٩٣٩ . ومزية عمر الدسوقي تنوع فكره وثقافته وتجربته في المجال الثقافي العربي الحديث . فهو قد جمع بين ثقافة الأزهر وثقافة دار العلوم وثقافة أوربا حيث أقام دارساً في جامعة لندن خمس سنوات ، ثم هو ذلك الكاتب الذي يؤمن بالقومية العربية باكراً ، ويرتبط بصلات الصداقة والثقافة مع عشرات من شباب العالم العربي ،

وهو الذي أقام فترة في بيروت مديراً لكلية المقاصد الاسلامية، ثم أقام فترة أخرى في ليبيا رئيساً لأقسام الأدب واللغة العربية بمجامعتها في برقة .

وهو فيما بين ذلك مؤلف وباحث ، له عديد من الدراسات عن اخوان الصفا والفتوة عند العرب وكثير من أعلام المفكرين العرب وكتابه « الرائد في الأدب الحديث » . وهو ليس أستاذاً جامعياً بقدر ما هو « مرب كبير » ، استطاع أن يبني عقولاً وشباباً ، وأن يترك آثاراً حية في عقول وقلوب كثير من المثقفين الذين اتصلوا به وتأثروا به ، ولعل طابعه في الجدية أبرز من طوابع غيره من الأساتذة والرواد في « المجاملة » .

ولقد كان في مطالع حياته رمزاً للتفرق ، فكان عام ١٩٣٢ أول الناجحين من خريجي دار العلوم وأصغرم سنًا ، ثم هو يسافر الى لندن ليدرس أمرين كانا إذ ذاك جديدين حقاً : علم النفس ، واللغتين الحميرية والآرامية .

وهو في خلال طريقه الطويل يتصل بالسيد محب الدين الخطيب سنة ١٩٣٦ ، فيذهب الى المكتبة السلفية ، وهي إذ ذاك خلف محكمة الاستئناف ، حيث يحضر الطلبة تلك الندوات ، ويشارك فيها العلامة أحمد تيمور ، والسيد الخضر حسين ، وأبو بكر يحيى ، وعبد العزيز اليمني الرجبوتي ، والمرحوم ابراهيم اطفيش . يقول : « هذه الندوة وجهتي الوجهة العامة ، أفهمتي في وقت مبكر واجبي نحو القومية العربية والاسلام ، ومن خلالها حددت الهدف الذي أقصد اليه في هذه الفترة :

(١) خدمة الاسلام (٢) خدمة الوحدة العربية (٣) خدمة مصر .
يقول : « وقد بدأت عام ١٩٣١ اؤلف جمعية الوحدة العربية في مصر .
وكان أعضائها أحمد حسين المحامي وفتحي رضوان وصالح جودت وبديع شريف » .

كما اشترك في مشروع القرش ، وجمعية الطلبة الشرقيين التي شارك فيها أحمد

حسين وفتحي رضوان وتوفيق البكري وعبد الرحمن الشهبندر وعبد الحميد سعيد .

يقول عمر الدسوقي : وفي هذه الاجتماعات ارتفع صوتي بالدعوة الى العروبة ، وكانت النغمة هي « الجارات الشرقيات » ، ومنذ ذلك اليوم انضموا الى الفكرة التي دعوت اليها وكان رئيس الجماعة محمد علي علوبة بعد اشتراكه في المؤتمر الاسلامي الذي عقد في القدس في نفس العام (١٩٣١) .

* * *

يقول عمر الدسوقي :

ومن مكتب السيد محب الدين الخطيب تألفت جمعية الشبان المسلمين ، فقد تأثرتا لوجود قاعة للشبان المسيحيين ، فلما كلمناه في ذلك : أخرج مشروع الدعوة من درج مكتبه . وبدأ عملنا : محمود الحضري ، محمود شاكر ، عبد السلام هارون ، عبد المنعم خلاف ، عمر الدسوقي . وفعلنا خرجت الى الجماهير عام ١٩٢٧ .

ويقول : « في انجلترا نشأت جمعية الوحدة العربية عام ١٩٣٧ وكان من أعضائها الدكتور عبد الرحمن البزاز ، والدكتور عبد العزيز الدوري (العراق) وعيسى نخله في نيويورك ، وكان لي منبراً في (هايدبارك) يومي السبت والأحد ، أدعو فيه الى قضية فلسطين ، واخواني من حول المنبر يحموني من سطوة اليهود ، واضطرتنا انجلترا الى التحدث في قضية فلسطين ، فقد جاء الاحتفال بتتويج جورج السادس ، ودعي الملوك والأمراء ، وانتبهنا الفرصة وأقمنا حفلاً كبيراً في هايدبارك . وفي نادي ألف ليلة وليلة في لندن حيث أعضاء مجلس اللوردات . كانت الدعوة كلها مركزة على قضية فلسطين . والمركز العربي في لندن أيضاً

افتتحناه بالحديث عن فلسطين .

* * *

أما في مجال الكتابة فقد بدأ التأليف باكراً في عام ١٩٢٧ ، ألف أول كتاب في التاريخ الاسلامي ولهذا سبب يقول : « كان لدينا مجموعة من الشباب الاندونيسي منهم محمود يونس ، نصر الدين طه ، مختار يحيى عميد كلية الآداب في جامعة جاكرتا اليوم ، أشعروني بالحاجة الى كتاب في التاريخ الاسلامي فألفته ونشره السيد محب الدين الخطيب ، وكان من خير مؤلفاتي رواجاً ، وقد سار في مختلف بلاد العالم الاسلامي . وقد كتبت في مجلة الهداية الاسلامية (الشيخ خضر حسين) وكان أول بحث عن النظريات العلمية في القرآن الكريم ، ثم كتبت فصولاً في مجلة الفتح .

وبعضها كتبه من لندن أهمها مقالاته تحت عنوان « في مفترق الطرق » . ثم كانت مقالاته في مجلة الرسالة .

ولقد كان لعمر الدسوقي معابر أبرز كتاب مصر في فترة الثلاثين : العقاد وطه حسين ، يمثل طابع المدرسة الوسطى ، وطابعه كمفكر غير منحاز لثقافة معينة ، وفي نفس الوقت مرتبط بالثقافة العربية الاسلامية المفتوحة على الانسانية ، لقد درس عمر الدسوقي في الغرب ، ولكن بعد أن أتم ثقافته في مصر ، وغاص في أعماق الثقافة العربية الاسلامية : « اللغة العربية والاسلام » . ومن هنا كانت « قاعدته الفكرية » سليمة وراكز ثقافته راسية ، ومن هنا لم تستطع الثقافة الغربية أن تحولوه ، كما حولت غيره ، وحمى فكره من الاهتزاز ، فقد استطاع أن يقتبس ويمتص كل ما يريد وطنه وعالمه وفكره قوة وحياسة . يقول : أفادتني تجربة الدراسة في الغرب (إنجلترا) منهجاً ، فقد أخذت بالمنهج العلمي الحديث ، وأفادتني ثقافة لغتين أساسيتين هما الانجليزية والفرنسية مع إلمام باللغة الالمانية ، لقد أفدت اللغة وأفدت المنهج ..

وإذا كان الحديث عن اللغات الحية ، فقد تعمق عمر الدسوقي في مقارنة

اللغات السامية ، فدرس الحبشية والحيرية والعبرية والسريانية .

ومن ناحية أخرى نرى عمر الدسوقي مؤمناً بالالتقاء الطبيعي والارتباط بين العروبة والاسلام ، وقد كون نظريته تلك منذ وقت باكر ، وزادته الايام إيماناً بها ، لخص ذلك في كلمته الواضحة الدلالة :

« الاسلام روح والعرب جسم »

يقول : « تفسير القومية العربية ، شعور كل فرد عربي أيّاً كان مكانه بانتمائه الى أمة واحدة هي الأمة العربية ، ولما كان الاسلام في شعائره وعقيدته يوحد مشاعر المسلمين ، ولما كان المسلمون في الوطن العربي يكونون ٩٦ ٪ من مجموع سكانه ، كان الاسلام عاملاً من أهم العوامل في توحيد هذا الشعور بالوحدة العربية . ثم إن العروبة مرتبطة بالاسلام ارتباط لغة وارتباط تراث ، ولا أنظر الى الاسلام على انه شعائر فحسب ، وإنما هو إطار حضاري ضم هذه المنطقة وصبغها بصبغته سواء من كان فيها مسلماً أو غير مسلم ، فوحدتم تاريخياً وثقافياً وأدبياً ، فلولا الاسلام ما كانت هذه الحضارة ولذلك أعده من أقوى العوامل التي تؤدي إلى نمو القومية العربية في نفوس الناس ، ولا عروبة بغير إسلام ولا إسلام بغير عروبة . »

* * *

ومن أجل هذه المفاهيم اختلف عمر الدسوقي مع ساطع الحصري ، الذي يرى القومية العربية منفصلة عن التراث العربي الاسلامي كأساس الوحدة الفكرية للأمة العربية .

أما خلافه مع طه حسين والعقاد فهو مرتبط بقضايا الأدب والنقد ، وعنده أن طه حسين يحكم المهور في القضايا الأدبية وبدون تحليل ، ومصدر خلافه مع طه حسين على حد قوله « أنه رجل لا يثبت على رأي » .

أما العقاد فقد كان للدسوقي معه مواقف ريمياً هي التي جعلته سيء الرأي فيه ، وبما يروى من ذلك موقفه يوم كان مشرفاً على مجلة البلاغ الأسبوعي ، وصادر نشر بعض كتابات له ولغيره من شباب دار العلوم ، وأجرى شطب السطور بالقلم الأحمر الذي كان العقاد معروفاً باستعماله في مختلف كتاباته ، فلما اعترض عمر الدسوقي ، قال العقاد كلمة بلغ فيها غاية الاندفاع ، حين أعلن من باب التحدي في الأغلب ، أنه قادر على إجراء القلم الأحمر في أي كتاب ، ولو كان من الكتب المقدسة .

* * *

ولا شك من خلال أربعين عاماً في مجال العمل الأدبي والفكري : مربياً ومحاضراً وخطيباً وكاتباً ومؤلفاً ورحالة ، تكونت لعمر الدسوقي تجربة الكاتب وتجربة المعلم ، وأبرز معالم هذه التجربة الإيمان بالأصالة والقيم الأساسية لفكرنا العربي الإسلامي .

وعنده أن الأديب بطبيعته « ملتزم » ، إذ أن الغاية من الأدب هي دفع الانسانية دفماً حميداً في درج الرقي والسمو بالفرائض والعاطفة الانسانية وإعطاء العصارات الفكرية والتجارب القومية كانت من الضروري أن يكون الأديب ملتزماً ، بمعنى أنه يرمي الى هذه الأغراض السامية سواء تأثر بها الفرد أو تأثر بها المجموع .

ويرى عمر الدسوقي أن المذاهب الأدبية لا تستورد ، وأنها تقوم في الأمم نتيجة عوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية ، تولد حالة نفسية عند أمة من الأمم ، يحاول الأدباء التعبير عنها ، فيجد أدبهم صدى ، يقول : « وفي رأي أن الأدب يجب أن ينبع من الداخل لا من الخارج ، ولا بأس من اتخاذ القوالب التجديدية عند الغرب ، ولا شك هناك تراث عالمي عام من الممكن أن نفيد منه ، ونطعم به أديبنا كما فعل شكسبير حين استوحى الأدب اليوناني والروماني والأساطير

الغربية ، وعندئذ نكون قد أقدنا لأدبنا دون ان نُسَخه مسخاً قياتي لا هو
بالشرقي ولا بالغربي »

* * *

وعمر الدسوقي بعد هذا كله شاعر بدأ به فجر حياته ، ثم عاد اليه في
السنوات الأخيرة ، ولعل إقامته في « بني غازي » قد هز في نفسه هذه العاطفة ،
ولعله قد نظم شعره تحت تأثير بعض المشاعر النفسية التي لا سبيل الى تصويرها
بالنثر . ومن ذلك قصيدته التي نظمها تحت تأثير تخلفه عن حضور مؤتمر عن
أدب البطولة . وهو أول من ألف عن الفتوة عند العرب ، فلما سئل في ذلك
قالوا له : « لو كنت أقل فضلاً مما أنت عليه لتصدرت » ، قال عمر الدسوقي :
« إذن ، فالفضل في هذا الزمان يحجب صاحبه » ..

ثم قال :

قلبي عرته اكتئاباً	لم أدر ماذا أصابه
قد عاش دهرأ خالياً	لم يطرق الهم بابيه
دنياه كانت كفاحاً	للمجد شد ركابه
يطوي الحزون اليه	ويستقل هضابه
إن آذنه الناس حقداً	وحدد الشر ثابه
ألفيته في تسام	لبس الصغار نصابه
يسر هونا عليهم	كما تمر السحابه
وكلما شام مجدأ	أذكى الكفاح حرايه
لكن دنياه قامت	بالزيف فيها عصابه
سلاحهم كلمات	معسولة كذابه
والناهبون تواروا	في كبرياء مصابه
لكن عزمي باق	يحكي الحديد صلابه
وطنت قلبي ألا	يأس لما قد أصابه

سيعرف الحق يوماً فضلي ويطرق بابه

* * *

ولا شك هذه الثروة الضخمة من التراث الأدبي في مجال النقد والشعر والأدب والتراجم ، إنما تصدر عن ذلك العقل المنوع الذي أتيح له أن يلم بالدراسات الأزهرية والدرعية والأوروبية ، فقد بدأ حياته في « الكتاب » ، ولم يلبث أن هرب منه لمنظر « الفلقة » واستطاع أن يحفظ القرآن في ستة أشهر ، كما حفظ مجموعات من الشعر : لامية العرب ، ولامية العجم ، وألفية ابن مالك ، حفظ ذلك في بيته ودخل الأزهر توأماً دون أن يمر على (الكتاب) ولكنه لم يستقر في الأزهر أكثر من عام ونصف عام ..

كان منهج التعليم فيه قد أزعجه ، وفي نفس هذا العام سنة ١٩٢٢ افتتحت تجهيزية دار العلوم فأسرع إليها ، وكان من رفقاته : عبد المنعم خلاف وعبد السلام هارون ... يقول : « فأنا أزهرى مثل جدي ، ودرعي مثل والدي » . نشأ في جو العلم والفقه ، فقد كان جده الشيخ الدسوقي العربي من علماء الأزهر ، وهو الذي أسقط طه حسين في شهادة العالمية ، وقد تفتح في شبابه على مكتبة جده ووالده ، وقرأ في مطالع حياته في كتب العلم العميق ، فقرأ الخصائص لابن جني وكتب المالكية وكان يقرأ في جلسات تطول حتى تبلغ الثماني ساعات . ولا شك كانت حياة عمر الدسوقي ولا تزال ، صورة للإيمان بالثقافة والفكر والعمل الدائب ، الذي لا يتوقف في سبيل العربية والعروبة والاسلام .

● عمر الدسوقي : من مواليد عام ١٩١٠ ، ومن أبرز أعلام دار العلوم . تعلم في

لندن ومصر ودرس في بيروت وليبيا ومصر .

من مؤلفاته : في الأدب الحديث ، المسرحية : نشأتها وأصولها ، دراسات أدبية ، اخوان الصفا ، التابعة للذبياني ، الفتوة عند العرب ، الوان من ثقافات الشعوب (ترجمة بالاشتراك) ، الاشتراكية والاسلام ، محمود سامي البارودي ، خريدة القصر وجريدة العصر للأصفهاني (تحقيق) الخ .

عبد العزيز الدسوقي نقد الشعر العربي الحديث

أثار صدور كتاب (جماعة أبولو وأثرها في الشعر الحديث) دويًا وضجة ، ربما لم يكن أحد يتوقع حدوثها لبعد الشقة بيننا وبين قيام هذه الجماعة منذ ربع قرن . ولكن مهما كانت هذه الجماعة المتنوعة الأغراض في فنون الشعر ، والتي جمعها رائد قوي الشخصية ، عرف بالبراعة واللباقة والقدرة على كسب صداقات المريدين والشعراء في محيط الشعر ، هو الدكتور أحمد زكي أبو شادي . مهما كانت هذه الجماعة قد طوت لواءها ، فإن روادها ما زالوا أحياء ، ينتجون وينظمون ، وإن تكن هذه الجماعة قد قطعت شوطاً في مرحلة الحياة ثلاث سنوات فلإنها ما تزال — كمرحلة عريضة في تاريخ أدبنا المعاصر — تؤثر تأثيراً واضحاً في محيط الشعر المعاصر .

وقد استطاع « عبد العزيز الدسوقي » بكتابه أن يرسم صورة عميقة خصبة ، لهذه الفترة القصيرة في عمر الأحداث الأدبية والتاريخية ، البعيدة المدى في تطور الشعر العربي ومضمونه ومدارسه وتياراته المختلفة . فقد استطاعت جماعة أبولو أن تجمع هذه المدارس والتيارات في محيط واحد ، على الرغم من اختلاف ألوانها

ومذاهبها ، وأن تشكل منها صورة من صور النهضة التاريخية التي يحفل بها تاريخ الأدب العربي .

ففي ظل جماعة أبولو ومجلتها ، أتيح لعدد كبير من الشعراء أن ينشروا إنتاجهم ويخرجوا دواوينهم الى النور ، فتلعب أسماءهم ، وبذلك أتيح لكثير من المعمرين أن تتكشف كفاياتهم وتبرز ، وتأخذ مكانها في مجرى ذلك النهر الشعري الممتد الحافل بالحياة والتطور .

ولم يقف عمل عبد العزيز الدسوقي عند جماعة أبولو وحدها ، كما يبدو من عنوان مؤلفه الضخم ، الذي هو في الأصل رسالة الماجستير في معهد الدراسات العربية بالقاهرة . وإنما أفرغ المؤلف الذي هو في الأصل شاعر أيضاً له لون ومذهب وطريقة ، أفرغ خلاصة دراساته للشعر العربي المعاصر ، منذ فجر نهضته المسماة بحركة البعث بزعامة (محمود سامي البارودي) ، ثم تعرض لميلاد شعر شوقي وحافظ باعتبارهما أكبر رواد هذه المدرسة .

وتدرج الى بحث حركة التجديد في تيارها الموضوعي ، الذي قاده خليل مطران ، وفي تيارها الذاتي الذي قاده شكري والعقاد والمازني وهو الفريق المسمى بجماعة الديوان ، وفي تيارها الروماني الذي قاده شعراء المهجر .. ثم خلص من ذلك الى حركة أبولو .. فتوسع في عرضها .

ولعل أبرز ما يلفت النظر في هذه الدراسة الجامعة ، موقف الكاتب من خليل مطران ومن زكي أبو شادي .

فالدسوقي يرى أن خليل مطران من أوائل دعاة التجديد في الشعر العربي الحديث ، ولأن أبو شادي صاحب جماعة أبولو قد اعترف صراحة بأنه تأثر بخليل مطران ، كما تأثر به علي محمود طه وناجي . ولكنه يقرر أن خليل مطران ليس قائد حركة التجديد التي ظهرت في الشعر العربي المعاصر ، والتي تبلورت في حركة الديوان ، وجماعة أبولو ، وفي حركة شعر المهجر . وأن الذي أثر

تأثيراً مباشراً في حركة التجديد هذه إنما هي جماعة الديوان ، ممثلة في شعر عبد الرحمن شكري وتعاليم وأبحاث عباس العقاد وإبراهيم المازني .

ويرى أن هذه الجماعة هي التي حملت راية التجديد في مطلع القرن العشرين ، ووقفت في وجه الحركة التقليدية العاتية ، التي كانت تحتل المكان الأول في الأمة العربية ، بقوة موسيقاها وجمال صياغتها .

وهو في هذا يخالف غالبية النقاد ومؤرخي الادب ، الذين يجمعون على أن مطران هو قائد حركة التجديد في الشعر العربي المعاصر . ويرى أن السبب الذي دعا الى أن يردد النقاد هذا الرأي ، هو دماءة خلق مطران ولين جانبه ، وأصاليته النفسية . ويرى أن التطاحن بين الأدباء والشعراء ، والصراع الذي وصل الى درجة التناؤذ والاقتنال الحاد الغنيف ، هو الذي جعل النقاد والشعراء الجدد يلوذون بكنف مطران الرقيق المذهب ، يعتقدون له لواء التجديد ، ناثين بأنفسهم عن ضراوة القتال بين شوقي والعقاد والمازني وشكري . ويحاول الكاتب أن يؤكد نقضه لزعامه مطران فيقول : أن مطران عاش في مصر على الحماؤ بين التيارات السياسية والاجتماعية المتلاطمة ليرضي الجميع . وأنه لم يستجب لظروف الحياة السياسية والاجتماعية كما استجاب لها شكري والعقاد والمازني ، فوقف عند حد محدود استوحاه من ثقافته وطبيعة نفسه وظروف حياته . وأنه ظل حذراً في تجديده ولم يحاول الخروج دفعة واحدة على تعاليم الحركة التقليدية ، ولم يحاول أن يفاجئ السليفة العربية في صراحة وجراءة .

وعندي أن مطران رائد من رواد التجديد لا شك في ذلك ، وقد تأثر به زعيم مدرسة أبولو وبعض شعرائها ، وأنه بدأ دعوته قبل أن تبدأ جماعة الديوان التي مكنتها العمل في الصحافة والسيطرة على النشر ، من إذاعة آرائها ، وتوسيع نطاق دعوتها .

ويمكن القول بأن مطران الراءد المجدد لم يكن قائد حركة لها صحيفة أو ناد أو جماعة ، تفرض رأيها بالكتابة والخطابة ودعوة الشعراء وكسب الأنصار ،

وهذا هو الفارق بين خليل مطران من ناحية ، وبين جماعة الديوان وجماعة أبولو من ناحية أخرى .

أما أبو شادي رأس مدرسة أبولو ، فإن الدسوقي يقول : « بأن أحداث حياته قضت بأن يظل قلقاً مضطرب النفس والأعصاب ، لا يستقر عند شيء ولهذا أصيب باضطراب في عملية الخلق الشعري . تقرأ قصيدته فتجد فيها المعاني الجديدة والألفاظ الجميلة ، ولكن تشعر بأن هناك شيء ينقصها ، هذا الشيء هو جوهر الشعر الذي يكسبها الإنفعال العميق والقدرة على التأثير ، وقد تكون سرعته هي التي تجعله يخرج تجاربه في عجلة دون أن يحتضنها ، وقد يكون اضطرابه العصبي قد أفقده التركيز الفني ، والإحساس المرهف الذي يدرك النسب الدقيقة ، والعلاقات الخفية بين الألفاظ والمعاني ، وهذا هو العيب الرئيسي في شعره ، الذي جعل بعض تراكيبه الشعرية قلقة مستوفزة ، تحس أنها في غير موضعها ، وأنه يضطر أحياناً الى حشد بعض الألفاظ لا تتلاءم مع الصورة التي يرسمها ، كما يضع كلمة تقتضيها القافية دون أن يكون لها محل ، فتفقد البيت كله الحرارة والإيجاء ، وأنه يتبع كل الرخص اللغوية ، وأحياناً يخرج عن قواعد اللغة دون داع فني » . ولكنه يرى أن هذه العيوب لا تغض من قيمة أبو شادي ومنزلته الشعرية ، كرائد من رواد التجديد تجمعت له الثقافة النقدية الواسعة والمقدرة الشعرية .

« وعندي أن أبو شادي زعيم حركة أكثر منه شاعر . وأنه ناقد رقيق اللفظ والعبارة في النثر بما يفوق مكانته كشاعر .. وأعتقد أن دراسة أبو شادي النثر ، لو أتيت لباحث لكانت أبعد أثراً في حياة الفكر العربي الحديث من دراسة شعره ، فهي الجانب الضخم الخفي الجدير بالتقدير » .

ولقد كانت دراسة جماعة أبولو كفيلاً بأن تكون دراسة للشعر العربي المعاصر كله . فإن شعراء مصر والأمة العربية قد اتقوا جميعاً في ورد هذه المجلة الشعرية الأولى التي أطلق عليها زعيم الجماعة اسم إلهة الشعر والحكمة

اليونانية . فشعراؤنا المعاصرون اليوم كانوا جميعاً ينشرون آثارهم في هذه المجلة على اختلاف مذاهبهم بين موضوعية وذاتية. وتباين نزعاتهم بين عاطفية وتأميلية ووصفية واجتماعية وإنسانية .

وقد امتد رواق الجماعة الى تونس والسودان وفلسطين والمهجر والعراق ، فنشرت لعدد من شعراء هذه الأقطار ونشرت شعر ابو القاسم الشابي وعرفت به لأول مرة ..

وقد شملت الدراسة عرضاً لحياة وآراء ونماذج لأكثر من مائة شاعر ، حتى يمكن القول بأن هذه الدراسة تعد مبحثاً متكاملًا للشعر العربي الحديث ، ومرجعاً كاملاً لكل تيارات الحصاد الشعري ، والنقد الشعري ، وأساليبه وفنونه ومدارسه ، خلال فترة نصف قرن كامل . فما من شاعر إلا وقد ورد اسمه ونموذج من شعره في تيار من هذه التيارات . وما من بحث عن الشعر أو نقد له الا وقد عرض له المؤلف في مجال دراسته الواسعة المتشعبة ، التي امتدت أربع سنوات من حياة كاتبها ، وليس ينقص من قدر هذه الدراسة أنها كانت رسالة جامعية أو أطروحة ماجستير ، فإنه مهما تكن نظم الرسائل مقيدة لرأي الكاتب ضمن إطار معين ، أو تحت إشراف رقابة محدودة . فإن رسالة الدسوقي قد تميزت بالجرأة والوضوح والصرامة .

ولعل السر فيما تلقاه هذه الدراسة من اعتبار ، أنها ليست العمل الأول لكاتبها ، الذي أسهم في الدراسات والأبحاث الأدبية والعمل الصحفي ، منذ أكثر من خمسة عشر عاماً ، بإنتاج منوع في المقالة السياسية والأدبية ، وأبحاث القومية العربية ، وبحصاد ديوانين من الشعر . ولا شك أن عبد العزيز الدسوقي هو واحد من رعييل الشعراء الذي تأثر بمدرسة أبولو وجاء من بعدها ، ورغم هذا فإن أحكامه قد تميزت بالانصاف والصرامة والبعد عن المجاملة .

ومما يتصل بهذا أن المؤلف شاب في مستهل العقد الرابع من عمره ، بدأ دراسته في الأزهر حتى حصل على أعلى درجاته . واتصل خلال ذلك بالبيئات

الوطنية التي كانت تعمل قبل ثورة ١٩٥٢ المصرية العربية لتحرير مصر ، وكان في نفس الخط الذي يؤمن بالقومية العربية وأبجداد الأمة العربية ، كما اتصل بالثقافة العربية عن طريق دراسته الجامعية في معهد الدراسات ، وقراءته المتصلة ، وقد أعانه هذا على أن يكون واحداً من المدرسة الوسطى ، التي تؤمن بالبناء على الأساس ، والتي تفتح النوافذ للثقافات المختلفة ، لتأخذ منها ما يزيد شخصيتها العربية الواضحة الملامح قوة وحياء وأصالة ، بحيث تلحق دائماً بركب الحضارة ، دون أن تضيق في موكبها الضخم . ولذلك فهو قد اتجه الى أساليب الأدب الغربي ومذاهبه ، فأوغل في دراستها بالإضافة الى أصالته في الثقافة العربية وأبحاث اللغة وعلوم اللسان ، حتى تكون له ذلك المزاج الثقافي ، الذي قلّ أن يتوفر للباحثين الذين هم إما غربيون خالصون أو محافظون مسرفون . مما أتاح له أن يقف من تراثنا الفكري الحديث والقديم موقف النقد والمراجعة ، وفق منهج علمي واضح المعالم ، فيه جرأة الشباب ، وعمق النزعة الأزهرية ، ووضوح الاتجاه الفكري المعاصر .

● عبد العزيز الدسوقي : من خريجي الأزهر الشريف ، ماجستير من معهد الدراسات العربية
من مؤلفاته : المؤتمر الوطني للقوى الشعبية ، إقرار الميثاق والتنظيم الشعبي .
(أحمد حسين - ١٩٥١) ، فجر العرب ، الأمة العربية وجيشها
الموحد ، جماعة أمبولو وأثرها في الشعر الحديث ١٩٦٠ .

عبد الله كنون تراجيم أعلام المغرب

ما يزال المغرب الكبير يزحف في قوة نافذة لتعويض ما فاتته طوال السنوات الماضية في ظل النفوذ الأجنبي ، وليستعيد مكانه مع جناح المشرق العربي في عالم الفكر والآداب والثقافة على نحو واضح حقاً ، مثير حقاً ، فالمطابع في القاهرة وبירות وتونس والرباط وطرابلس والجزائر مشغولة دائماً في هذه الأيام بهذا النتاج الثري القوي ، وأسماء عبدالله كنون ومحمد علي ديوز وأبو القاسم كرو وعلي المصراقي في الأقطار الأربعة : المغرب والجزائر وتونس وليبيا ، وعشرات أخرى من الأسماء تلمع وتزداد قوة ، ولا تتوقف عن تقديم الجديد في مجال الكشف عن التراث القديم ، والأثر الخفي وتحليل جوانب التاريخ ، وإبراز مجد الأمة ، ورسم صور البطولات العربية الاسلامية التي برزت خلال العصور ، وتغطية جوانب النقص في مجالات الفكر والتاريخ والآداب على نحو يلفت النظر حقاً ، ويستدعي التقدير والاعجاب ، ويفرض على الباحث الناقد أن يرقب الظاهرة الجديدة لدرسها والمضي معها . ولست حين أذكر هؤلاء الأعلام الأربعة ، أقف عندهم ، ففي هذه الأقطار أعلام كثيرون وكتاب ونقاد ومؤرخون ،

ولكني أجد في هؤلاء العمل المتصل بحيث لا تنسى أسماؤهم ، وبحيث يتجدد الكلام دائماً عن آثارهم ، وبما يمثلونه من طابع واضح الاتجاه نحو الكشف عن الجوانب الغامضة وإبراز الزوايا المجهولة وإحياء القطاعات التي طال عليها الأمد.

* * *

والأستاذ العلامة « عبدالله كنون » اسم لامع في المشرق والمغرب جميعاً، وله في المشرق مكانة كبرى ، فقد طوّف به واتصل بمعاهده وأعلامه ومفكريه ، وانتسب الى مجعته العظميين في دمشق والقاهرة ، وطبع مؤلفاته في بيروت ، وهو ما يزال منذ أكثر من ثلاثين عاماً يسهم مساهمة فعالة في نشر الثقافة العربية على نحو رصين ، قوامه الفهم الصادق والتقدير العميق لقضايا الإحياء والترجمة والنقل والاقتباس من الفكر الانساني ، على قاعدة مبسطة ثابتة من الثقافة العربية الأساسية ، ومع إيمان كامل بشخصيتنا أساساً وبكل مقوماتها، ولعل هذا « الوجه الأول » الذي التقينا به على صفحات الرسالة منذ عشرين عاماً، يكشف لنا تراث المغرب وأقطاره وأعلامه ، ولم يحل النفوذ الأجنبي يوماً دون أن يكتب وينشر وتصدر كتبه ، ويوالي عمله في مجالات واسعة ، مواجهاً مختلف التحديات ، في وقت كان النفوذ الأجنبي يصنع بيننا وبين هذا الجزء من أمتنا العربية ستاراً كثيفاً ، فكانت أبحاثه أنواراً كاشفة ، وكان ارتباطاً (طنجة) بالقاهرة عن طريق (الرسالة) جزء من الدعوة العربية للوحدة والحرية . ولعل هذا يسجل فضل السبق في عملية ربط المغرب بالشرق ، وتعريف المشرق الى المغرب سائراً في ذلك على هدي صفوة من الأعلام أمثال عبد العزيز الثعالبي ، ومحمد بيرم الخامس ، وعلال الفاسي والبشير الإبراهيمي .

وهو يرى أن رسالة الأدب العربي رسالة خالدة ، يجب أن لا تقتصر على الأغراض اللفظية ، ولا على المتعة الذهنية ، ولا على المعاني الذاتية ، التي لا يشعر بها إلا الأديب المتكلم عن نفسه ، ومهمته الهدم والبناء والعمل الجماعي المؤدي

الى الغاية ، وغايته فتح الآذان الصم والأعين العمي والقلوب الغلف . وقد وجه نفسه منذ شبابه الى ميادين ثلاثة :

أولاً : التمهيد والتمكين للغة الضاد وآدابها ، خشية أن تجرفها الرطانات الأجنبية .

ثانياً : الكشف عن ذخائر التراث القديم من آداب وعلوم وجوانب باهرة ويمثل ذلك في كتابه « النبوغ المغربي » .

ثالثاً : دراسة أعلام المغرب ، الذين كانوا ذوي أثر باهر في الحضارة العربية .

وفي هذا المجال الأخير يبدو عمله الكبير (ذكريات مشاهير رجال المغرب) ، وهي حلقات صغيرة منفصلة ، يتناول كل منها شخصية ، وقد أصدر منه ٢٥ جزءاً ، ثم توقف خمس سنوات ، وعاد في العام الماضي الى إصدار أجزاء جديدة في طباعة بيروت الأنيقة ، وقد تناولت هذه الدراسات من المعروفين في المشرق أمثال : الشريف الإدريسي ، وابن بطوطة . ومن الذين نتعرف اليهم أمثال : عبد العزيز القشتالي ، وأبو القاسم الزياتي ، ومحمد بن ادريس ، ومحمد السنوسي ، وبو جعفر بن عطية ، وأبو العباس الجرادي ، وميمون الخطابي ، ومالك بن المرحل ، وعبد العزيز المازوزي ، والأمير سليمان الموحد ، وعثمان السلاجلي ، وابن غازي وابن زاكور ، وابن الطبيب العلمي ، وابن الوتان ، وابو عبدوس المكناسي ، وأبو بكر ابن شيرين ، وابن رشيد ، وأبو موسى الجزولي ، وابن جروم ، وأبو القاسم الشريف ، وابو الحاج القاسي ، وأحمد زروق ، وعبد المهيمن الحضرمي ، وأبو العباس العزقي .

ولهؤلاء الأعلام تاريخ باهر وعمل كبير في حياة المغرب الثقافية والحضارية .. وقد كانت أسماؤهم مدفونة في الأضياع . ولا يعرف عنهم الناس الا القليل ، فأراد « كنون » أن يذيعهم ويطلع الناس على فضلهم ، كجزء من خطة ضخمة في سبيل الإحياء الأدبي والثقافي للتراث العربي الإسلامي .

وقد وصف هذه الشخصيات بأنها « الشخصيات التي كان لها أثر محسوس في هذا الصراع الحيوي ، والتي فازت بإكليل الغار فبقي ذكرها محفوظاً في الدفاتر وإن حي من صدور الناس الا قليلاً من قليل » . وتعتبر هذه الدراسات تكملة لعمله في كتاب النبوغ المغربي ، الذي قدم فيه طائفة من أعلام الأدب المغربي العربي ، يقول : « وبعد كتابة (النبوغ) بقيت في النفس حاجات متعلقة بتراجم الأشخاص المذكورين فيه ، خصوصاً المشهورين منهم ، والذين يوحى تتبع تراجمهم بمعاني من السمو النفسي والفخر الأدبي » .

وهو لا يعد هذه الدراسة القصيرة ، تراجم علمية لهؤلاء الاشخاص قائمة على التحليل ، ومستوفية الأغراض الواجبة ، « لان المصادر تعوزنا كثيراً ، وما جمعنا من الأخبار والآثار على كونه أكثر مما جمعه أي ديوان عن هؤلاء الأفراد ، ومنهم من لم يكن أحد يعرف أنه مغربي أصلاً وأنه لا يكفي لكتابة ترجمة حياة لواحد منهم ، ولهذا دعونا الكتاب (ذكريات مشهوري المغرب) ، ولم ندعه (تراجم) على سلاسة العبارة ، وطلاوة الأسلوب ، وحرارة النكتة ، واستثارة روح الإعجاب ، مع الأمانة والصدق ، وعدم الغلو في مدح أو تقدير شيء من الأشياء » . وهذه (الذكريات) طبقات مختلفة : منها أهل الأدب ، ورجال العلم والسياسة ، وقد رتب أسماءها على العصور ، ثم على التقديمية ، وتناول فيه أشهر المشهورين ، والشهرة عنده هي : « شهرة المرء في عصره بالصفة التي ميزته عن غيره ، لا شهرته عندنا . فقد يكون الشخص غير معروف عندنا بالمرء ، ونذكره ، وبالعكس قد يكون مشهوراً لدينا ولا يستحق الذكر هنا ، لتخلف الموازين في عصرنا عنها في العصور السابقة ، بسبب ضعف ملكة النقد ومرض الذوق وقعود الناس عن التحصيل » . ولا شك أن هذه الموسوعة جديرة بالتقدير حقاً ، ككل أعمال السيد عبد الله كنون ، هذه الأعمال التي نالت تقدير المفكرين وكبار المنصفين ، وآية ذلك رأي أمير البيان « شكيب أرسلان » حين قال عن كتابه النبوغ : « كنت أعهد نفسي من المشاركة الرجل الذي اطلع أكثر من غيره على تاريخ المغرب وأهله ، وأنعم النظر فيما يتعلق بثقافته وسياسته

وسائر شئونه ، ولكنني رأيت نفسي بعد أن طالعت هذا الكتاب كأني لم أعلم عن المغرب قليلاً ولا كثيراً ، وكدت أقول أن من لم يطلع على هذا الكتاب لا حق له أن يدعي في تاريخ المغرب الأدبي علماً ، ولا أن يصدر في حركاته الفكرية حكماً .

وعبدالله كنون مؤمن إيماناً صادقاً بالأمة العربية والمغرب وكفاحه « كأحد الشعوب العربية الاسلامية ، التي أثلت مجداً وحضارة ، وضربت بسهم وافر فائز في ميدان العلم والسياسة ، ثم تعدت به الحدود العوثر في مجارة الاحياء وسنن الكون ، فوجب تنبيهه الى ما كان له من عز وكال ، ونفخ روح الحفاظ والحمية فيه . وقد بذل المغرب جهداً في سبيل إثبات شخصيته والحفاظة على كيانه امام المؤثرات القوية التي حاولت مراراً أن تمحوه من صحيفة الوجود ..

ويتحدث عبدالله كنون عن تطور فكره فيقول : أنه لا يستنكف أن يصرح بأنه - أي نفسه - أعد إعداداً ليكون من الفقهاء الذين يحكون ويفتون ، ولذلك فهو قد جعل من قول القاضي شعبه نبزاً له « كل علم ليس فيه حدثنا وأخبرنا فهو خل وبقل » يقول : « ما عالجناه منذ فجر النهضة التعليمية بهذا الوطن العزيز كان (التمهيد) والتمكين للغة الضاد وآدابها ، خشية أن تجرفها الرطانات الأجنبية المختلفة ، وأسجل أن دراساتي الفقهية والحديثية قد أفادتني كثيراً من الناحية الأدبية ، وأني لاحظت مأخذ كثيرة على آثار بعض الأدباء ، إنما جائتهم من عدم إلمامهم بشيء من تلك الدراسات .

وهو من المؤمنين باللغة العربية « التي تتسع اليوم لكل الأفكار الحديثة من فلسفية واجتماعية وعلمية وفنية تؤدها بكل وضوح » . وقد تأثر بكتابات عبد الحميد بن باديس التي وصفها بأنها . « كان لها كبير الأثر في توجيهي وإفارة الطريق أمامي الى كثير من الخير » . ويرى أن مؤلفات محمد عبده ، وفريد وجدي ، ورشيد رضا ، ومصطفى الغلاييني ، ورفيق العظم ، وكرد علي ، كان لها نفس الأثر .

وقد وجه نفسه منذ مطالع شبابه الى دراسة الجوانب الغامضة والمهمة من

من تاريخ الأندلس والمغرب ، وتحليل الشخصيات التي كان لها أثر واضح في أدب المغرب ، كما اهتم بالأبحاث اللغوية ، والعامية المغربية ، وجامعة القرويين ، وكتب عن أثر محمد عبده والكواكبي وأحمد زكي باشا والرافعي والمني ، كما كتب عن تحرير المرأة ودعا الى تعليمها ، وعني بالتصحيفات اللغوية ، وإحياء الكلمات ، وتحقيق الوقائع التاريخية ، كما تحدث عن المخطوطات العربية والكتب المنسوبة لغير أصحابها ..

وبالجملة فإن فضل عبدالله كنون على الأدب العربي المعاصر واضح جلي ، وإن أعماله الأدبية والفكرية : (خل وبقل ، التعاشيب ، واحة الفكر) هي مجموعة من المقالات المتنوعة تناولت عديداً من الدراسات الأدبية . وله كتاب (التحقيقات) الذي أعلن عنه منذ وقت طويل ، ولم يصدر بعد ، وقد درس فيه مجموعة أخرى من أعلام المغرب ، غير التي قدمها في كتابه الضخم (النبوغ) ، وموسوعة الذكريات ، والأمل أن يصدر قريباً ليستكمل حلقة هذا العمل الكبير النافع .

● عبدالله كنون : أمين عام جمعية العلماء بالمغرب .

من مؤلفاته في دار الكتب المصرية : النبوغ المغربي ، سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب ، ديوان ملك غرناطة (تحقيق) ، رسائل سعدية ، مفاهيم إسلامية ، واحة الفكر ، مدخل الى تاريخ المغرب ، من أدبنا الشعبي ، التعاشيب ، خل وبقل .

عز الدين الأمين دراسات النقد الأدبي

تعددت الأبحاث والدراسات التي تتناول فن النقد الأدبي الحديث ، غير أن تاريخ نشأة هذا الفن وتطوره لم تكن موضع دراسة مطولة مستقلة ، حتى كتب الأستاذ عز الدين الأمين كتابه الذي ألقى فيه الأضواء على تطور النقد في الأدب العربي المصري ، منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي الى نهاية الربع الأول من القرن العشرين (١٩٢٥ تقريباً) .

ويرى المؤلف أن هذه الفترة كافية لتحديد أسس النقد الحديث عند نشأته في مرحلتيه ، (١) المرحلة الأولى : وهي النقد القديم ، كما يتمثل عند حسين المرصفي ، وحمزة فتح الله ، وعبد المولحي ، وسيد المرصفي (٢) المرحلة الثانية : عندما نشأ النقد الحديث ، ممثلاً في كتابات الراجعي ، ونلينو ، والمعقاد ، والمازني ، وطه حسين ، وهيكمل ، وزكي مبارك ، وأحمد ضيف .

وقد قصد المؤلف الى أن يكشف عن نشأة فن النقد وميلاده في العالم العربي . وعنده أن بيان هذه المقاييس الأولى من شأنه أن يهدي الأدباء المثقفين ، بما يرسم لهم من أصول وقواعد ، ينبغي أن يتنبهوا لها حين ينشئون أو ينقدون .

ومنها أن تاريخ الأدب ينتفع بتاريخ النقد نفسه ، إذ أن النقد وسيلة من وسائل التاريخ الأدبي وتطور فنونه . وكذلك بيان قيمة كل من شارك في بناء هذا الصرح الضخم من فن النقد الحديث . وكذلك الموازنة بين النقد القديم كما انتهى في مطلع القرن العشرين ، وبين هذا النقد الحديث ، وكيف اختلفت الاتجاهات والوسائل ، إذ هما عصران متمايزان يمثلان فترتين من فترات الحضارة العقلية والشعورية والجمالية .

والمؤلف عز الدين الأمين من ألمع الشباب السودا في المثقف ، الذي يلي اليوم عملاً متصدراً قوي الدلالة في النهضة الأدبية السودانية ، فهو رئيس جماعة الأدب المتجدد في مؤتمر الخريجين ، وهو من المؤمنين بوحدة الأدب العربي في العالم العربي . وقد أتاح كتابه هذا أن يكشف الطريق أمام جوانب كثيرة من فنون الدراسة الأدبية المعاصرة . وهو يستخلص من بحثه أن النقد الأدبي الحديث قد اتجه في جلته نحو النقد الغربي ، وخاصة النقد الإنجليزى والنقد الفرنسي ، فأصبح لا يقيس الأدب من ناحية عامة إلا بتلك المقاييس الغربية .

وعنده أن هذه المقاييس الغربية لا يجوز الأخذ بها على إطلاقها ، نظراً لاختلاف طبيعة أدبنا العربي عن هذه الآداب . وعنده أن التقليد المسرف للنقد الغربي لا شك يضعف اللغة العربية ، ويضعف أدبها ، وإن كان نقدنا قد استفاد من النقد الأجنبي كثيراً من هذه المباحث ، في الخيال ، والعاطفة ، ودراسة الشخصية ، والبيئة ، والعصر ، ووحدة القصيدة . وقد كان هذا التطور في النقد واضحاً ، بعد أن كان النقد القديم يعتمد على وحدة البيت ويحتزى الأحكام ويتعجلها ويمعمها .

وعنده أن النقاد المحدثين قد ذهبوا في النقد مذهبين رئيسيين ، تبعاً لثقافة كل منهما ، سواء كانت ثقافة عربية أم ثقافة غربية ، وجملة القول أن المدرسة القديمة كانت تعنى بالنقد اللغوي ، كما كان يفعل نقاد العرب القدماء ، فتحفل بالصيغ والألفاظ والنواحي البلاغية . أما المدرسة الحديثة فتعنى بالتجربة

الشعرية ، والصياغة الفنية ، وينصب نقدها على الناحية الموضوعية ، وتنتهج نهجاً غريباً في نقدها ، ولا تهمل العناية بالنقد الفقهي .

وجملة القول أن كتاب الأستاذ عز الدين الأمين كان عملاً جديداً نافعاً يعين الباحث في مجال تطور النقد ، والذي نطالب به الكاتب هو أن يواصل دراسته منذ توقف عند عام ١٩٢٥ حتى يصل بها الى مرحلة أوسع ، حيث استكمل هؤلاء النقاد أبحاثهم ، وتطور فن النقد معهم تطوراً له ملامح جديدة .

وحبذا لو عني بدراسات النقد للمعاصرين في المراحل الاولى ، كالمعارك التي أثارها طه حسين قبل سفره الى أوروبا مع المنفلوطي ، وآراء الرافعي ، والمنفلوطي ، وشكيب أرسلان في الشعراء والكتّاب ، وهي الآراء التي أثارت ضجة في أول هذا القرن .

وعز الدين الأمين رائد من رواد الأدب العربي المعاصر في السودان ، ورئيس جماعة « الأدب المتجدد » وهو كاتب ناب ، استطاع أن يثقي طريقه بقوة في مجال الدراسات الأدبية المعاصرة ، فألف عدداً من الأبحاث والكتب والدراسات ، اتسمت جميعها بالدقة والأصالة ..

● عز الدين الأمين : الأستاذ بجامعة الخرطوم ، ورئيس جماعة الأدب المتجدد .

من أبرز مؤلفاته : مسائل في النقد ، نظرية الفن المتجدد وتطبيقها على الشعر ، نشأة النقد الأدبي الحديث في مصر .

علي أدهم الترجمة والدراسات الإنسانية

قلّة هؤلاء الكتاب الذين مضوا يشقون طريقهم دون جلبّة أو ضواء ، أو مشاركة في معارك أو مساجلات ، أو تطلّعاً الى شهرة أو مال ، أولئك الذين خطوا لأنفسهم طريقاً عاشوا يعمقونه ، وقدموا الى الفكر العربي خلال أكثر من أربعين عاماً أو يزيد ، حصيلة ضخمة من النتاج الحصيلب الثر ، من هذه القلّة : « علي أدهم » الرجل الذي أغنى الأدب العربي المعاصر ، بأضواء الفكر الانساني في مختلف نتائجه وفنونه وأعلامه وقضاياها ، حتى ليكاد إنتاجه وحده أن يكون موسوعة ضخمة يتوافر لمن يلم بها دراسة واسعة عميقة ، لمختلف تيارات الفكر العالمي المعاصر ، معروضة في أسلوب عربي رصين وعلى نحو علمي دقيق ، وهي خلاصة دراسة متصلة دقيقة لكل ما تصدره المطابع ، أو تتناوله أقلام المفكرين والباحثين ، مع سلامة القصد والحيدة في العرض والايان بمقومات الفكر العربي الأساسية ، ولمسام دقيق بالتراث العربي الإسلامي والتاريخ والأدب واللغة ، على نحو لا يستطيع أن ترجح فيه أن المفكر يبدو أشد تبرزاً وأصاله في فكره العربي الذي يقدم له هذا الفكر الانساني ، أم في ذلك الفكر الانساني المتنوع الذي يهضمه في يسر ويقدمه في براعة ، دون أن يتحول

معه الى التبعية أو الولاء ، إنما ولاء « علي أدم » هو لأتمته ولفكرها ، إيماناً منه بفتح النوافذ على الثقافات الانسانية ، وإغناء الفكر العربي وإثرائه على قاعدة الاقتناص والاقتباس ، لا التحول والانصهار في الثقافات الأمية .

والذين يعتمدون في دراسة أدب علي أدم على آثاره المطبوعة ، لا يصلون الى نظرية كاملة عن فكره وأدبه وتطوره . فقد عدت الى بطاقاته في دار الكتب المصرية في القاهرة ، فوجدت له مجموعة من المؤلفات لا تكاد تمثل حقاً آثاره التي قدمها خلال السنوات الطويلة الى المثقفين العرب ، والتي لا تزال مدفونة في بطون الصحف والمجلات .

ولعلي أذكر ان اول ما قرأت عام ١٩٢٠ كان منشوراً في جريدة الدستور التي كان يصدرها العلامة فريد وجدي ، ومنذ الثلاثينات بدأت آثاره تظهر في :

الهلال ، الثقافة ، الرابطة الاسلامية ، وفي السنوات الاخيرة في مجلة المهلة ، والكتاب العربي .

ولا أبالغ إذا قلت أن له في الهلال والثقافة ما يزيد على ٥٠٠ مقال . وقد كتب في الثقافة وحدها من (١٩٤٠ - ١٩٥٢) أكثر من ٤٠٠ مقال ، ولم تنسق من هذه المقالات إلا قلة قليلة في مؤلفاته ، وما زال أغلبها لم يحظ بأن يقدم للمثقف العربي .

ومن خلال هذه الحصيلة نستطيع أن نرى « عقل » علي أدم ، وهو ينطلق من خلال دراسات متنوعة ، تتصل بمختلف فنون الفكر الانساني : فالأبطال والبطولة ، والجبرية الاجتماعية ، وإحتمالات التاريخ ، والتراجم الذاتية ، والروايات التاريخية ، وعلاقة التاريخ بالأدب ، والأخلاق بالسياسة ، والقومية ، والأمية ، والوحدة الانسانية ، والشك ، وسفر أيوب ، وأفكار غاندي ، وتولستوي ، والدوس هسكلي ، وشوبنهاور ، وهيني ، وجيتي ، وكارليل ، وأمرسون ، ودراسة مصادر التاريخ الاسلامي ومؤرخيهم ، والنواحي

الانسانية ، وقضايا التاريخ ، وكتب الأدب العربي وكتّابهم وشعرائهم ، كل هذا يلم به علي أدهم في دراسات جادة عقلية ، قائمة على النظرة الذهنية والعلمية ، مما لا يقع تحت حصر ، وما يظلم على أدهم ظلماً كثيراً اذا درست آرائه من خلال بضعة عشر مؤلفاً طبعت له . وندهش لأن تظل هذه الآثار مخبوءة في المجلات دون أن تقدم من جديد الى المثقفين .

ومن عجب أنك اذا أردت أن تبحث حياة (علي أدهم) وفكره ، فانت لا تستطيع أن تعثر على أثر ذاتي له ، فهو كاتب يواجهك بعقله ، ويعرض عليك عشرات من نظريات الفلسفة والعلم والتاريخ في القديم والجديد ، دون أن يتحدث عن نفسه .

صحيح أن هذه الآراء تعطي صورة نفس الكاتب ، فالتجاهات الكاتب ومفاهيمه تظهر حتى من خلال مقتطفاته أو نقوله ، غير أن إنكار الذات بلغ بالعلامة علي أدهم الى حد أن المراجع لكتابات لا يستطيع أن يحصل من آثاره على طابع حياته أو أفكاره الخاصة ، أما منه هو ، فإن ذلك عسير غاية العسر .

فهو مفكر مؤمن بعقله وبالفكر الانساني ، يتابع خلال أكثر من خمسين عاماً تطورات العلوم والآداب والثقافة ، ملم بالنزعات والقضايا المختلفة ، قارئ مثابر للإنتاج العالمي ، واسع الأفق ، حر الفكر ، ولكنه مؤمن بأمنه وفكرها ، حريص على أن يقدم لها زاداً جديداً ، يزيدها قوة ، له قاعدة عريضة هي مقومات الفكر العربي الاسلامي ، الذي هو بطبعه فكر إنساني .

أما دراساته في التاريخ الاسلامي والأدب العربي فهي واسعة ، وله استشادات دائمة بالشعر والوقائع ، فهو ليس منحازاً ، ولكنه يسكب القديم والجديد في إناء « النهضة » ويذيبه لخلق فكر عربي حديث ، لا ينفصل عن جذوره وتراثه ، ولكنه يستشرف دائماً الجديد والتطور والركب الانساني .

* * *

ولقد استطعت أن أجِد بعد البحث الطويل رسالة كتبها « علي أدم »
ووجهها الى أحد تلاميذه ، تحقق رغبتى في النظر الى باطنه والكشف عن
أعماقه ، والتعرف اليه معرفة ذاتية بعيداً عن دراساته وأبحاثه ، ومن خلال
هذه الرسالة أرى (علي أدم) الإنسان في صفاء روحه ، ولقد أمدته الثقافة
بمزيد من الانصقال والتعمق لطوابعه العربية الاسلامية ، وخير ما تمدني به هذه
الرسالة أن أكتشف منها تلك العوامل التي وجهت ذلك الرجل الذي يغلب عليه
طبعه في إثارة العزلة والانصراف عن أحداث الضجيج أو طلب الشهرة ، مع
مشاركة عجيبة في الدراسة والبحث والعمل ، كأنما هذا العمل لذّة ذاتية له ،
ويجري هذا مع رجل عرف الأستاذ العقاد وقرأ له وعُدّ فترة من الزمن من
تلاميذه . وهنا يتجلى طابع الاستقلال والذاتية الواضحة في العناصر التي تجمع
بينه وبين العقاد ، والعناصر التي يختلفان فيها . فهو من ناحية الدرس والبحث
والقراءة والاتصال بالفكر الإنساني ومواصلة متابعة تطوراته الاخرى من الرغبة
عن عوامل الشهرة والضجيج ودخول المعارك والتبريز يختلف عنه .

وهذه رسالة « علي أدم » تلقي ضوءاً على مفاهيمه وترسم فلسفة في الحياة
بأوفى مما نجد في عديد من آثاره مفرقاً :

« إن الحياة ليست متعة ولذة ومسروراً ، وإنما ليست كذلك كرامة وحزننا
وهما معقدان مقيماً ، وإنما هي رسالة نضطلع بها ، ومهمة خطيرة يعهد إلينا في
القيام بأعبائها ، وعلى كل منا ان يستغل جهوده ، ويبذل أقصى ما عنده في القيام
بواجبات هذه الرسالة ، وإذا تأثرنا قليلاً أو كثيراً بهذه الفكرة ، قل اهتمامنا
بالكثير من الصفات والتفاهات التي تلهينا عن الأمور الجليلة ، ونحصرنا في دائرة
من المهوم الصغيرة .

الإيمان بخالق الكون إيماناً بصيراً ، هذا شيء جميل مستحب في هذا العصر
الذي تنازعت عوالم الفوضى والدمار ، وطفئت عليه الشكوك من كل ناحية ،
احتفظ بهذا الإيمان فإنه كنز ثمين ، واعمل على تعميقه وتوسيعه حتى لا يصير

إيماناً ضيقاً جامداً ، لا نزاع أن الإيمان الصادق بالله ينفي عن نفوسنا الشك بالفضائل والاسترابة بالمثل العليا ، ومتى آمنا بالفضيلة وصدقنا بالمثل الأعلى هان علينا المضي في طريقنا واثقين مطمئنين .

من الخير ألا نبادر على الدوام الى التوفيق بين أحلامنا وأمانينا ، وبين الواقع ، والا أصبحنا من فريق الواقعيين الذين لا يؤمنون بغير الأمر الواقع ، ولا يعالجون الأمور الا على هذا الأساس الضيق ، ويقولون مع فريق من أتباع « هجل » قوله التي تحمل تفسيرات عدة : « الحق هو الواقع والواقع هو الحق » ، والاطمئنان الى الواقع والامتناع بما يغري الجمود والإثرة ويزهد في التغيير والاصلاح ويزين للناس استغلال الظروف والافادة من الفرص المتاحة ، وانما علينا ان نفرق بين أحلامنا الصادقة وأوهامنا العارضة ، ونفرض أحلامنا وأمانينا وأفكارنا على الواقع وهذا هو ما يحاوله كل فرد ممتاز بعقله وخلقه ، ولا خير في هؤلاء الناس الذين يتركون الدنيا كما كانت يوم ولدوا ولا يفرضون عليها شيئاً جديداً من أحلامهم وأمانيتهم .

فهذا الشعور بالتناقض بين الخيال والواقع شعور كريم ، من حقه أن تحمده وتستبشر به وتغذيه ، وهو من غير شك من يواعث قلقك وازعاجك ومملك وتبرمك .

ان الغايات البعيدة لا تنال الا ببذل الجهد والمثابرة الدائبة ، الهدف الذي يحاول الوصول اليه زورقنا في بحر الحياة قد لا يبلغه ، ولكن هذا خير من السير على غير هدى بين التيارات الجارفة والأمواج المتلاطمة .

وصاحب الغاية المقصودة في الأغلب يصل الى غايته مهما عاكسته الرياح وقاومه التيار ، ودروس الحياة تعلمنا دائماً أن العقبى للصابرين ، وأن الذين يسرع اليهم اليأس وتخفيفهم الموانع والعقبات لا يصلحون لعمل شيء من الأشياء .

وكما تقدم الانسان في تاريخ الحياة ازدادت أعباؤه ثقلاً ، وواجباته كثرة واستلزم الأمر جهداً أضخم وحزماً وعزماً ، فلا نستطيع متابعة التقدم الا اذا زادت قوتنا لتزايد أعبائنا وتكاثر واجباتنا ، وعلينا أن نأخذ الأهبة لمطاردة الكثير من الشكوك والأهواء والاغراءات والنزوات ، فاعمل على إطلاق القوى الروحية الحبيسة في نفسك وإظهار قدراتك وممكناتك ولعل أكبر هدف للانسان هو محاولة الوصول الى أقصى ما يستطيع من النمو العقلي الأخلاقي .

إن التزام العفة التي تقضي بها الضرورة لا يضر ما دمنا لا نحصر تفكيرنا في المسائل الجنسية ، بل إنه قد يزيد العقل نبلاً ، والنفس قوة ورفعة ، ويمكننا من السمو بنوازعنا الجنسية واستغلالها استغلالاً أدبياً أو فنياً أو علمياً .

الحياة الحقة هي الحياة التي يكون لنا في كل من أيامها انتصار على الأهواء التي تتحرك في نفوسنا ، والشهوات التي تعصف بنا ، ونتغلب فيها على روح القلق والتعرد التي تهدد سلطان العقل وتهز أركان الإرادة ، أمثال هذه الانتصارات التي ترتفع بنا فوق الجزء التافه الحقير من نفوسنا وتشعل النار التي تذيب أخطاءنا وعيوبنا وتلتهم نقائصنا وسقطاتنا .

لا يمكن الانسان أن يكون إنساناً صالحاً إلا إذا كان مواطناً نافعاً ، وفي أعماق كل انسان بذرة الحياة الروحية وهي تنمو وتزدهر اذا تمهدها الانسان ووالاها ببنائته « ١ . ٥ .

* * *

ويمكن القول أن « علي أدم » قد تتلمذ على مجلة « البيان » التي أصدرها المرحوم عبد الرحمن البرقوقي عام ١٩١١ ، ومنذ ذلك اليوم جرى أدم في هذا الخط وعمقه وخلف فيه كل العاملين من رواده الذين سبقوه : ابراهيم عبد القادر المازني ، ومحمد السباعي ، ولطفي جمعة ، والعقاد ، وعبد الرحمن شكري ، منذ ذلك الوقت مضى « علي أدم » في هذا الخط : خط الترجمة والتعريف

بالفكر العالمي والانساني خلال دراسات أعلامه في الآداب الفرنسية والانجليزية والأوروية والأمريكية والروسية جميعاً ، ودون تحيز لثقافة معينة وان كان لسانه فيها هو اللغة الانجليزية فإن بيانه فيها هو اللغة العربية .

وقد حمل أدم أمانة مجلة البيان التي كان يفرسها البرقوقي في تلاميذه وكتابه وهي « شرف الديباجة » ، فقد لبث وما زال حفيّاً باللغة العربية يكتبها في أسلوب جميل مشرق ليس مستعليّاً وليس صحفياً . ومنذ ذلك الوقت وقد ترجم علي أدم وقدم وألف وناقش مئات من الكتب والأبحاث ، يلتزم خطه وأمانته بعد أن اتسع نطاق حركة الترجمة ودخل اليه عشرات من الكتاب ، ومع ذلك فما زالت خطته مؤذنة بالاستمرار على النحو الذي ارتضاه ، وهو العمل الذي ينتظره المثقف المتصل بالصحافة والمجلات الأدبية ، والذي يحرص على الحصول على أكبر قدر من الآراء والأفكار وفهم تطورات الفكر العالمي ومراحل تجده .

* * *

واذا أردنا أن نصور علي أدم في كلمات قليلة قلنا « الرصانة في الأداء » و « الأصالة في المضمون » ، فهو حين يصف المنهج العلمي في الكتابة الأدبية يقول :

« العلم يوسع آفاق النفس ويزيد من حصيلة تجاربها ويأخذ الكاتب بتحري القصد والتزام الدقة ، والحذر من إلقاء الأحكام على عواهنها » .

فاذا عرض للنقد وأصوله قال : « لا زلنا نعتد في النقد على الذوق المذهب المصقول » الى جانب الاستعانة بالقواعد والاصول النقدية والموازين البلاغية ، وأن العنصر الذاتي يلعب دوراً كبيراً في النقد وإصدار الأحكام » . أما هو في مجال النقد فيقول : « كنت في فصول النقد التي كتبتها موضوعياً جهد الطاقة ، أود أن أخلص ما وسعني الإمكان من المآرب الذاتية ، وأسمو فوق نزعات

الحب والكراهية ، ولكفي كنت أعلم في الوقت نفسه أن توفيقى في تحري هذا المسلك لا بد أن يكون محدوداً بقدرتي الذاتية ومزاجي الشخصي ، وغاية ما يطلب منى باعتبارى وانطباعاتى .

* * *

والحق أن على أدم قلماً يذكر نفسه أبداً ، وقد ترفع في حياته عن مطامع الشهرة وبريق الصحافة وخلاصة المادة ، كما ترفع في كتاباته عن الجوانب الذاتية حتى في الفصول التي طلب اليه كتابتها وهي تجري حول مفاهيمه الخاصة ، وتلك خلة من أشرف خلاله ، وبها سيبقى له في الأدب العربي ذكر لا ينتهي .

● علي أدم : باحث متخصص في الدراسات الانسانية والأدبية والتاريخية ، يجمع

بين ثقافة عربية خالصة وإنجليزية رفيعة .

له مئات المقالات في المجلات الأدبية المختلفة ، وله عشرات الأبحاث في موسوعة تراث الانسانية ، راجع عشرات الكتب المترجمة الى اللغة العربية .

من مؤلفاته : نظرات في الحياة والمجتمع ، المذاهب السياسية المعاصرة ، على هامش النقد والأدب ، الجمعيات السرية ، بين الفلسفة والأدب .

وله مترجمات : ألوان من أدب الغرب ، لماذا يشقى الإنسان .

ومن تراجم الأعلام : المعتمد بن عباد ، مزني (سلسلة أعلام التاريخ) صقر قريش (عبد الرحمن الداخل) ، تلاقي الأكفاء .

الدكتور عمر فروخ الدراسات الإسلامية العربية

يعطي الدكتور عمر فروخ صورة العالم الواضح الهدف منذ الخطوة الأولى ، كأنما قد رسم طريقاً منذ مطلع حياته ، ومضى فيه بعمقه ويوسع آفاقه دون أن ينحرف عنه ، فهو يعيش حياة أمته مريباً وكاتباً . يصحح الأخطاء ، ويكشف الحقائق ، ويعمل في مجال المدرسة الوسطى « مدرسة البناء على الأساس » ، المدرسة التي ترى أن لنا شخصية وكياناً فكرياً وتراثاً وتاريخاً ، وأننا بهذا كله نكون هذه الأمة ، ولا خير علينا أن نفتتح الأبواب للثقافات ونأخذ منها ما يزيد شخصيتنا قوة وغناء ويدفعنا في الحياة الى مصاف الأمم الناهضة . ودون أن يضيع كياننا في دوامة الأفكار والمذاهب والآراء المتضاربة .

وقد أتاح للدكتور عمر فروخ تكوين منهجه هذا ، تجربة طويلة واتصالات بالمفكرين والباحثين ، ودراسة واسعة في الشرق والغرب ، فهو الذي طوف بالعالم الاسلامي ، وكتب عن الباكستان والمغرب ، وعاش سنوات الدرس في ألمانيا يتصل بالمستشرقين والباحثين ويكشف عن مدى فهمهم لفكرنا وثقافتنا . ثم يتاح له من بعد أن يواجه هذا التيار الذي يدعو الى تبييد شخصيتنا وكياننا

بكتابه « التبشير والاستعمار » وهو العمل الضخم الذي قدمه مع زميله الدكتور مصطفى الخالدي ، والذي كان له أبعد المدى في دق الأجراس إزاء غفلة بعض الدوائر الفكرية التي كانت تولي إعجابها لكل ما يقوله الغرب .

ولعل أبرز ما استهدفه الدكتور فروخ أن يفرق بين اللاتينية والعربية ، فاللاتينية والعلوم اليونانية قد أصبحت تراثاً ، أما الثقافة واللغة العربيتين فما تزال حية تعيش بيننا وترتبط بحياتنا . ومن هنا يجيء الفرق بين اللغة اللاتينية التي ماتت ودخلت المتاحف وبين اللغة العربية « لغة القرآن » التي ما تزال تنبض بالحياة ، يتحدث بها مائة مليون ويتشقق بها أربعمائة مليون من البشر .

« والدين » عنصر هام في الثقافة العربية ، التي هي قوة الدفع الحيوية وراء مقومات الوحدة العربية ، فهذا الطابع الروحي والنفسي هو قوام التاريخ واللغة ، وتاريخ العرب عنده في أي قرن من القرون هو تاريخ الاسلام نفسه . وهو من أجل الكشف عن مقومات شخصيتنا عمد باكراً الى دراسات قصيرة بدأها خلال الحرب ، ومع غلاء الورق عام ١٩٤١ تقريباً ، تناول فيها عشرات من أعلام الفكر العربي : أبو العلاء وبشار وأبو تمام ، وعن ابن المقفع وأبي نواس وعمر بن أبي ربيعة وابن الرومي وابن ماجه والفارابي وابن سينا وابن خلدون وشوقي ونهج البلاغة وإخوان الصفا .

ولا شك أن لهذه الدراسات القصيرة أثر واضح في الكشف عن شخصية الدكتور عمر فروخ ومفاهيمه ، وهو يصحح الكثير من الآراء الشعبية التي حاول بها بعض الكتاب الغربيين ومن تابعهم من الكتاب العرب غمط العرب والمسلمين حقهم ، والغض من قدر فكرهم وثقافتهم . فابن خلدون يواجه حملة عنيفة ، يتم فيها بالضعف ، وهو مؤرخ الحضارة الاسلامية بلا منازع ، وواضع أسس تاريخ الحضارة ، وواضع الأسس التي يجب أن تقوم عليها كتابة التاريخ عموماً : « إن ابن خلدون قد أدرك خضوع حوادث التاريخ لعلل وأسباب تنشأ عن الاجتماع الإنساني بكل ما فيه من بيئة طبيعية ومن اقتصاد وسياسة ودين ،

والتاريخ عنده هو تطور العمران البشري والاجتماع الانساني على مر الزمن بكل ما يتصل بهما من الناحية المادية المحسوسة ، وما يعرض فيها من الناحية العقلية المعنوية .

ومما يجري عليه رأي الظالمين إنكار أثر الفلسفة الاسلامية في الفلسفة الأوروبية ، والدكتور فروخ يصحح هذا الخطأ ، فالعرب قد أدوا رسالتهم الثقافية على أتم وجوها . ولم يستفيدوا فقط من نتائج الفكر البشري بل قاموا بدورهم مع كل ما اعترضهم من مشاق ومبطلات ، ولم يكف المسلمون بنقل الفلسفة اليونانية الى العربية ، بل درسوها وشرحوها وفسروا الغامض منها بقدر ما كانت تسمح لهم امکانات وأمانة النقل ، ثم أضافوا اليها طرق تفكير جديدة واختبارات جديدة وقوانين تشمل البيئات الجديدة .

ويصحح الدكتور فروخ أخطاء أخرى ، فقد اتهم العرب بأنهم لم يعرفوا الفن التمثيلي ، والفن التمثيلي ظهر في القرون الوسطى عند العرب في : أحاديث ابن خلدون والمقامات ورسالة الغفران للمعري ، والسبايا (أيام عاشوراء) وقصة عنتره وألف ليلة وما اليها ، ولكن هذه كلها لا تخرج عن مدلول (مسرح) كما يعرف عند اليونان قديماً ، أما أن العرب لم ينقلوا الأدب اليوناني والتمثيلي إلى العربية فيرجع ذلك الى صعوبة نقل الشعر من لغة الى لغة . وكان العرب يذهبون الى أنهم أهل الشعر فلم يحفلوا بشعر غيرهم . وكانت في الشعر اليوناني خرافات وثنية مبنية على تدخل الآلهة في أعمال البشر فانصرف المسلمون عنه .

ولا يترك الدكتور فروخ اتهاماً آخر هو نسبة عبقرية ابن الرومي الى الأصل الرومي وإنكار عربيته ، فهو يعرض لما كتبه سليمان البستاني في الالفاذة ، والعقاد في كتابه عن ابن الرومي ، مما يتصل كله بالقول بأن أصله العجمي له أثره في طول نفسه وميله الى وحدة الموضوع . ويقول الدكتور فروخ أن البستاني والعقاد قد غفلا عن طبيعة الاجتماع وفاتها كثير من حقائق التاريخ وأسس الأدب ، وأن الوراثة العرقية أو وراثة الدم تؤثر في الاستعداد العام أو

في الذكاء الفطري وفي الصفات الجمالية ، ولكنها لا تؤثر في الإنتاج الأدبي . ثم إن ابن الرومي نشأ في بيئة عربية يحفل اللغة اليونانية وكذلك أبوه ، وله عبقرية تكوّن من عوامل البيئة وعناصر الشخصية .

ويواجه الدكتور فروخ ما ذهب اليه الباحثون الذين تابعوا بعض المستشرقين من الشك في الشعر الجاهلي ، فيقول : نحن أيضاً نشك في صحة بعض الشعر الجاهلي ، ولكن لا نشك فيه كله ، ولا نشك في بعض الشعراء الجاهليين كذلك ، لأن (الناحل) يستطيع أن يقلد البيت أو البيتين أو القصيدة أو القصيدتين ، ولكنه لا يستطيع أن يخلق شاعراً ، ولا أن يتلبس بشخصية شاعر ، وإذا استطاع أن يتلبس بشخصية شاعر واحد فهل يستطيع أن يتلبس بشخصيات مشاهير الشعراء ؟ .

* * *

وهكذا يمضي الدكتور عمر فروخ في طريق واضح يكشف الحقائق ، ولا يدع الآراء الضالة لتأخذ مكاناً في عقول المثقفين العرب ، مؤمناً بأن « الثقافة العربية الإسلامية » بحاجة الى استعراض المؤلفات الأصلية ، وإلى تحليل الآراء المبثوثة فيها ، ويرى أن الدراسة الأدبية يجب أن تقوم في أساسها على أسس تاريخية ، وأننا يجب ألا نقبل من كل إنسان أن يحرب ذوقه في فهم قلائد الأدب العربي وهو بعد لا يعلم أحرف الإعراب ولا يفرق بين أوجه البلاغة ، بذلك حقق نتائج هامة ، لعل أكبرها أثراً هو الكشف عن بعض الحقائق التي لم تستقصى بعد وكانت مغسورة في بطون التاريخ .

وإذا جاوزنا هذا الجانب من دراسات الدكتور عمر فروخ الى دراساته الأخرى وجدنا عملاً ضخماً متكاملًا : الأسرة في الشرع الاسلامي ، أثر الفلسفة الاسلامية في الفلسفة الأوروبية ، التصوف في الاسلام ، عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، القومية الفصحى ، هذا بالإضافة الى كتابيه عن : باكستان والمغرب ، وكتبه

الأخرى عن : ابراهيم طوقان والشابي وشوقي . ومترجماته عن الأدب الغربي : الاسلام في مفترق الطرق ، والثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط ، وغيرها من نتاج ضخيم له طابعه الواضح الصريح ، فضلا عن كتبه المدرسية التي تدرّس من لبنان الى ماليزيا ، والتي تتسم بهذا الوضوح واليقظة في الكشف عن حقيقة شخصيتنا وعظمة أمتنا ، والقضاء على الآراء المضلّة التي بثها الاستعمار والنفوذ الاجنبي في عديد من الكتب التي تدرّس في البلاد المحتلة ، وهو بذلك يمثل عنصراً ضخماً في جبهة واضحة المعالم ، تحمي ثقافتنا وتكشف عن عظمتها وتقيم بناء حضارتنا الجديدة على أساس من شخصيتنا الأصلية ، دون انحراف الى ثقافات الغرب أو الشرق .

* * *

وقد تخرج الدكتور فروخ من الجامعة الأمريكية ١٩٢٨ ، وعمل معلماً ومدرساً وأستاذاً خلال حياته كلها - وما يزال - في نابلس وبغداد ودمشق وبيروت . وفي خلال ذلك أتيح له أن يحرز إجازة الدكتوراه من ألمانيا عن صورة الاسلام في الشعر العربي (من الهجرة الى القرن الثالث) .

وكانت هذه الأطروحة رداً على ما أذاعه بعض المستشرقين من أن الأدب الإسلامي لم يظهر الا في العصر العباسي ، وقد استطاع أن يجمع من الشعر العربي في خلال فترة القرون الثلاث الأولى منذ الهجرة ما يعطي صورة الاسلام بمقائده وأفكاره وثقافته .

وللدكتور فروخ إلمام واسع بدراسات المستشرقين والمبشرين ، وخبرة كاملة بأبحاثهم وآرائهم ، ومتابعة تامة لكل ما يتصل بدورهم في العالم العربي والاسلامي ، وقد أغنى المكتبة العربية بهذه الدراسات ذات الطابع الواضح والدلالة الصريحة . وقد أجهده ذلك وأضناه ، إذ طبع أغلب هذه الدراسات في أيام الحرب العالمية الثانية ، وكان يشتري الورق من السوق السوداء ، ربما اشترى الورق بسبعة أضعاف ثمنه مدفوعاً بإيمانه الصادق الى العمل لتقديم

عصارات الفكر العربي ، كاشفاً عن هذه الجوانب الثرة الغنية من ثقافتنا العربية النابضة بالحياة ، المتصلة منذ ماضيها بحاضرنا ، الحية بفاعليتها وتأثيرها في تطورنا ونهضتنا .

وقد اعترف الدكتور فروخ بفضل أستاذه الدكتور يوسف هل « الذي فتح أمامي في أوربة مجال الاختيار العلمي المنتج » ووجد فيه عالماً ذا إيمان صادق ببحث العلم وحرية البحث ، وكان حظه في ذلك خيراً من حظوظ الكثيرين ممن فرض عليهم أساتذتهم أبحاثهم ، أو اتجاههم في البحث .

ولقد حاول الدكتور فروخ أن يغطي جميع جوانب الثقافة الاسلامية ، ولا يزال يضي في طريقه ، وربما كان اهتمامه بدراسة النصوص في الإسلام مما يكشف عن هذا الفهم العميق ، فهو بالرغم من إيمانه بالتصوف النقي ينظر اليه على ضوء اهتمام الأوربيين به والكتابة عنه ، ينظر اليه بريبة ، ويرى أن هدف الأوربيين من الاهتمام بالصوفية هو تثقيف قومهم بأسلوب من أساليب الاستعمار ، وكذلك إغراق المثقفين من سكان الشرق بكتب الصوفية لصرفهم عن عمود القومية وعرين العزة .

وهكذا يبدو الدكتور عمر فروخ في كل مراحل دراساته واضح الهدف يرمي الى الكشف عن الحقائق ، وتنوير الأذهان وبناء فكرنا العربي الجديد المتجدد (على الأساس) ، الأساس الحقيقي من عصارة ثقافتنا مع وضوح معالم شخصيتنا ، حتى نظل أمة واضحة الملامح لا تضع في خضم الأقطار والمذاهب والتيارات ، التي تجرد نفسها في غنى عنها بما لها من فكر ومذهب عميق الجذور سليم المقومات .

● الدكتور عمر فروخ : أستاذ في الجامعة اللبنانية ، له مؤلفات متنوعة في الأدب والفلسفة والثقافة العربية ، أبرزها : التبشير والإستعمار في البلاد العربية (بالإشتراك) ، القومية الفصحى .

وله : العرب والفلسفة اليونانية ، أثر الفلسفة الإسلامية في الفلسفة الأوربية ، الفلسفة اليونانية في طريقها الى العرب ، عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، التصوف في الإسلام .

ومن تراجعه : حكم المعرفة ، شاعران معاصران (إبراهيم طوقان وأبو القاسم الشابي) ، ابن الرومي ، أبو تمام ، ابن ماجه ، أبو العلاء المعري ، اخوان الصفا ، بشار بن برد ، الحجاج بن يوسف ، ابن خلدون ، أحمد شوقي ، خمسة شعراء جاهليين ، عبد الله بن المقفع ، شعراء البلاط الأموي ، الكندي ، عمر بن أبي ربيعة ، الفارسيان .



علي الجندي الشعر ونقد الشعر

أتحدث عن الشاعر الكبير « علي الجندي » : الشاعر المصري العربي الاسلامي ، أقول ذلك حتى أحدد من أتحدث عنه ، فقد عرف بهذا الاسم ككتاب وشعراء آخرون . أما شاعرنا فهو ذلك المجلي الذي ما زال ينشد الشعر منذ مطالع شبابه في ثورة ١٩١٩ - الى اليوم ، وما زال - أطال الله عمره - شاعراً من مفرق شعره الى أخص قدميه ، كأنما قد وكل اليه أمر الشعر كله فهو حافظة له ، طوف به ما طوف وعرف قديمه وحديثه واستوعب غزله ورفاءه ومديحه وهجاءه على نحو مدهش رائع ، ولعله بقية هذا الجيل المعجيب الذي عرف بأنك لا تكاد تطوف بأمر أو موضوع أو حادث حتى تجده قد ألقى اليك من الشعر العربي ما يصور مشاعر الانسان إزاء كل موقف ، كأنما لم يفادر شعر الضاد من شيء ، وكأنه كتاب الانسانية الكبير ، ولقد عاش علي الجندي شاعراً في حياته وفي دار العلوم التي تخرج منها وعمل بها حتى ولي عمادتها ، وتلمذ عليه وتخرج عشرات من الشعراء والشاعرات ، وما زال وأنت حين تراه في سمته الكريم ووجهه الأبيض المشرب بحمرة وفي مشيته وحركته وفي صمته وحديثه وفي خطابه وإلقاء شعره ، تحس أنه فارس من فرسان العرب الأوائل

أو أحد من آل البيت أتباع الحسين^(١) ، وما تزال حياة علي الجندي كلها قسم من بين الفروسية والشعر ، فهو شاعر ومؤرخ للشعر ، ولم يغادر الشعر القديم حتى كتب عن فنونه الثلاثة الكبرى : شعر الحرب وشعر الغزل وشعر الطبيعة .

* * *

وقد كان تلميذاً في دار العلوم للشاعر البدوي محمد عبد المطلب ، وكان له به صلة روح وطبيعة فهو صعيدي من أنقى الانساب العربية ، وبالرغم من أنه جاء القاهرة منذ العشرينات فأنه ما زال عربياً صعيدياً بطبعه ، حفاظاً لكل مقومات الايمان والكرامة والوفاء والإباء الذي عرف به أهلنا في الصعيد ، لم تغيره القاهرة ولا الحضارة ، الا ذلك التطور الفكري الذي يجري معه العقل العربي في مجال النهضة والحياة . أما طبيعته النفسية : «طبيعة الشاعر الفارس» فقد عاشت معه وعاش معها ، فهو مؤثر للعزلة عزوف عن المجتمعات ، ومع ذلك فهو نابض بالحياة متصل في شعره بكل ما يصل النفس بالحياة ، مؤمن عميق الايمان ، في أسلوب حديثه ومناقشاته العادية طابع الأصالة والفهم والقدرة على الاستيعاب والعرض واستخلاص النتائج .

* * *

ولقد رأيت له في مطالعاتي الكثيرة في الدوريات العامة ، فصولاً وبحوثاً ومقالات وآثاراً متعددة ضخمة لاحد لها ، ما تزال مدفونة في أعماق الصحف لم تخرج ولم تنشر في كتب ، وهي على ما هي عليه غاية في الروعة ، فقد طوف أستاذنا علي الجندي بالأدب العربي منظومه ومنثوره ، فاستوعب عصارة هذا التراث في مختلف فنونه وعرضه قصصاً وأحاديث عرضاً جديداً على نحو لم يتح لكثير من الباحثين ، وما تزال هذه الفنون الرائعة جديرة بأن تبث روحاً

(١) علي الجندي فعلاً من أصحاب النسب الحسيني.

جديدة في أجيالنا وشبابنا الذين لا يعرفون كثيراً عن تراثنا وفنوننا ويخافون الكتب القديمة ولا يستطيعون الاتصال بها ، وهكذا عاش الشاعر الكبير علي الجندي يعلم في دار العلوم ويعلم في صحف مصر ، ويكشف عن جوهر الأدب العربي ، وعن تراثه وعظمته وقصصه وبطولاته ومواقفه ، وفي نفس علي الجندي يرتبط الاسلام بالعروبة ، والصوفية بالشعر ، والحب بالجمال ، والفن بالحياة ، على نحو رائع وامتزاج دقيق ، فهو شاعر عاطفي رقيق الحس أبلغ الرقة ، وهو كاتب وباحث له مطالعات وفهم لقضايا الفكر العربي الحديث وشئون العالم الاسلامي والأمة العربية في مجال الفكر والثقافة والحضارة ، وقد كان في مطالع حياته شاعراً ومبشراً وكاتباً وخطيباً ، وأمانته للشعر والاسلام لا حد لها ، فهو يخلط بينها في عراقة الايمان بآمتنا وفكرنا وتراثنا على مستوى الأصالة والجزالة وعلى مستوى الاستعلاء عن الدنايا .

* * *

يقول : سئلت غير مرة : كيف تكون شاعراً ولا نجتدك متحلاً ؟

ويجيب : لا أدري أي صلة بين الشعر والتحلل مع أن اللغة تقول : أن كل علم يسمى شعراً ، ولكن الشعر غلب على منظوم القول لشرفه بالوزن والقافية ، ويقول ابن رشيق : الشعر أكبر علوم العرب ، ومن قول الرسول : « إن من الشعر لحكمة » أو حكمة ، ويكتب عمر رضي الله عنه الى أبي موسى الأشعري : « مرّ من قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل على معاني الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الانساب » . ويقول « علي » كرم الله وجهه : « إن الشعر ميزان القول أو ميزان القوم » ، والتاريخ يحدثنا : أن معظم الشعراء في القرون الأولى كانوا من الفرسان المغاوير والأبطال الأنجاد ، خاضوا المعارك وسعروا لظاهما بأسلحتهم وألسنتهم معاً ، وما أبعد رجال المعامع وصناديد الوقائع عن خنث الطابع وتبعية الأخلاق ، والشعراء ينظرون الى فنهم نظرة إجلال وإكبار فيقول الأعشمي :

والشعر يستنزل الكريم كما ينزل رعد السحابة السبلا
هذا هو مفهوم الشعر عند علي الجندي كما عبر عنه في كتابه « خمسة أيام في
دمشق الفيحاء » .

وعنده أن الشعر لم يفقد ماله من سحر وفتنة وسلطان بالغ على النفوس ،
وانه سيظل الى الأبد برغم استعلاء الروح العلمي وسيطرته ، متعة الأذهان
وبهجة القلوب وغذاء الأرواح ، ما دام للناس عواطف ومشاعر وأحاسيس ،
وسيبقى ما بقيت الضاد أجمل فنون الجمال وأرقى لغة كشفها الانسان ، للتعبير
عن خوالج نفسه ، ومآربه العليا السامية ، وأن أمتنا العربية الشاعرة لم ينقطع
نسلكها من فحول الشعراء ، وأن في يدها من الشعر عصا سحرية تستطيع
- إن حسن توجيهها - أن تفعل بها العجائب وتصنع المعجزات .

* * *

وعنده أن الشعر - وهو أنفـس الفنـون - قد كان أبطأ سيراً في العصر
الحديث بحكم طبيعته من الفنون الأخرى ، ولكن إنتفاضات الأمة العربية
المتوالية ، وهز الأحداث لها هزاً عميقاً ، قد بعث قوى شعرائها وأذكى لهيبهم
المقدس ، وفجر فيهم ينابيع الالهام الثرة ، وأهاب بهم أن يؤدوا لأمتهم ما لها
قبلهم من حقوق مفترضة ، فانطلقوا كالسيول العارمة يشدون أزرها ويجبرون
كسرهما ، حتى ليـمكن أن يقال : أن الأشعار التي قيلت في محنة فلسطين
والجزائر ، والأشعار التي قيلت في تجسيد القومية العربية والتبشير بالوحدة
العربية ، وما قيل في معركة بور سعيد الخالدة ، تربو على ما قيل في عصر كامل
من عصور الشعر العربي التاريخية الزاهية .

ويمضي أستاذنا علي الجندي فيقول : إننا يجب أن نكون على حذر دائم ،
من الدعوات الهدامة المدمرة ، التي تريد أن تقطع صلتنا الوثيقة بماضينا الحافل
بالمآثر ، وتأتي على مفاخر ستة عشر قرناً من القواعد باسم التجديد الزائف

المنكر ، الذي يجعل من المقالة دردشة جوفاء ، ومن القصص إباحية صارخة ،
ومن الفن تهريجاً وبهرجاً ، ومن الشعر رقماً مهلهلة ممزقة ، ومن النقد
هزأً وانتقاصاً .

* * *

وبعد فإن ديوان « ترانيم الليل » آخر انتاج الشاعر علي الجندي المصري
العربي المسلم ديوان ضخم أنيق ، يعد نموذجاً رائعاً للشعر العربي الحديث ،
صيغ بأسلوب يمثل ديباجة البحري أصدق تمثيل ، وقد سجل الشاعر في ترانيمه
ما هز نفسه من حوادث ، وما راقها من مناظر ، وما مر بها من آلام
وأشجان ، وتغنى بالحب والجمال السامي غناء مهذباً يشجي ويطرب ، ونظم
وقائع الحياة في صورة قصصية مبتكرة ، توشحها الحكم البالغة والآراء
الفلسفية والنظريات الاجتماعية ، وقد قسمه ناظمه الى أبواب وطنية وعربية ،
وصور من الحياة وزفرات وذكريات الصبا وخواطر وأفكار ، وفي مجموعها
تضم حوالي مائتي قصيدة ومنظومة ، تمثل مختلف مشاعر هذا الشاعر الفنان
في مرحلة السنوات الاخيرة وهو بالإضافة الى ديوانيه السابقين : « أغاريد
السحر » و « ألحان الأصيل » يمثل تطور شعره في مراحل المختلفة خلال
حياة خصبة طائلة باذن الله ، ومن خلال نفسية غنية بالحس تهتز لكل
أحداث الحب والجمال والحياة ، وترتبط بالانسانية والوطن والاسلام والعروبة
ولا تنفصل ، ويكاد يكون هذا الديوان سجلاً كاملاً لتطور الحياة الفكرية
والسياسية والاجتماعية التي يعيشها الشاعر الكاتب الخطيب ، تمثل شخصيته في
أصالته وبلاغته ، وفي نبالة خلقه وفنائه ورقته ، وفي مروءته وفروسيته
وارتفاعه عن المادة والحس ، كأنما هو شاعر من أعماق العصر الاسلامي
الزاهي ، ويقول الدكتور شوقي ضيف في تقديم الديوان : « نراه مولعاً بكل

جمال يلاً بصره ، ويملك عليه لبه ولكن في إحشام وفي تطف رقيق ،
ولعلي لا أبعد إذا قلت أنه ممن يحبون الجمال نفسه لا من يتجسد فيه .

* * *

وإذا كان يسعدنا أن نذكر ديوان « ترانيم الليل » آخر انتاج الشاعر
ظهوراً ، فاننا ما نزال نتطلع الى آثاره الأخرى الكثيرة ، التي طالما
حرضناه على نشرها وإعادة إبرازها من جديد ، بعد أن طوتها بطون
مجلات وصحف البلاغ والرسالة والرابطة العربية وعشرات أخرى . وبعد
فالاستاذ « علي الجندي » يصور مذهبه على هذا النحو : « إنني لا أستطيع أن
أصوغ بيتاً واحداً في عرض لا يملك علي شعوري كله الى الحد الذي يستقطر
الدمع من عيني أحياناً ، فكل بيت فيض العاطفة ونبض الشعور ، لا فرق في
ذلك بين الشعر الوجداني الخالص كالنسيب مثلاً وبين غيره كالأماديح والتهنئات
مما يسمى شعر المناسبات هو عندي خاصة من صميم الشعر ، لأنني أنظمه بهذه
الروح التي أغني بها آلامي النفسية من الاعماق ، أما رسالتي فمشتقة من
ورائتي ونشأتي وبيئتي ودراستي ، وهي الاشارة بمفاخر العرب والاسلام وأمجاد
مصر الخالدة ، والتنويه برجالها العاملين وتخليد مآثرهم وتسجيل ما يهز النفس
من أحداث . »

● علي الجندي : من مواليد الصعيد الأعلى من مصر ولد عام (١٩٠٠) عميد دار

العلوم السابق . ومن أبرز شعراء العربية في العصر الحديث .

من مؤلفاته : شعر الحرب ، أغاريد السحر ، فن التشبيه ، أدب الربيع بين الورد

والزرجس ، الشدا المونس في الورد والزرجس ، فن الجناس ، أطوار

الثقافة والفكر (بالاشتراك) ، رمضان في الأدب ، خمسة أيام في دمشق

الفيحاء ، البلاغة الفتية ، سياسة النساء .

تدري حافظ طوقان إيقاظ العقل العربي

في مقدمة دعاة « المدرسة الوسطى » التي تؤمن ببناء فكرنا العربي الحديث على قاعدة من شخصيتنا ومقوماتها الأساسية العلامة « تدري حافظ طوقان » ، الذي أعلن صحبته في أوائل عام ١٩٤١ الى رد اعتبار العرب علمياً في تقدير دورهم الكبير في بناء الحضارة ، بعد أن ساقّت الثلاثينات كثيراً من غبار التغريب والشعوبية متكررة لفضل العرب ، وجرت الريح بالاستخفاف لكل ما هو عربي إسلامي شرقي ، والغض من جهد السلف وفضلهم ، وبينما كان ذلك يحدث في الشرق ، كان علماء منصفون من الغرب يدافعون عن الحقيقة لأنها حقيقة ، ويعلمون فضل العرب على مدنية أوروبا ، فقد ثبت لهم أنه كلما تقدم العلماء في البحث تكشف لهم فضل العرب على العلم والعمران بصورة أوضح ، وظهر لهم أن العرب سبقوا الغرب في وضع النظريات الرياضية والفلكية والفلسفية ...

فالعلماء فلوريان وويلز وسيدو وجوستاف لوبون قد أكدوا هذه الحقيقة :
« كان للعرب عصر مجيد عرفوا فيه بانكباهم على الدرس ، وسعوا الى ترقية

العلم والفن ، وظلت أوروبا مدينة لهم بخدمتهم العلمية ، تلك الخدمة التي كانت العامل الأول والأكبر في نهضة القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد ، وأنهم بذلك أساتذة أهل أوروبا في جميع الأشياء .

هذه هي الصيحة الباكورة لقنري حافظ طوقان ، العالم المتخصص في دراسات أعمال العرب العلمية وأثرها في الحضارة المعاصرة . كشف عنها ونماها في أكثر من عشرين كتاباً في خلال ربع قرن ، منها : تراث العرب العلمي ونواح مجيدة من الثقافة الإسلامية ، والأسلوب العلمي عند العرب والنزعة العلمية في التراث العربي والعلوم عند العرب ، والتمهيد الى اللوغاريتمات ، ومقام العقل عند العرب ، وأثر العرب في تقدم علم الفلك ، والروح العلمية عند العلماء العرب والمسلمين ونشاط العرب العلمي ..

وهي رسالة واحدة واضحة صريحة ، تنظم حياة هذا الباحث وكتاباته ، لا يتوقف عن إذاعتها في كل دوائر العلم ومؤتمرات الفكر ، ترمي الى إعادة الثقة الى هذه الأمة التي انحرف بعض مفكرها الى التشكيك في قيمها ودورها ومكانتها في الثقافة الانسانية .

وعنده أنه لا بد من إعادة الثقة أولاً ، حتى تستطيع هذه الأمة أن تعود مرة أخرى الى مكانتها والى أداء دورها ..

وقد كان دور العلماء العرب والمسلمين كبيراً وضخماً ، وكان التزامهم بالمنهج العلمي واضحاً ، وبمراجعة تاريخ هذا النضال تتجلى أخلاقهم لتحقيقه ، وتمجيدهم للعقل والتقييد بأحكامه ، فهم قد ترجعوا آثار اليونان العلمية ، ولكنهم لم يقفوا عند الترجمة بل راجعوها ومحصوها ، وقبلوا منها ورفضوها ، ثم زادوا فيها ، وكانوا غاية في التعظيم والاستقلال وتفتح الذهن ، مما دفعهم الى مخالفة فلاسفة اليونان وحكامهم في بعض آرائهم وتقنين أقوالهم ، وظهرت روحهم العلمية في عدم إيمانهم بالتنجيم ، وفي الدعوة الى إبطاله وإبطال نظريات تحويل المعادن الى ذهب .

وبدا دور العرب واضحا في التجارب التي أجراها جابر بن حيان ، وابن الهيثم ، والرازي ، وابن الصوري والبيروني وغيرهم في الطبيعة والكيمياء ، فقد ثبت أن العرب عرفوا الطريقة العلمية الحديثة ..

ويظهر هذا الفهم العلمي لمنطق البحث في عبارة ابن رشد في كتابه « فصل المقال في ما بين الحكمة والشريعة » حيث يقول :

« يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك ، وسواء كان ذلك الغير مشاركا لنا أو غير مشارك في الملة ، فإن الآلة التي تصح بها التزكية ، ليس يعتبر في صحة التزكية بها كونها آلة لمشارك لنا في الملة أو غير مشارك ، إذا كانت فيها شروط الصحة ، وأعني بغير المشارك في نظر هذه الأشياء من القدماء قبل ملة الاسلام ، وإذا كان الأمر هكذا ، وكان كل ما يحتاج اليه من النظر في أمر المقاييس العقلية قد فحص عند القدماء ، ثم فحص ، فقد ينبغي أن نضرب بأيدينا الى كتبهم فننظر فيما قالوه من ذلك : فإذا كان صوابا قبلناه منهم ، وإن كان فيه ما ليس بصواب نهينا عليه ... »

وقد اختط هذا المنهج اغلب علماء المسلمين وفلاسفتهم : كالغزالي والجاحظ ، وابن حزم ، والكندي ، وابن الهيثم ، والبيروني ، وابن خلدون .

* * *

ويمضي قدرتي حافظ طوقان فيكشف عن أثر العرب في الحضارة الحديثة ، وسبقهم في الرياضيات والفلك والحساب والجبر والهندسة .

وكانت دعوته الى الكشف عن دور العرب مقدمة لعمل ضخم ، اشترك فيه مع الدكتور مصطفى نظيف والدكتور علي مصطفى مشرفة ، حيث أمكن تحقيق بعض المخطوطات العلمية .

وقد أجاب طوقان عن السؤال الحائر الذي يتردد حول الماضي وانكاره

وتجاهله وتلك صيحة شعبية تغريبية ، فإذا كان الماضي والقديم يترك ويقضى عليه ، فقد كان أولى بأوروبا أن تتنكر لثقافتها اليونانية وحضارتها الرومانية ، وهي ما تزال تلج على ارتباطها بها ، وان حضارتها الحديثة وثقافتها الأوروبية ليست الا امتداداً لذلك الماضي .

يقول قدري طوقان : « أن التراث الذي خلفه الأقدمون ، والانقلابات التي تتابعت هي التي أوصلت الانسان الى ما وصل اليه ، وجهود فرد أو جماعة في ميادين المعرفة مهد السبيل لظهور جهود جديدة من أفراد أو جماعات أخرى ، ولولا ذلك لما تقدم الانسان ولما تطورت المدينات ، ذلك لأن الفكر البشري يجب أن ينظر اليه ككائن ينمو ويتطور ، فاليونان مثلاً قاموا بدورهم في الفلسفة والعلوم ، وكان هذا الدور الذي قام به العرب ، وهو الدور الذي مهد الأذهان والعقول للأدواه التي قام بها الغربيون فيما بعد ، وما كان لأحد منهم ان يسبق الآخر ، فوجود ابن الهيثم وجابر وأمثالهما كان لازماً ومهداً لظهور غاليليو ونيوتن ، وعلى هذا يمكن القول بأنه لولا جهود العرب لبدأت النهضة الأوروبية - في القرن الرابع عشر - من النقطة التي بسدأ منها العرب نهضتهم العلمية في القرن الثامن للميلاد .. »

ولكن قدري حافظ طوقان حين يكشف عن دور العرب في العلم والحضارة لا يريد أن يقف عند هذا الحد ، بل هو يتخذ منه منطلقاً الى دور العرب مرة أخرى في العمل ..

فهو يعلن أنه لولا العرب لتأخرت نهضة أوروبا عدة قرون ، ولكن العرب لا يكتفون بذلك ، بل هم اليوم في أشد الحاجة الى الروح التي تجلت في التراث العربي الاسلامي ، تلك الروح التي تمجد العقل وتدعو الى التجدد وتقّدر حرية الفكر ، وتنزع الى الخلاص والانعتاق من قيود الماضي ، وأغلال التقليد ، وتقول بالتححرر من سلطان القدر .. هذه هي الروح التي يجب أن تسود المجتمع العربي ، وتدفع الى التقدم المستمر والنمو المتواصل وتحول دون تعطيل العقل وتجميده ،

يجب أن يدرك العرب في هذا العصر أن التقدم لا يصل اليهم إلا على جسر من حرية الفكر، هذه الحرية التي كان يرى فيها فلاسفة العرب الجمال والقداسة والخلاص، إن هذه الحرية هي التي أخرجت للعالم الحضارة العربية، وهي التي أثمرت التقدم في العلوم والأفكار عند العرب في العصور الوسطى، لقد أنتج العرب وأثمرت قرائعهم عندما كانوا أحراراً، وعندما كانوا يؤمنون بحرية الفكر، ويقدمون العقل، ولكن حينما ابتلوا بالاستعمار وما صاحبه من كبت للحريات وضغط على المواهب، تبلدت عقولهم وهزلت مهمهم.

إن قدرتي طوقان يدعونا الى العمل على إحياء روح المعتزلة والفلاسفة العرب في المزاج العقلي واعتباره الدليل القائد، وفي تخفيف الإيماء المطلق بسلطان القضاء والقدر، فلن يقدر لمواهب العرب أن تتحرك ولقابليتهم أن تثمر الا اذا تحرروا تحرراً كاملاً من الاستعمار وآمنوا بحرية الفكر.

* * *

واذا كان قدرتي حافظ طوقان من أسرة العلم التي تضم نظيف ومشرفة وغيرهم، فإنه أيضاً من أسرة الأدب التي تضم ابراهيم طوقان الشاعر النابه، وفدوى طوقان الشاعرة الرقيقة، وهو من الذين استطاعوا أن يطوعوا العلم للأسلوب الأدبي المبسط، ومن رأيه أن العلم يجب أن يكتب بأسلوب أدبي مبسط، حتى يستطيع أن ينفذ الى نفوس الناس ويتصل بكل المستويات.

ولد بنابلس ١٩١٠. وتخرج من الجامعة الأمريكية ببيروت ١٩٢٩، وعمل طويلاً مديراً لكلية النجاح الوطنية بنابلس، واشترك في عضوية أكثر من خمسة عشر هيئة ومجمع ولجنة في القاهرة ودمشق وعمان وفي إنجلترا وأمريكا وإيطاليا، ومثل بلاده في عشرات المؤتمرات في العالم كله، وقد كتب عشرات المقالات والابحاث والأحاديث العلمية في مختلف الصحف والاذاعات، وحاضر

في مختلف المجالات في أكثر الأقطار العربية والأوربية . وما تزال مؤلفاته وآثاره تطبع مرات ومرات . وتجدر قبولا من القارئ العربي لتظل علامة على طريق واضح : طريق المدرسة الوسطى ، مدرسة البناء على الأساس .

- قدرني حافظ طوقان : من أبرز المساهمين في المجامع العلمية العربية والعالمية .
- من مؤلفاته : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ، العلوم عند العرب ،
- التعاون العلمي بين العلماء والباحثين في العالم العربي ، بعد النكبة ،
- بين العلم والأدب ، مقام العقل عند العرب ، الخالدون العرب ،
- وعمي المستقبل .



كامل السوافيري شعر فلسطين

ما تزال فلسطين تهز الكتب والبحث والشعراء والمؤرخين في الوطن العربي جميعاً ، فلا تمر فترة من الزمن حتى يبرز كتاب يناقش جانباً من جوانب هذه القضية الكبرى أو يستعرض قطاعاً من قطاعاتها . وها نحن نلتقي اليوم بكتاب ضخم اصدره كامل السوافيري يدرس فيه الشعر المصري الحديث في مأساة فلسطين منذ ١٩١٧ الى سنة ١٩٥٥ وهو جهد ضخم مقدور بذل فيه مؤلفه العرق الكثير حتى سواه ناضجاً أهلاً للماجستير التي أحرزها من كلية دار العلوم .

غير أنه كان لا بد أن يبرز من أبناء فلسطين من يشغف بمثل هذه الدراسة ويوليها وقته وجهده ويعيش لها ، فلا يدع شيئاً يكتب عن فلسطين من شعر ونثر وقصة الا يراجعه ويسجله ، فقد كانت فلسطين ولا تزال ، جرحاً دائماً في قلب الأمة العربية لما يلتئم ، ولن يلتئم حتى تعود الى الأمة العربية ، وما عاش قلب في الأمة العربية نابضاً دون أن يذكر فلسطين أو يحلم بعودتها الى الوطن الأم ، ولقد كانت مأساتها ذات أثر بعيد المدى - لم يكتب بعد - في

مجال اليقظة والنهضة والقومية العربية والوحدة والامتزاج بين أجزاء المشرق والمغرب ، وكأنما كانت الأمة العربية قد استنامت وتحدرت في ظل عناصر الضعف وفترات الجمود ، فلما ذهبت تستيقظ في أوائل القرن كانت يقظتها مشوبة بانحراف ناحية القوي الذي خدعها مرتين ، بانكار عهده لها بقيام الدولة العربية ، وبإعطاء وعد بلفور ، هنالك بدأت تلك المأساة المهولة ، ومضت تعمق وتتسع ، حتى استوت في خلال ثلاثين عاماً ، حدثاً قوامه المؤامرات والاعتصاب والمكر ، ولم تلبث أن وقعت الحرب فانهزم فيها العرب بالحديعة أيضاً ، ومن خلال هذه المراحل المتصلة كان الشعراء يعيشون المعركة ويتأثرونها ، ففي أكثر من سبعين ديواناً من الشعر صدرت كانت فلسطين مذكورة على نحو من الأنحاء ، بل قامت دواوين كاملة عنها ، وبرز شعراء لم يشغلوا إلا بها .

ولقد مضى هذا الشعر في الأندية والصحف والدواوين ، يهز النفوس ، ويحول الأخبار والأحداث الى طابعه الوجداني المثير مرارة وألماً .

وبرز من أبناء فلسطين أنفسهم من عاشوا هذه المأساة شعراً ، ومضى الشعر العربي يمتاز الآفاق في المشرق والمغرب ، فما ترك قطراً من أقطار العروبة ، بل إنه بلغ المهاجر الأمريكية وأثر في شعرها ، ولا نبالغ إذا قلنا أن شعراء العرب في المهاجر كانوا أشد تأثراً وأكثر ارتباطاً بالأحداث ، ولم يقف الأمر عند القصيدة ، بل مضى الشعر يفتح الطريق الى الأعمال الفنية الكبرى ، فظهر الشعر القصصي والشعر المسرحي ..

وهكذا وجد كامل السوافيري الفلسطيني الأصل مجال دراسته خصباً واضحاً ، فمضى يراجع النصوص ويقلبها ويستخلص منها ملاحظاته وآراءه ، ليكشف عن أثر مأساة فلسطين في الشعر الحديث .

إنه يقول :

« هزت مأساة فلسطين ضمير الأمة العربية أعنف هزة عرفتها في تاريخها

الحديث ، وأشعلت عواطف شعرائها ، وفجرت في قلوبهم ينباع الشعر ، ومنذ وقوعها في سنة ١٩٤٨ الى سنة ١٩٥٥ وهي النبع الفياض في الشعر الحديث ، ظهر أثرها واضحا في عشرات الدواوين الشعرية الكاملة ، التي استلهمت محتوياتها جوانب المأساة ومظاهرها المختلفة ، وفي مئات القصائد الشعرية المستمدة من فواجعها وأهوالها ، ومن واقع العرب المؤلم ، وحاضرهم الذليل ، وأملمهم في المستقبل الباسم والغد المشرق المؤذن بالإستجابة لنداء النار ، وغسل العار ، واستعادة فلسطين .. ظهر أثرها في شعر أبنائها ، وفي شعر أبناء الأقطار العربية ، وفي شعر الشعراء العرب في المهاجر الأمريكية . ظهر في الشعر القومي الوطني السيامي الذي اطلقنا عليه اسم الشعر الغنائي ، في مئات من القصائد والمقطوعات والموشحات والاغاني والأناشيد ، وفي الشعر القومي الوطني السياسي الاجتماعي القصصي والمسرحي ، ظهر أثرها في الشعر الحديث فيما أوجدت من موضوعات ، وما استحدثت من افكار ، وما تطلبت للتعبير عن موضوعاتها وأفكارها من ألفاظ وجل وعبارات ، وما أبدعت من صور ، وما ابتكرت من أخيلة ، وما أثرت به العاطفة . ظهر أثرها في الشعراء الذين أوجدتهم وفجرت في نفوسهم ينباع الشعر ، ولولاها لما غنوا ولما أبدعوا ، بل لما عرفوا في دنيا الشعر ، ومن الشعراء الذين حولت اتجاهاتهم الشعرية الذاتية والرومانسية والفنائية والفنية الى الاتجاه القومي .

وخلفت المأساة من أبناء فلسطين وبناتها شعراء وشاعرات ، لم تعرفهم فلسطين من قبل ، فجرت فيهم ينباع الشعر وأمدتهم بالطاقات ، ومنهم : معين بسيسو ، و خليل زقطان ، وهارون هاشم رشيد ، ويوسف الخطيب ، ورجا سميرين ، والشاعرة دعد الكيال .

وحولت الاتجاهات الشعرية لعدد من شعراء فلسطين وشاعراتها المعروفين من قبل الى الاتجاه القومي ، ومن هؤلاء الشعراء : محمود الحوت الذي كان شاعراً وجدانياً ، وأبو سلمى الذي كان شاعر الحسن والجمال ، ومحمود الأفغاني الذي

كان شاعراً غنائياً ، وفدوى طوقان التي كانت تهوم في أودية الخيال وتشككو الوحدة وتلوذ بالتأملية ، وتغلب الاتجاه القومي على سائر الاتجاهات في شعر عيسى الناعوري في الأردن ، وعدنان الراوي وخالد الشواف وإبراهيم الوائلي وعلي الحلي في العراق ، وعمر أبي ريشة وسليان العيسى في سورية ، وعلي محمود طه ومحمود حسن اسماعيل في مصر .

كانت المأساة النبع الذي لا يحف والمعين الذي لا ينضب في الشعر الحديث ، وكانت نقطة الانطلاق التي انبعثت منها دعواته للثورة على حاضر العرب وواقعهم الأليم ، وجعلت من الشعر الحديث ، شعر العروبة والقومية والوطنية والسياسة ، شعر الثورة على الاستعمار وقاعدته إسرائيل ، وعلى فساد الأوضاع والنظم ، والدعوة لبناء المجتمع العربي من جديد على أسس جديدة .

ونقف هنا لحظة لنقرر أن أثر المأساة في الشعر الحديث أقوى من أثر المحنة فيه قبل وقوع المأساة ، أثر المأساة أعم وأشمل لأنه شمل جميع الأقطار العربية التي لم تجد منها قطراً واحداً لم يظهر أثر المأساة في شعر أبنائه ، بل قل أن تجد شاعراً عربياً لم يظهر أثر المأساة في شعره ، على حين أن شعر المحنة قبل المأساة لم يشمل جميع الأقطار ، ولم يظهر عند كثير من الشعراء .

وظهر أثر المأساة في الشعر الحديث في الفكر الحديث ، وتكوين الشخصية العربية ، والتعبير عن الذات العربية ، واعتناق فلسفة القوة ، ومخاطبة المستعمر بلغة المصلحة ، والكشف عن جوانب القوة الكامنة في الأمة العربية ، وما تملكه من مقدرات وإمكانات تتيح لها إذا اتحدت وتضامنت أن تملي إرادتها على الذين أوجدوا إسرائيل ، وإن تعيد الحق إلى أهل . »

* * *

وهكذا يمضي كامل السوافيري في دراسته الخصبية الضخمة الفنية ، التي هي الأولى من نوعها في الواقع ، وقد عاش بها حقيقياً كلفاً ، كأنما قد جرد نفسه لها

منذ عام ١٩٤٨ على وجه التحديد ، وكان قد بدأ ينشر فصولاً من دراسته في مجلة القلم الجديد (عمان) مارس ١٩٥٣ ، وظل يعمل لها حتى استوت دراسة على أسس علمية كاملة ، أحرز بها ماجستير في الأدب (١٨ أكتوبر ١٩٦٢) ، ولكنه لم يتوقف بعد ، فهو يعد دراسة جديدة لإحراز إجازة الدكتوراه في « الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر » فكأنما قد وهب حياته الفكرية لهذه القضية البعيدة الأثر في الكيان العربي كله .

وربما أعانته على هذا الجهد أنه كان منوع الدراسة ، موفور جوانبها الخصب ، فقد تعلم في الأزهر ، ودار العلوم ، ومعهد التربية ، فأحرز فنوناً مختلفة من العلم القديم والحديث ، وامتزجت في نفسه مناهج الدراسات العربية الإسلامية الخصب العميقة ، مع مناهج الدراسات الحديثة في دقتها وفنها .

ومنذ مشرق الشباب تطلع السوافيري الى مجال الصحافة والكتابة ، فكتب في صحف فلسطين ، ولما جاء مصر لم يلبث أن والى كتاباته في الاهرام والبلاغ والرسالة وعديد من صحف العالم العربي .. وبرز نشاطه الفكري عام ١٩٤٩ « عام معركة فلسطين » ، وهي نقطة الانطلاق في تفكيره كله ، عندما رأى أبناء وطنه وقد عادوا دون وطن ، مشردين هائمين على وجوههم من الارض . هنالك استل قلمه ووجهه الى عمل ضخم في سبيل أمته فكتب عشرات المقالات في الرسالة عن استرداد فلسطين ووعد بلفور وعبد القادر الحسيني واللاجئين ، ومضى يتابع النتاج العربي عن فلسطين وقضايا الحرية متناولاً إياه بالنقد والدراسة . وعرف بشعراء فلسطين وكتّابها ، وأبرز خصائص الأدب العربي الفلسطيني في فنونه المختلفة وأمدته مأساة فلسطين بالوحي :

« كان في سوافير من أعمال غزة في يوم ما أهلي وعشيري ، ولكنهم تفرقوا أيدي سبا ، كانت الغربية قاصمة فتناثرنا كالشرر في كل اتجاه ، لا لنخبو ونضيع ، بل لنحمل روح المأساة العربية دامية أمام كل عين .

بالأمس كانت أرضنا تزرع للنفوس السلام ، واليوم تندس في كل شبر منها
ألغام وألغام ، بالأمس كان التشرد يحمله الأفراد ، ومنذ أن خرجنا من أرضنا
وللتشرد علم يرتفع بين الأعلام .

كنا هناك وراء غزة منذ آلاف السنين ، نرقب الشمس وهي تجفف محصولنا
وتجدد ثمارنا ، واليوم لا ترقب ولا شمس ولا ثمار ، لأن بعضنا قد أمتسته قصة
تشرده هو ، ولم تخلق فيه ما يطرحه هناك وراء غزة ، والبعض الآخر ، قد
أحاطه نجاحه بسياج من الترف يرد كل خواطره إليه .

وأنا ، أين أضع نفسي من هؤلاء ، كنت أفكر طيلة خمسة عشر عاماً ،
الى أن زرت غزة سنة ١٩٥٤ وجاوز القطار العريش الى رفح ، وامتألت
خياشيمي بنفحات أرضي ، وصافحت آذاني لهجات قومي ...

الأطفال أصبحوا كباراً ، الشعر الفاحم أمسى رماداً ، رأيت قسبات
فلسطين بعد خمسة عشر عاماً ، رأيت أخاديد الأسى وحفر الألم ، تصرخ في
كل وجه ، ورأيت من خلال حبة من الدمع أيامي فوق هذه الأرض .

كان عملي التجول ، تجول للتجمع والتكتل ، أدور بين ١٥٠ بلداً وكان
مقري الرملة . كنت واعظاً آمر بالمعروف وأنهاي عن المنكر ، أمضي كالبستاني
أهذب وأشذب ، الى أن قامت الثورة سنة ١٩٣٦ فتغير كل شيء ...

ثم تعقبت الحكومة الانجليزية الوعاظ ، فلم أر لي وجهة أتجه اليها سوى
مصر ، مصر التي جثتها في الثانية عشرة طالب علم حيث ضمني رواق الشوام
بالأزهر ، لست بالغريب عنها فهي وطني صغيراً وكبيراً .

وعولت أن أشق لي طريقاً بين هذا الشطف الذي يطمسنا ويطمس
فلسطين .. فتقدمت الى دار العالوم ، وفي غرفة خشبية فوق سطح بيت في
قلب زقاق أعمى من أزقة السيدة زينب ، وضعت حياتي الخاصة ، كان البرد

المتجههم يشار كني غرقي شتاء ، والحر المتها لك يسكن معي صيفاً ، حتى تخرجت من معهد التربية وعينت مدرساً ..

وبدأت أجي ثماراً للضريبة الفادحة التي ظلت أدفعها ، ولكن هل من حقي أن أستجيب لهذا الرغد ، وهناك وراء غزة وحولها وفي الاردن عيون كفتحات المغاور تتحرك في بلاهة فوق أفواه نسيت ألوان .. الطعوم .. ؟ » .

* * *

وغداً يصبح الواعظ الفلسطيني دكتوراً في الآداب .. إنها صفحة كفاح ونضال مرير ، طوال حياة خصبة جاهدت من مطالع الشباب عندما انبثقت من أرض فلسطين سنة ١٩١٧ بين غزة و يافا .. حيث مضى يدرس في السوافير فالأزهر ، فاذا به يعود سنة ١٩٣٣ واعظاً فمدرساً ، مجاهداً في سبيل قضية الوطن العربي كله ، مشتركاً في الثورة الفلسطينية الكبرى عام ١٩٣٦ التي هزت الدنيا ، ثم عائداً الى القاهرة سنة ١٩٣٩ ، ليبداً كفاحاً جديداً في مجال العلم والثقافة والفكر ..

وهكذا يرتبط اسم كامل السوافيري في مجال الفكر العربي المعاصر بالأدب الفلسطيني ، فهو هذا المعنى به ، الحريص على متابعة كل ما يكتب عنها ، مراجعاً باحثاً دارساً ، ومن هنا كانت آراؤه وأفكاره في مجال الثقافة إيجابية بناءة ، بعيدة عن الجمود والانحراف ، فهو واحد من أبناء المدرسة الوسطى التي تؤمن بالبناء على الأساس .. يحارب أدب الأبراج والانطواء ، ويدعو الى تذليل الأدب للكفاح من أجل الحرية والوحدة : « جدير بالكتاب أن يقودوا أهمهم الى ضفاف الحرية بعد أن تحطم أغلال الاستعباد بما ينفثونه من أدب واع يدفع للمجد » .

« نريد أن نقضي على أدب التدهور والانحلال الذي يخدر الشعب ، ويهدد غرائزه ، ويصور له الحياة دعة وأمناً لا شقاء فيها ولا كفاح .. »

وهو يرى الشعر تعبيراً صادقاً عن خطرات النفس ، وخلجات القلب ،
ومهمات الروح ، وتصويراً بارعاً للانفعالات والمواقف والأحاسيس ، في إطار
البيان المشرق ، واللفظ الموحى .. وعلى الشاعر الحر أن يعيش عصره ،
ويستلم الأحداث التي تمر بوطنه وأمته ، وتبعث فيها روح الكفاح والنضال
لتنتقل الى طريق الحرية .. »

* * *

وبعد : فإن كتاب الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين عمل ضخم
كبير ، لولا أنه قد فوت بعض الإحصائيات والمراجعات ، وربما كان مرجع
ذلك الى أن الرسالة قد عاشت سنوات بعد إعدادها ، وقبل طبعتها ، مرجأة
في ظل مشاغل الأساتذة والباحثين ، ولقد كنت أود لو أن أخي السوافيري
قد أحصى فعلاً كل ما كتب عن فلسطين ، ولم ينس كل ما صدر عنها من
مؤلفات ، وما كتبه الكتاب عنها في فصول وانتاج ... ولم يكتف ببعض
الأسماء القريبة منه ، وجانب آخر وددت لو أنه اهتم له وأولاه رعايته ، ذلك
هو جانب الشعر العربي في ليبيا وتونس والجزائر والمغرب ، عن مأساة فلسطين
خلال هذه الفترة ، وهو شعر كثير وجدير بالدراسة فعلاً ، فهذا الجناح الأيسر
من الأمة العربية قد تأثر بقضية فلسطين وعاشها ونظم فيها ، في عديد من
مناسباتها وأحداثها ، وأمامي شعر كثير في فلسطين لشعراء الجزائر والمغرب
بالذات ، أمثال سحنون ومحمد العيد وعلال الفاسي وعبد الله كنون وكثيرون
آخرون .. ولقد كان هذا الشعر خليقاً بأن ينال عناية الباحث كما عني بشعر
المهجر .. فلعله يضيف الى دراسته من بعد فصلاً عن هذا الشعر المغربي العربي ..
وما تزال فلسطين حية وما يزال الانتاج حولها قوياً متدفقاً ..

● كامل السوافيري : المعلم الفلسطيني الذي يتقدم الآن نحو إحراز إجازة الدكتوراه
في الشعر الفلسطيني ، له أبحاث متعددة في الرسالة والثقافة
والأديب ، والقلم .

كامل كيلاني أدب الطفل العربي

في (٩ أكتوبر ١٩٥٩) عبر كامل كيلاني الى الشاطئ الآخر مودعاً دنياه
بعد حياة عريضة ، وبالرغم من قصرها فقد حفلت سنواتها الستون بأعمال
ضخمة في الأدب والفكر ، كان أعظمها اخراج « أدب طفل عربي » لأول مرة
في تاريخ الأدب العربي الحديث .

وقد التفت « كامل كيلاني » الى هذا العمل في الثلاثينات من هذا القرن ،
ورأى ضرورة إنشاء هذا الفن ، ثم فرغ نفسه له وجرد فكره وظل يعمل
ثلاثين عاماً كاملة ، كتب خلالها ألف قصة ، وكان ما طبع منها موضع تقدير
الباحثين والمستشرقين والمفتربين ، وتربى عليه جيل من أعلام العالم العربي
وأمرائه ووزرائه ، الذين كانوا يزورون القاهرة ليقدمون له عبارات التقدير .
وليس ابلغ في هذا المجال من تقدير أمير البيان « شكيب ارسلان »
له حين لقيه لأول مرة في القاهرة .

وقد عاش كامل كيلاني حياته كلها يعمل دون أن يلقى جزاء عمله ،

شأن الأحرار في عهود الظلم، و العباقرية في ظل الأيام المظلمة. فقد عجز اهل جيله أن ينصفوه ، فلما جاءت الثورة تطلع الى الأمل الذي بدأ يتحقق ، حين تعالت الصيحات من كل مكان تطلب منحه جائزة الدولة ، باعتباره رائداً لفن جديد من فنون الأدب العربي ، شق الطريق اليه في قوة وارتاده من بعده كثيرون يدينون له بالسبق والفضل .

وقد ولد كامل كيلاني في حي القلعة بالقاهرة في ٢٠ أكتوبر ١٨٩٧ ، في منزل يطل على جبل المقطم ، وحفظ القرآن ودخل مدرسة أم عباس ، وأدمن حفظ الشعر ، وعكف على دراسة الأدب الانجليزي ، وانتسب الى الجامعة المصرية القديمة . وحضر دروس الأزهر الشريف وعمل مدرساً وموظفاً في الأوقاف ، حتى بلغ منصب سكرتير مجلس الأوقاف الأعلى ، وعمل بالصحافة ، وكتب في النقد الأدبي وتأديب التاريخ والترجمة وتحقيق الأعمال الأدبية الكبرى . ثم جرد نفسه لأدب الطفل .

وكانت آخر قصصه « نعمة الجبل » التي كتبها وهو في فراش المرض الخطير الذي اودى به ، ولعله أراد أن يسجل مشاعره حين يقول في هذه القصة : « لطالما أفسد المتعجلون المتسرعون - من بني الإنسان - جهود المصلحين من أبناء « عبقر » ، ووقفوا عقبة كأداء في حياتهم ، وحاولوا بينهم وبين إتمام رسالتهم ، بعد أن غاب عنهم فهم مغزاها والنفاذ الى جليل معناها ، فلم يبق أمامهم الا أن يوصدوا أبواب النجاح في طريقهم ، ويتعقبوهم باللوم والتخذيل ، ويقيموا السدود والعراقيل ، حتى اذا ماتوا وضع لهم ما ند عن فهمهم وغاب عن علمهم ، فانطلقوا يقيمون لهم التماثيل واللوحات ، ويفدقون عليهم الرحمات ، بعدما أسلفوا في حياتهم من إساءات وألحقوا بهم من شرو وأذيات » .

وبعد ، فان المستعرض لوقائع حياته يجدها حياة خصبة عريضة على الرغم من قصر أيام هذه الحياة (١٨٩٧ - ١٩٥٩) ، التي لم تزد عن اثنين وستين

عاماً . وآية الأدلة على مدى خصب هذه الحياة وعمقها ، أن صاحبها عمل مدرساً وموظفاً وصحفيًا وكاتباً . فهو بذلك قد جمع مختلف ألوان العمل الذي يمكن ان يساهم فيه الفكر العربي . فقد كان لا بد ان يكون الكاتب في الشرق وله عمل محدود ورزق ثابت ليستطيع بعد أن ينتج في الادب ، ويستغل أوقات فراغه للبحث والدراسة ، ولا بد أن يكون ذلك على حساب صحته وأعصابه فإن الفكر الذي يشغل سحابة يومه بالعمل الروتيني الحكومي ، وينفق فيه من جهده وروحه ، لا يلبث أن يحد نفسه قد قضى على فترة الراحة اليومية ، لبدأ عملاً جديداً يقضي فيه عينيه طوال ليله ، ولا شك أنه عمل فكري أشد مشقة وعنتاً .

وقد شغل الكيلاني نفسه بالعمل الأدبي في أربعة ميادين كبار : « النقد الأدبي » فقد دخل كامل كيلاني في مساجلات أدبية عنيفة ، كان فيها مثلاً من أمثلة استقامة النقد وبراعة الحجعة والقدرة على كشف الزيف وتسديد الضربات ، ولكنه لم يواصل العمل في هذا الميدان فقد أحس بأنه يستطيع أن ينتج في ميدان آخر .

ولعل طبيعته الهادئة التي تصدف عن الشجار والدخول في السجال والتي ترغب عن العنف والتحدي هي التي صرفته عن النقد صرفاً ، ظهر واضحاً فيما بعد ، عندما امتدت المعركة من جانب واحد بينه وبين واحد من زملاء صباه ، فاستمرت ثلاثة أعوام أو تزيد لم يشترك فيها كامل كيلاني بكلمة واحدة . واستطاع أن يغمض عينه ويرخي أذنه ويقفل فمه ، فلا يرى ولا يسمع ولا يتكلم .

وله في ذلك حكمة بالغة ، فهو يرى أن السجال سينحرف بصاحب العمل الأدبي أو الرسالة الكبرى عن « الطريق الواسع » ، فيدخل في حوارية ضيقة وأزقة تقتل وقته ، فلا يكاد يصل مرة أخرى الى مكانه الا بعد أن يستنفد وقتاً طويلاً . وربما لا يهتدي الى طريقه مرة أخرى .

واشتغل «بتأديب التاريخ» : فحول التاريخ الى عمل أدبي ، وهو مذهب كان إذ ذاك جديداً (سنة ١٩٣٦ وما بعدها) ، لم يقتحم سبيله الا القليل من الكتاب ، فأخرج مصارع الخلفاء ومصارع الاعيان . حيث عرض صوراً رائعة لنهاية حيوات الأعلام . ورسم هذا المواقف بريشة قصصية رائعة ، وهذه هي بواكيره في الاتجاه الى القصة .

واشتغل بالترجمة : فترجم قصصاً رائعة من أدب الغرب .. راعى فيها أن يقدم لنا فنوناً من الأدب الفرنسي والانجليزي متخيرة .. توسع آفاق أدبنا وتمده بالخصب ، وكان في ذلك يود على الانحراف الذي عرفت به (الترجمات) التي كانت تختار قصصاً منحرفة مكشوفة ، تعرض مشاكل في المجتمعات الفرنسية لا تهمننا كثيراً .

وفي ميدان الترجمة تجلّى مدى ما أنفق كامل كيلاني من جهد في سبيل تعليم نفسه ، والتوسع في فهم اللغتين ، والنقل منها وتذوق آثارها ، فهو واحد من ذلك الجيل الذي تعلم على الكتب وحدها ، ووصل في ذلك الى حد كبير ، وإن كان كامل كيلاني قد ترجم « نظرات في تاريخ الاسلام » لدوزي « و « فن الكتابة » فإن عمله الأكبر في الترجمة إنما جاء بعد .

واشتغل بتحقيق الأعمال الأدبية الكبرى ، وفي مقدمة ذلك « رسالة الغفران » وديواني ابن الرومي وابن زيدون وكان في ذلك رائداً ، فلم تكن رسالة الغفران عندما حققها كامل كيلاني معروفة الا في حدود قليلة ، وفي بيانات علمية ضيقة ، فلما حققها وأذاعها لقيت رواجاً عجبياً وإقبالاً بارعاً ، مما دعا الى إعادة طبعها مرتين بعد المرة الأولى مزينة منقحة . ولقد كان كامل كيلاني فيها (مدرساً) أكثر مما كان (أديباً) ، فانه قد اخفى الأجزاء العسيرة عن القارئ وقدم له السهل اليسير منها ، وأراد أن يتدرج حين اعد « المكتبة العلانية » وأصدر منها كتابين باسم « حديقة أبي العلاء » .

ولا يزال يوجد في مكتبة الكيلاني رسالة الغفران مترجمة الى اللغة العربية

على حد تعبيرة لي ، فقد رأى أخيراً أن يترجمها الى اللغة الوسطى القريبية من مستوى الأفهام ، وكان تحقيقه لديوان ابن الرومي عملاً جديداً أيضاً في الوقت الذي لم يكن هذا الشاعر معروفاً للكثيرين ، وكان هو واحداً ممن عرفوا الأدب العربي لمعاصريه ، وكان زميلاً لها المازني والعقاد . وله مراجعات وتحقيقات في دواوين أبي العلاء وابن زيدون ما تزال محفوظة في أوابير ضخمة ، تدل على مدى الجهد الضخم الذي بذله فيها .

ولكن هذا العمل كله لم يكن هو العمل الأصيل الذي أعدت الأقدار كامل كيلاني له ، وإنما كان كله مقدمات للعمل الكبير الذي توفر له وتخصص فيه ذلك هو كتابه « أدب الطفل » ، التي بدأها في نهاية عام ١٩٢٩ بقصة « الدجاجة الصغيرة الحمراء » ، والتي لم يلبث أن انصرف إليها إنصرافاً كاملاً ، ونفض يده من كل عمل أدبي سواها ، وشحذ كل أسلحته لها وبدأ يقرأ لها ، قراءات متصلة في الأدبين الفرنسي والانجليزي ، وكان قد أجادها إجادة تكاد تساوي إجادته للغة العربية .

ولا شك أن لهذا العمل أعماق بعيدة في نفسه ، صورها في أكثر من حديث ، حين كان يقرأ في مطلع صباه بإفاسة وشرافة قصص سيف بن ذي يزن والظاهر بيبرس والاميرة ذات الهممة وغيرها ، وحين اتصلت أسرته بأسرة يونانية كانت سيدتها تقص عليه وهو طفل أساطير الإغريق ... ثم كان لعمله كمدرس دوره الضخم في فهمه لعقليات الأطفال وأهوائهم ، أعانته على حسن الاختيار والتدرج والتوفيق في الحديث معهم ، وقد طبق هذا على ابنه « مصطفى » فجعله معمل الاختبار وصار يرقى بالقصة مع ارتفاع سنه .

وكان لدراسته في الأزهر فترة من الزمن ، تأثيرات في حياته بقي أثرها عنده في عمق فهمه للغة والنحو والصرف والمنطق ، وكان لاتصالاته بالمستشرقين والعلماء الأجانب في الجامعة المصرية القديمة من ١٩١٧ الى ١٩٣٠ أثرها الكبير . أضاف الى هذا أثر الصحافة . فقد اشتغل بها منذ سنة ١٩٢٢ محرراً لمجلة الرجاء ،

ثم اصف الى ذلك ما أكسبه إياه اتصاله بالتمثيل والموسيقى وفنون المسرح المختلفة ، مما أعانته على حسن الرواية وبراعة الحبكة ، فاذا أضفنا الى ذلك روحه الانسانية الشاعرة الرقيقة ، فقد كان كامل كيلاني الى ذلك شاعراً مقلداً ومجيداً ، استطعنا أن نعرف سر اللمسات الرائعة في قصصه ، فهو قد مزج الأدب العالمي بالأدب الشرقي بعوالم الأساطير ، وأضاف ذلك كله الى تراثنا العربي الضخم العريق . بعد أن رسم لشخصيتنا العربية ملامح واضحة ثم جعل من هذا الحصاد الضخم كله سداً لهذه الشخصية ولحمة ، فقد كان حفيظاً بأن يقدم لنا قصصاً يحمل طابع الانسانية والعربية معاً ، قائماً في هدفه على المثل العليا والقيم الروحية ، فكان يحرف القصص القديمة في نهايتها القائمة او الآثمة أو السوداء الى شيء من التفاؤل والضوء والخير ، فهو خير بطبيعته قد آمن برسالة « أدب الطفل » إيماناً قلبياً صادقاً ، ثم جعل عقله في خدمة هدفه ، ولم يجعل للكسب المادي سبيلاً الى نفسه . فقد ظل يعمل في أدب الطفل قرابة خمسة عشر عاماً ، دون أن يجني منه ثمرة تشجع العامل أو تدفعه ، ومع ذلك فإن هدفه الكبير الذي كان مؤمناً به كان يدفعه في صدق وعزيمة .

والكيلاني رجل له إصرار وفيه صلابة ، على الرغم من مظهره الهادئ اللين البسام ، وقد جعل من هذا العمل هدفاً كبيراً وغاية عظيمة ، فهو إنما أراد أن يحارب عملاً ضخماً كان موجهاً ضد اللغة العربية ، لتمزيقها أو تحطيمها أو تغليب العامية عليها ، فبلغ به البراعة أن ترك ميدان المعركة والجيل كله الذي يشترك فيه ، واندفع يتعامل مع الجيل الجديد ، فاستطاع أن يتصل به بواسطة آباءه وأهله ، عن طريق قصصه الملونة المطبوعة طبعاً أنيقاً ، والمكتوبة في سطور جميلة مشكلة ، كان يقدم هذه القصص للآباء الذي قد يكونوا لا يتكلمون كلمة واحدة في بيوتهم باللغة العربية ، فاذا بها تنفذ الى الأطفال فتتشيء فيهم هذا اللسان العربي البليغ المستقيم ، وبذلك نشأ جيل جديد أصدق إيماناً باللغة العربية من آباءه أنفسهم ، وهكذا كسب المعركة ، وفوجئ الذين كانوا يحملون الدعوة بها وهي تنهار مرة واحدة .

ولقد اندفع كامل كيلاني يكتب في عنف ، ويسحق أعصابه سحقاً ، فكتب الف قصة ... ولقد قتلته هذه القصص قتلاً ، ففقد نظره دفعة واحدة ، ثم استرده بعد عملية جراحية ، ولكنه لم يكن هناك سبيل لأن يتوقف ، فمضى يستأنف عمله مرة أخرى في عنف ، ولكن معدته وأعصابه لم تحتمل الجهد الذي استنزف الشباب والصحة والقوى فانهار مرة واحدة ...

ولم يطبع حتى الآن من هذه القصص الا ما يقارب المائتين .. والباقي في الطريق ، كل ما هنالك أن الماكينة لم تتوقف بعد وفاته لأن ابنه « رشاد » مؤمن برسالة والده مدفوع الى حماية تراثه ، متجه الى أن يضي في العمل ويكمله ، ويكتب القصة أيضاً على هذا النحو الذي بدأه والده العظيم .

فإذا ذهبنا نتصور الأثر الذي تركه هذا العمل الكبير ، فإننا نجد الآن أن هناك أكثر من ثلاثين كاتباً عربياً يكتبون قصة الطفل ويفرقون بها السوق . ولقد كانت فرحة كامل كيلاني باتساع الميدان وكثرة العاملين فيه بالغة ، فهو ليس الأثافي الذي يريد أن يقف العمل عنده وحده ، ولذلك فقد سارع عندما تعدد الكتاب ، أن نشر في الصحف فصولاً ومقالات يشرح « فن قصص الطفل وأساليب كتابته » ، وما يجب أن يراعى لخلق ثقافة عربية ذات طابع عميق قائم على أساس المثل العليا والقيم والخير ورعاية هذه البراعم الصغيرة من أبنائنا .

وما تزال آثار كامل كيلاني في أدب الطفل تتميز بروحها العالية ، وصدق توجيهها ، وعقيدة إيمان كاتبها بالأمانة : أمانة هذا الطفل الذي يشكله كاتب القصة .

ولم يقف كامل كيلاني عند هذا الحد ، بل إنه ترجم قصصه الى الفرنسية والانجليزية والألمانية والاسبانية ، وأراد بذلك أن يقتحم كل بلد يعرف اللغة العربية دون أن تكون اللغة الاجنبية حائلاً دونه ، وبذلك استطاع أن يصل الى أندونيسيا والباكستان والهند والى المغرب ، والمناطق التي يحتلها الفرنسيون

في أفريقيا وآسيا ، وكذلك المناطق التي تغلب فيها اللغة الأسبانية والألمانية ، كما ترجمت قصصه من ورائه الى اللغة الصينية والعبرية .

وكان فرحه بهذا العمل بالغاً ، فهو موكل بأن يخدم اللغة العربية في مشارق الارض ومغاربها ، ما استطاع ذلك وما واثته الوسائل .

وبالرغم من هذا الجهد الضخم فقد مات كامل كيلاني فقيراً ، ولو أراد أن يلعب بالذهب لإستطاع . ولكنه كان صوفي الروح ، يؤمن بأن المنار الخالد الذي أقامه سيضيء شواطئ الأمة العربية أبداً الدهر دون ان يخبو نوره . وفي ذلك له خير جزاء وعزاء .

● كامل كيلاني : رائد أدب الطفل في العالم العربي توفي في أكتوبر ١٩٥٩ .

ألف قصة للأطفال على مدار العمر ، طبع منها حتى الان (٢٠٠ قصة) ، ترجمها للإنكليزية والفرنسية والأسبانية .

من مؤلفاته : روائع من قصص الغرب ، صور جديدة في الأدب العربي ، عشر أغان مختارة مع تدوينها بالموسيقى (بالاشتراك) ، مصارع الخلفاء ، مختار القصص ، نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي ، موازين النقد الأدبي (مترجم) ، رسالة الغفران : حديقة أبي العلاء ، على هامش الغفران ، ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الاسلام (ترجمة) ، فن الكتابة وكيف ندرس فن الانشاء .

محب الدين الخطيب مجلة الفتح

من خلال ثمانين عاماً تبرز صورة « الصحافة الاسلامية » واضحة عندما أصدر جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في باريس جريدة « العروة الوثقى » عام ١٨٨٤ ، فكانت الحجر الأول في بناء الصحافة الاسلامية في العالم الاسلامي ، تحمل طابع الدفاع عن الاسلام وتحرير بلاد المسلمين ، أو على حد تعبير السيد محب الدين الخطيب : « الدفاع عن حقائق الاسلام وحقوق المسلمين » ، ولكن العروة الوثقى لم تستمر طويلاً ، فقد توقفت بعد أن أصدرت ثمانية عشر عدداً ، حيث واجهها الاستعمار بحرب عنيفة ومقاومة ضخمة في كل أنحاء العالم الاسلامي ، وفرض على من توجد عنده غرامة كبيرة . ولكن « العروة الوثقى » كانت البذرة الأولى لهذا اللون من الصحافة الاسلامية الذي إمتد الى يومنا هذا .

فقد تأثر بها « محمد رشيد رضا » الشاب السوري الذي هاجر الى القاهرة من بعد ، وصحب الشيخ محمد عبده ، وأصدر المنار أكثر من ٣٨ عاماً ، منذ عام

١٨٨٩ تقريباً الى عام ١٩٣٧ ، فكانت بذلك أضخم الصحف الاسلامية أثراً وأطولها عمراً .

وفي ظل المنار صدرت مجلات إسلامية عديدة ، كان أبرزها مجلتي الزهراء والفتح للسيد محب الدين الخطيب ، أما الفتح - موضع دراستنا اليوم - فتمتاز بأنها كانت صحيفة إسلامية أسبوعية ، إستمرت في الصدور ربع قرن ، وتركت حصيلة ضخمة من الثقافة والفكر ما تزال مورداً للباحثين .

وقد صدرت صحف إسلامية عديدة في خلال هذه الفترة في مختلف أنحاء العالم الاسلامي ، منها « التمدن الاسلامي » في دمشق و « شمس الاسلام » في تونس ، و « البصائر » في الجزائر و « البشري » في حيفا و « أم القرى » في مكة المكرمة و « الاعتصام » في حلب و « المرشد » في بغداد و « مرآة الحمدي » في جاكركا و « المهدي » في ماليزيا و « منبر الاسلام » و « الازهر » في مصر .

ومع ذلك فقد ظلت الفتح ما بين ١٩٢٦ - ١٩٥١ أبرز هذه الصحف وأقواها وأبعدها أثراً في العالم الاسلامي وأقدرها انتشاراً في مختلف الأقطار .

ويرجع ذلك الى منهجها الذي يختلف عن منهج « المنار » ، ولكونها تصدر أسبوعية وليست شهرية ، مما حقق لها مقارعة الأحداث قرعاً مقارباً ، وأتاح لها مصافحة القارئ المسلم على مدار الأسبوع ، فضلاً عن اهتمامها الواسع بالفكر الاسلامي أكثر من السياسة ، وتنشئة جيل ضخم من كتّاب العالم الاسلامي ، بينما كانت المنار تقتصر على كتابات صاحبها وقليل جداً من أصدقائه .

* * *

وفي مراجعة شاملة لصحيفة الفتح تبرز حقيقتان كبيرتان :

الأولى : أنه ما من قضية كبرى من قضايا العالم الاسلامي ظهرت في تلك الفترة الا وكانت « الفتح » مشاركة فيها على المدى الواسع والعميق .

الثانية : أنه ما من كاتب معروف الآن في العالم العربي أو الاسلامي الا وقد كتب في « الفتح » في مطالع شبابه .

وقد حاول السيد محب الدين الخطيب أن يصور هدف صحيفة « الفتح » فكتب في العدد الاول من السنة التاسعة « ١٣٥٣ هـ » يقول :

« إن الفتح أنشئت لمباشرة الحركة الفكرية الاسلامية ، وتسجيل أطوارها ، ولسد الحاجة الى حاد يترنم بحقائق الاسلام ، مستهدفاً تثقيف النشء الاسلامي ، وصبغه بصبغة إسلامية أصيلة ، يظهر أثرها في عقائد الشباب وأخلاقهم وتصرفاتهم ، وحماية الميراث التاريخي الذي وصلت أمانته الى هذا الجيل من الأجيال الاسلامية التي تقدمته » .

وعقيدته في ذلك أن المسلمين أمة واحدة ، نفوسهم تتصل بأصرة واحدة ، وعقولهم تشارك في عقيدة واحدة ، وقلوبهم تتحرك بأمنية واحدة .

وكانت دعوته الى « التشريع الاسلامي » ، « فهو أرحم واعدل من كل تشريع تقدمه أو جاء بعده » ، ومن الخير لحضارة الغرب والقائمة الآن أن تقوم الى جانبها حضارة اسلامية ، تتذوق بها الانسانية لوناً آخر من ألوان التعاون الانساني » .

والواقع أن « الفتح » قد صدرت في خلال فترة عصيبة من تاريخ أمتنا السيامي والثقافي ، فان سنوات الثلاثينات والاربعينات كانت أقسى السنوات على العالم الاسلامي والفكر الاسلامي ، من ناحية محاولات التدمير والتفريب الضخمة التي حمل لوائها النفوذ الغربي ، لتثبيت كيانه ، وهدم صرح القوة الفكرية والروحية في هذه الامة .

وهذا هو العمل الحقيقي الذي تصدت له الفتح وحملت لواءه ، ومن هنالم تكن الفتح « صحيفة » وانما كانت « مدرسة » ، فان محب الدين الخطيب الذي جمع اليه كتاب العالم الاسلامي حيث كانت صحيفته منبراً لهم ، لم يلبث أن جمع اليه قادة الفكر في مصر ليقم جمعية « الشبان المسلمين » ، لتقف في وجه الحملات

الضخمة الموجهة الى الاسلام ، وقد سارت الفتح والشبان في طريق واحد ، تستمد من إيمان هذا الرجل وحاسته وصدقه . « القوة » ، وهو طاقة كبيرة ما تزال حية تعمل حتى الآن في مجال خدمة الفكر الاسلامي ، وهو على وشك أن يكمل الثمانين من الاعوام أطال الله عمره .

وقد واجهت الفتح قضايا التغريب والإلحاد ، وحملت على كل الفرق في الطوائف والمذاهب المنحرفة المضللة ، ولم تترك الفتح كلمة تنشر في الصحف المصرية أو العالم الاسلامي فيها اتهام للاسلام دون أن ترد عليها وتكشف زيفها كما قدم صاحبها كتاب « الغارة على العالم الاسلامي » حيث كشف لأول مرة عن مؤامرات التبشير .

وكانت أمانته للشمال الافريقي كبيرة ، فقد حمل لواء الجهاد مع هذه الأقطار على نحو باهر خلال حروب محمد عبد الكريم الخطاطي في الريف المغربي ، ومقاومة الظهير البربري في المغرب ، ومؤامرات التجنيس في تونس ، وقد حفلت الفتح بكتابات المغاربة حتى يمكن أن تكون الفتح مرجعاً هاماً لكل باحث عن قضايا الفكر والثقافة في المغرب العربي في هذه الفترة .

أما بالنسبة للعالم الاسلامي ، فانت تقرأ لمحمد مكيين الصيني ، وخالد شلديريك رئيس الجمعية الاسلامية في لندن ، وأخبار المسلمين في البوسنة والهرسك ، ودراسة حالة المسلمين في ميلبار ، والاسلام في شرقي إفريقيا ، وقضية فلسطين ، وتعليم اللغة العربية في الهند ، ومشكلة المسلمين في الحبشة ، وعرب زنجبار ، والاسلام في أندونيسيا ، وعن مسلمي بولونيا ، وكتابات أبو عبد الله الزنجاني من إيران ، ومقالات مطولة عن حاضر مسلمي الهند وغابريهم ، وعن المعاهد في طرابلس وبرقة .

وبالجملة تجد موسوعة عامة لتطورات الفكر والسياسة في العالم الاسلامي كله ، من أقلام : شكيب أرسلان الذي يكتب أسبوعياً تقريباً من جنيف ، مستعرضاً كل ما يكتب عن الاسلام في أوروبا ، واسماعيل الندوي وشبلي

النعماني ومسعود غانم الندوي في الهند ، كما تنشر شعر بهجت الأثري عالم العراق الكبير ، وديوان مجد الأسلام للشاعر أحمد محرم الذي نشرت أول فصوله في الفتح ، ومحمد تقي الدين الهلالي ، والشاعر محمد النجمي ، والشيخ مصطفى الرفاعي وعمر الدسوقي ، ومن المغرب أحمد بلقريج ، ومن القوقاز عبد الرشيد ابراهيم تلميذ جمال الدين ، والدكتور علي مظهر ، وعجاج نويض من (لبنان) والرحوم الدكتور مصطفى السباعي (دمشق) والدكتور يحيى الدرديري ومحمد كامل القصاب ومحمد الهياوي .

* * *

وآراء السيد محب الدين الخطيب واضحة صريحة ، وأسلوبه مشرق مضيء ، يقول : « أنا أعرف نفسي منذ طفولتي أنني من أنصار الإصلاح الإسلامي ، وكنت ولا أزال أفهم من هذه الكلمة الاصطلاحية أن الاسلام الذي كان عليه محمد - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه كما فهمه منهم التابعون ، فالاصلاح الاسلامي هو تجديد الاسلام من البدع الطارئة عليه ، وتخليصه من الدخيل الذي يحسب الجاهلون أنه منه وما هو منه ، ومن الإصلاح الاسلامي بث روح النشاط بين المسلمين ، لإحياء مقاصد دينهم ، وتحقيق أغراضه ، وحسن التعبير عنه من الدعوة اليه ، وتأليف الكتب عن حقائقه وأحكامه وتاريخه » .

وهو يدعو المسلمين الى العمل الايجابي من أجل اللحاق بركب النهضة حتى لا يتخلفوا عنه ، داعياً الى اعداد رجال يقتدسون الصناعات ويتخصصون في العلوم اللازمة لها ، والاكتثار من أهل المعرفة في فنون القوة .

وعنده « أن الاسلام ليس دين عقيدة وعبادة فحسب ، بل الاسلام ثقافة طبيعية لأرواح ألفتها وعاشت به وكان مبعث قوتها وسبب اعتلائها » والاسلام « فوق ذلك تاريخ أمجاد تحسداً عليها جميع الامم ، وابعاد العروبة لا ينفك تاريخها من تاريخ الاسلام بحال ، فإذا حيل بين الاسلام والعروبة كانت العروبة

جسماً بلا روح وكان الاسلام روحاً بلا جسد ، وهذا تاريخنا العربي من بدايته الى اليوم ، لا نراه ازدهر وانتعش وكان مظهر العز والقوة ، الا في الأدوار التي كانت الاسلام يزدهر فيها وينتفش ، وبأخذ نصيبه من العز والقوة ، ويكذب من يظن أن العرب تنمو عزتهم بروح أجنبية غير روح الاسلام .

ولست أعرف كاتباً كان أوضح رأياً في ربط الاسلام بالعروبة على النحو الذي يحقق فلسفة اليقظة وبناء النهضة ، كما يفعل السيد محب الدين الخطيب منذ سنوات طويلة ، فهو مؤمن بامتزاجها واستحالة انفصامها ، وهذه عبارته :

« إن العروبة ظئر الاسلام ، وإن العروبة والاسلام كلاهما من كنوز الانسانية وينابيع سعادتها ، اذا عرف أهلها قيمتها وإذا أتيت لها أسباب الظهور للناس على حقيقتها . وإذا ذلت العرب ذل الاسلام » ويقول : « إننا عرب قبل أن نكون مسلمين ، وهذا حق ، ولكن لم نكن شيئاً قبل الاسلام » .

ولقد عاش السيد محب الدين الخطيب حياته يدعو الشباب الى التخصص في دراسة الفكر الاسلامي وتحليله من الكتب القديمة وعرضه على النحو العصري الحديث ، الذي يتيح للمثقفين الانتفاع به ، ويرد عنه عادية خصومه حين يتهمونه بالضعف أو الاضطراب ، يقول : « أنا منذ بضعة عشر عاماً الى الآن أدعو شبابنا المثقف الى التخصص في دراسة نواحي هذا الميراث المجيد ، وتنظيمه على النحو الذي يفعله المستشرقون والمستغربون ، ولكن بنية غير نيتهم فهم ينظرون اليه بعين الأم الى بناتها ، أما المستشرقون فيدرسونه ليستعينوا به على استعمار أوطاننا . ونحن ندعو شبابنا أن يدرسوه ليصلوا به آتينا بماضينا ، ويتخذوا من قوته حصناً يجمع شتاتنا ويحمي حماة » . كما يدعو الى إعادة النظر في علوم الاسلام وتاريخ أهله ، بعرض الحوادث الخطيرة في تاريخنا على نحو جديد .

ويؤمن السيد محب الدين الخطيب بالتربية ، فالعلم وحده - عنده - لا ينهض بالأمم فلا بد من « التربية » .

ويصور ازمة العالم الاسلامي في افتتاحية مجلة « الزهراء » عام ١٩٢٤ وهي
مجلة ممتازة استمرت حتى عام ١٩٣٠ يقول :

« تأصل في نفسي منذ أعوام كثيرة أن الناطقين بالضاد لا تثبت لهم نهضة ما
لم تكن قائمة على دعامتين :

١ - المرونة في الاقتباس من حضارات الأمم الاجنبية في وسائل القوة .

٢ - الاحتفاظ بتقاليدنا التاريخية وأوضاعنا الوطنية ولساننا الأصل .
وقد قص علينا التاريخ أن الأقوام الذين جمدوا عند تقاليدهم ، فلم يدعموا كياناتهم
القومي بدعامة الارتقاء والتجديد ، ضرب على قلوبهم بالانسداد فتصرف فيهم
أهل القوة والحياة ، كما أنبأنا التاريخ أن الاقوام الذين استهواهم تقليد الأغيار من
أهل القوة ، فيما ينافي كياناتهم القومي فانسلخوا من سجاياهم وفرطوا في
تقاليدهم وتركوا حدود لغتهم مباحة لاحتلال اللغات الاخرى ، لم ترجمهم
الأمم الأجنبية التي ذابوا فيها فاهتضمتهم حتى لم يبق لكيانهم الاجتماعي من
باقية » .

وهو يركز دعوته في الاصلاح على هدفين : « المدرسة والصحافة » فيقول :
« إنما أتينا من جانب المدرسة والصحافة ، فهما اللتان كونتا رجالنا
وجاهيرنا كما نرى ، ولن نتقي شر الاحتلال الذي نتوقع أن ينزل بنا ، ما لم
تكن لنا مدارس وصحفاً مؤسسة على جلايد من الايمان بالهداية المحمدية ، لا
تزعزعها الزلازل ، وعلى دعائم من الوفاء للتاريخ العربي يفني الزمان ولا يفنى » .

وفي حدود هذه المفاهيم الواضحة للاصلاح في مجال الثقافة والفكر مضى قلم
السيد محب الدين الخطيب يكتب في خلال خمسين عاماً ، وكانت أنصع فتراته
« صحيفة الفتوح » التي تكون الآن أكثر من ٣٥ مجلداً تضم ٣٠ ألف صفحة قوامها :

١ - الدفاع عن حقائق الاسلام .

٢ - حقوق المسلمين .

- ٣ - مقاومة تيار الالحاد .
- ٤ - الرد على خصوم الاسلام .
- ٥ - حماية اللغة العربية .
- ٦ - بعث الأجداد والمفاخر الاسلامية .
- ٧ - إحياء التراث الاسلامي .
- ٨ - تصحيح التاريخ الاسلامي .
- ٩ - امتزاج العروبة بالاسلام .
- ١٠ - السلفية النقية في العودة الى منابع الاسلام الأولى .

وقد واجهت الفتح متاعب كثيرة كانت تطارد من السلطات الاستعمارية في المغرب العربي بالذات .. فكانت تهرب في جيوب الناس وأسنة الجمال ، وتغير كليشيتها بإسم صحف أخرى كالمنهاج والاخلاق حتى تستطيع أن تصل الى الناس . يقول : « كانت الفتح قبل نشوب الحرب الكبرى الثانية - تطوي أنحاء العالم الفسيح ، وتعلم أهلها ما يجب عليهم لدينهم ووطنهم ، فلما شبت نار الحرب أقفلت الطرق وامتنع على الفتح أن تجتاز مسالك الجهاد في معظم جهات العالم » .

وهي التي ورثت المنار بعد وفاة رشيد رضا ، وشاركت مع مجلة نور الاسلام والازهر في الدعوة الاسلامية ، واعترف الدكتور كمبغاير المستشرق الألماني بدورها الهام وأثرها الواضح .

ومع ذلك فلم تكن « الفتح » هي قصارى جهد هذا العلامة الكبير .

فلا شك أن تاريخ السيد محب الدين الخطيب حافل بأعمال أخرى منذ مطالع شبابه ، حيث اتجه الى تأليف الجمعيات الوطنية السرية في دمشق ، هذه البذرة القوية التي حققت من بعد بروز القومية العربية ، على نحو حقق للعرب القدرة على ابراز كياناتهم ، ومقاومة عوامل إفنائهم في الدعوة الطورانية التي حملت لواغها تركيا .

وكانت مطالعات الشباب هي الأسس الأولى في تكوين شخصيته ، فقد قرأ مؤلفات « ابن تيمية » ودعوته الى معرفة الاسلام من ينابيعه الصافية .

وهو في خلال إقامته في دمشق واستانبول ، كان حافياً بأن يعمل من أجل تثقيف جيل وانشاء طلائع مؤمنة بالعروبة والاسلام معاً ، وظل دائباً على هذا العمل مع أصدقاء شبابه : عارف الشهابي وصلاح القاسمي وصالح قنباز ولطفي الحفار وزكي الخطيب ورشدي الحكيم . وكان لأبيه الروحي الشيخ « طاهر الجزائري » أثر وفصل ، فقد أوسع له مجال القراءة والاطلاع في دار الكتب الظاهرية ومجال ترجمة المقالات من اللغة التركية ، ينشرها في مجلة ثمرات الفنون ، وينشئ حلقاته الصغيرة ، ويقرأ الكواكبي ، ثم يدرس في بيروت بعد دمشق ، وفي استنبول عام ١٩٠٥ يلتحق بكلتي الحقوق والآداب ، ويجمع شباب العرب هنالك في ندوة تقرأ فيها قصاصات الصحف العربية ، ويعلم الطلاب مع صديقه عارف الشهابي اللغة العربية والتاريخ العربي مكاشفاً أصحابه بأن هذا العمل نهضة .

فلما عاد الى دمشق اتخذ من « قهوة محمد آغا » مكاناً لدعوته .

وفي اليمن حيث عمل مترجماً ، مضى في إنشاء فروع لمجعية النهضة العربية ، واستطاع في مطالع شبابه أن يصلح بين الإمام يحيى وبين العثمانيين .

فلما عاد الى دمشق في ظل حكم الاتحاديين هاجمهم بالكلمة والكاريكاتور ، حتى أثار مجلة « طار الحرج » ضجة كبرى لعنف الهجوم ، مما اضطره الى الهجرة الى بيروت فاستانبول فالقاهرة حيث وصلها في أغسطس سنة ١٩٠٩ .

ومنذ ذلك اليوم استقر المجاهد في أرض الكنانة ، ليبداً صفحة جديدة من الجهاد في مجال الفكر والثقافة الاسلاميه عن طريق القلم والصحيفة والمطبعة ، فأسس المكتبة والمطبعة السلفية والتحق بتحرير المؤيد ، وعمل مع علي يوسف أستاذه الأول في الصحافة المصرية ، وعرف أحمد تيمور صديقه الكبير في مجال

العمل الاسلامي . وكان واحداً من أساتذة مدرسة دار الدعوة والارشاد التي أسسها ١٩١٣ الشيخ رشيد رضا يدرس علم الجيولوجيا وسرائر الله في الكون .

ولم يترك العمل السياسي في مجال العروبة خلال هذه الفترة ، حيث انتدب في أوائل الحرب العالمية الأولى لمفاوضة أمراء العرب ابن سعود والامام يحيى والإدرسي باسم جماعة الوحدة العربية ، وهناك في البصرة اعتقله الانجليز « أكتوبر ١٩١٤ » ، حيث أمضى سبعة أشهر يقرأ في السجن تاريخ الكامل لابن الأثير ومروج الذهب للمسعودي .

ثم اختير لتحرير جريدة القبلة عام ١٩١٦ ، حيث أعلن شريف مكة الثورة العربية « وكان مع كامل القصاب مستشارين للأمة العربية لدى الشريف ، فأمضى ثلاث سنوات أحس بعدها أنه لا سبيل الى توجيه هذا العاهل نحو آمال الامة العربية ، وهذه عبارته :

« كان الحسين وأولاده يعيشون بمقلية عصور الإقطاع التي تعتبر الأوطان مزارع للملوك » .

ويرى السيد محب الدين أن الحسين بن علي لم يقم لأجل أن تكون للعرب دولة ، بل قام لأن الاتراك كانوا على نية إبطال إشرافية مكة « فتغذى بهم قبل أن يتعشوا به » .

فلما انتهت الحرب دخل دمشق ، وعمل مع جمعية العربية الفتاة ، وأشرف على صحيفتها « العاصمة » ، ثم تحول وجه الأمر بالنسبة لفیصل واستسلم للحلفاء ، وضاق يجهاد العربية الفتاة ، ووافق على انذار غورو باحتلال دمشق ، وسافر سرآ ليلة الغزو حيث جالد السوريون قوات العدو في موقعة ميسلون ، التي انتهت بدخول الفرنسيين دمشق ، هنالك ركب السيد محب الدين مع أقاربه تجار الجمال برأ على الأبل من دمشق الى القاهرة بوصفه تاجر جمال عربي حتى وصل الى يافا ، ومنها استخرج جواز سفر باسم « عبد الله أبو الفتح » سافر به من يافا الى

القاهرة ، حيث التحق بتحرير جريدة الأهرام « ١٩٢٥ - ١٩٢٥ » ، حيث عاد الى إنشاء المكتبة السلفية وإصدار الزهراء سنة ١٩٢٤ ، ثم أسس الفتح « مايو ١٩٢٦ » .

وأتيح له في هذه الفترة أن يقوم بعمل ضخم لا ينسب اليه الآن ولا يذكر فضله في إعداداته وإنشائه ، وهو جمعية الشبان المسلمين عام ١٩٢٧ مع صديقه الشيخ محمد الحضر حسين وأحمد تيمور باشا وأثني عشر شاباً وفريق من أهل الفضل .

يقول السيد محب الدين : « كان الداعي الى تأسيسها استفحال حركة التبشير من جهة ، ونشاط حركة الاتحاد باسم التجديد ، وذلك على أثر تنكر الكمالين في تركيا للإسلام ، وقد كتم خبرها عن الصحف حتى بلغ أعضاؤها (٣٠٠ عضو) .

ويقول : كنت أنا وأحمد تيمور باشا والسيد محمد الحضر حسين حريصين على أن تكون هذه المؤسسة الأولى للإسلام في مصر ، قائمة على تقوى من الله وأخلاص ، وكنا حريصين على أن يتولى ادارتها رجال يعرفون كيف يصمدون لتيار الاتحاد الجارف ، بعد أن استولى المتابعون للإستعمار على أدوات الثقافة والنشر في العالم الاسلامي وفي مصر على الخصوص ..

ويقول : وكانت الجمعية حدثاً كبيراً من أحداث الحركة الاسلامية ، لأن دعاء الإتحاد والتحلل كان قد استفحل أمرهم ، وظنوا أن قيادة الأمة قد أفلتت من أيدي ممثلي الاسلام وانتظمت الى أيديهم » .

وقد أخذ خصوم الفكرة يتربصون الدوائر بصاحب الفكرة ، حتى نشر مقاله عن أمان الله خان وكمال أتاتورك ، فقدم للمحاكمة على أنه هاجم ملكين فقبض عليه وأودع السجن وحقق معه ، وحكم عليه بالسجن شهراً واحداً مع إيقاف التنفيذ .

ولم يتوقف للسيد محب الدين الخطيب عن عمله في مجال خدمة الاسلام والفكر الاسلامي ، فقد ظل يصدر صحفه كما أصدر عدداً من المؤلفات والآثار أبرزها : اتجاه الموجات في جزيرة العرب ، والريمل الأول في الاسلام ، وموسوعة الحديقة في ١٣ جزءاً ، فضلاً عن مئات المقالات والأبحاث في مختلف الصحف ، أهمها تحريره لمجلة الأزهر ست سنوات « ١٩٥٢ - ١٩٥٨ » .

* * *

وبعد .. فإذا فعل السيد محب الدين بعد ما تقدم منذ ذلك التاريخ ؟ هل أثر الاعتكاف في مكتبته الضخمة التي فاقت مكتبي أحمد زكي باشا وأحمد تيمور باشا فبلغت ٢٠ ألف مجلد حتى الآن ؟ هل استراح الرجل وهو في حدود الثمانين ؟ إنه بدأ عملاً جديداً ضخماً بعيد الأثر في الفكر الاسلامي .

فقد أجرى تحقيقاً علمياً لأكبر كتاب في السنة هو « الجامع الصحيح للبخاري » حيث يجري طبعه الآن في ثمان مجلدات كبار باسم « توضيح الجامع الصحيح للبخاري » ، مع إضافات وتحقيقات للأعلام ، وربط لأحاديث البخاري الممزقة على أبواب الفقه ، حتى يستطيع من ينتفع به أن يلم إلماماً كاملاً على النحو الأصلي لها قبل تجزئتها ، وما يزال كل مار في شارع الفتح حيث يسكن السيد محب الدين ، في أرض الفسطاط أول بقعة عرفها العرب والاسلام في القاهرة ، يراه في جلبابه الأبيض وراه زجاج مكتبته عاملاً لا يمل وساهراً لا ينام ، يريد أن ينجم حياته الطويلة باذن الله والمباركة العريضة بعمل نافع وكبير . ولكن السيد محب الدين ما يزال يطمع في أن يقدم أعمالاً أخرى أهمها تأليف كتاب « الايمان الاسلامي » وكتاب « ذكريات جبلي » وتنظيم وطبع مقالاته وتحديد آلات المطبعة السلفية واكمال وتنظيم وفهرست مكتبته العظيمة ، كتب الله له التوفيق .

● السيد محب الدين الخطيب : من أعلام النهضة العربية ، ومؤسس جمعية الشبان المسلمين ، وصاحب مجلتي الفتح والزهاء ، ورئيس تحرير مجلة الأزهر .

من مؤلفاته : اتجاه الموجات في جزيرة العرب ، الأزهر ماضيه وحاضره ، إيمان العرب في الجاهلية ، تاريخ مدينة الزهراء ، تقويم المجلة السلفية .
الحديقة ١٩٣٥ (عشر مجلدات) ، مع الرعيل الأول ، ناغور ، الدوحة الدرية في الدولة النصرية ، (لسان الدين الخطيب) تحقيق ، الغارة على العالم الإسلامي (ترجمة) ، حملة رسالة الإسلام الأولون .



الدكتور محمد صبري دراسات الشعر العربي المجهول

لا يمكن تقدير العمل الأدبي الكبير الذي قام به الدكتور محمد صبري السربوني بنشر « الشوقيات المجهولة » في جزئين كبيرين ، دون النظر الى الجهد الضخم المبذول في سبيل استخلاص خمسة آلاف بيت من الشعر ، الذي قاله أمير الشعراء شوقي ، ونشر في بطون الصحف والمجلات خلال أربع وأربعين عاماً (١٨٨٨ - ١٩٣٢) ، وهي الأعوام التي مضى شوقي يذيع شعره خلالها في صحف : المؤيد ، والظاهر ، واللواء ، والأهرام ، والمجلة المصرية ، والصاعقة ، والموسوعات ، وعشرات من المجلات ..

فقد صدرت الأجزاء الأربعة من ديوان شوقي بين عامي ١٩٢٦ - ١٩٤٣ ، وتم طبع الجزأين الأول والثاني في حياة شوقي ، والجزأين الآخرين بعد وفاته ، ومر على ذلك ثمانية عشر عاماً حين فاجأ الدكتور محمد صبري قراء الأدب العربي بهذا العمل الضخم ، الذي كرس نفسه له أكثر من خمس سنوات ، وهو يواصل البحث في دور الكتب بالقاهرة ، ويصعد الى دار الكتب في القلعة ،

وهو عمل شاق حيث كان يمضي ساعات الصباح يقلب المجلدات القديمة صفحة صفحة ، يواجه في كل ورقة الأثرية والمشقة ، في هذا السن الذي يعبر به الى الحلقة الثامنة من عمره المبارك ، في صحة جيدة وقوة روحية عارمة وإيمان صادق بالعمل الذي جرد نفسه له ، ليضيفه الى أعماله الضخمة في ميدان الأدب والتاريخ . ويمكن القول بأن هذا الجزء الذي صدر عن مطبعة دار الكتب الرائعة الحروف ، بهذا الحجم الكبير ، وعلى الورق الأبيض المصقول في ٣٢٠ صفحة ، على أنه يمثل (آثار شوقي التي لم يسبق كشفها أو نشرها) خلال الفترة من (١٨٨٨ الى ١٩٠٣) - هو أعظم كتاب عربي صدر خلال عام ١٩٦١ ، لما بذل فيه من جهد ضخم ، لم يقف عند البحث عن شعر شوقي المجهول في هذا العديد من الصحف والمجلات ، بل ينسحب أيضاً على المراجعات الدقيقة التي قام بها بين ما نشر منه في ديوان شوقي الأول الذي أصدره عام ١٨٩٨ ، وبين ما أسقطه شوقي عندما أعاد طبع ديوانه عام ١٩٢٦ ، وعشرات من القصائد التي عدل شوقي ألفاظها وعباراتها ، وعشرات القصائد التي حجبها شوقي ، منها ما يتصل بمدائحه لتوفيق وعباس ، وما يتصل بهذا من هجائه لعراقي في عديد من القصائد ، وكذلك ما يتعلق بأشعاره الأخرى التي كان ينشرها بدون توقيع أو بتوقيع رمزي ، مثل « النديم » و « السائح » و « ش » و « أنا » و « شرم برم » و « محتفل » و « شاب مصري » . ولا شك أن كشف هذا التراث للشاعر العبقرى العربي ، عمل رائع جدير بتقدير الباحثين والمؤرخين على السواء ، فقد تكون خسارة كبرى للأدب العربي أن تظل هذه الخمسة آلاف من أبيات الشعر مدفونة في بطون الصحف والمجلات ، ليس فقط لقيمتها الأدبية ، ولكن لأنها تلقي أضواء جديدة على شخصية شوقي وملاحمه النفسية وحياته وتفكيره وعلى الأدب والتاريخ المعربين المعاصرين ، فان شوقي حين طبع ديوانه في حياته كان حفيظاً بأن يبرز صورة أدبه ونفسه في أبهى حللها ، وكذلك حرص أبناءه وآله في الجزئين اللذين طبعاهما من بعده ، اما اليوم فان الباحث المؤرخ الدكتور محمد صبري إنما يضع أمامنا « شوقي » في صورته الحقيقية عارياً من كل تزويق

وافتمال وتعمل . وهذه خدمة جليلة القدر للباحثين والمؤرخين وكتاب التراجم ،
في سبيل رسم صورة صادقة لهذا الشاعر الفحل ، الذي كان يختفي أحيانا وراء
الرموز ليقول ما في نفسه من هجاء العراقي أو لجريدة المقطم أو
للمويلحي وغيرهم .

وإذا كان شوقي قد حجب جانباً من شعره لظروف حياته أو للظروف
السياسية التي كان يعيشها ، فإننا الآن في حل من هذه العوامل ، فقد أصبح شوقي
وشعره ملكاً للتاريخ ، ولذلك فإن هذا العمل الضخم الذي قام به الدكتور
محمد صبري سيكون موضع تقدير التاريخ ، والبحث العلمي ، وإن صورة شوقي
وحياته وتاريخه الأدبي الذي كتب في عشرات من الدراسات ، سيصبح ناقصاً
أو محرفاً بعد ظهور هذا العمل الجديد .

ولقد كان الدكتور صبري جديراً بأن يقوم بهذا العمل ، لأنه قد بدأ حياته
الأدبية معاصراً لهذا الجيل كله ، متأثراً به إذ نظم في مطلع حياته الأدبية
الشعر ، وأصدر عام ١٩١٠ كتاب « شعراء العصر » ، فكان قائماً على حد قوله
في تيار الحركة الأدبية الكبرى التي بدأت في أوائل القرن ، وكان على اتصال
برجالها جميعاً . وقد عرف اسماعيل صبري عام ١٩١١ ، وتردد على المنفلوطي
قبل ذلك (١٩٠٩) ، حيث أرشده الى كتاب « الوسيلة الأدبية » ، وكتب
له مقدمة كتاب « شعراء العصر » ، وعرف « حافظ » و « شوقي » ، وقد عني
بدراسة « الشوامخ » ، فأصدر العديد من الدراسات عن امرؤ القيس وذي
الرمّة والبحثري .

وعني بكتابة دراسات باكرة عن البارودي واسماعيل صبري ، وله كتاب
عن خليل مطران جمع فيه نثره ، وكشف عن ذلك الجانب من حياته الفكرية
الذي ظل مطوياً أمدأ طويلاً .

فإذا أضيف الى هذا أن الدكتور صبري من الرعيل الأول ، الذي سافر الى
أوروبا قبل الحرب العالمية الأولى للدراسة في باريس ، حيث أحرز دكتوراه

« الدولة » من السوربون عام ١٩٢٤ بأطروحته عن « نشأة القومية المصرية » ، وهو أول مصري أحرز دكتوراه الدولة. وله الى ذلك أبحاثه الضخمة في التاريخ والأدب ، مما يؤهله للقيام بالتحقيق العلمي لأثار شوقي المجهولة . وقد تعرف الى الكثير منها بما أسماه « أنفاس شوقي » التي وصفها (نامة عليه) ، وقال عنها « الأنفاس النامة التي تؤلف بامتزاجها بالأسلوب امتزاج الروح بالجسد ، ملامح الشخصية قد دلتنا في كثير من المواطن على شعر أحمد شوقي المنشور بإمضاء مستعار ، كما أن ذلك الشعر « المجهول » كثيراً ما كان ينبه الأصدقاء البعيدة النائمة في فؤادنا فنستدل بها عليه . » وقد أشار الدكتور صبري الى نقطة البدء في هذا العمل الضخم بأنه وجد في أوراقه كثيراً من شعر شوقي ، كما أن صديقنا له هو اللواء علي سري قد أطلعه على قصائد مهمة نظمها شوقي ، إحداها في « الله » ، وأخرى في « رثاء علي بهجت » ، وقال : أنه وضع تحت تصرفه بسخاء مجموعة طيبة من شعر شوقي الذي لم يفسر ، فكان ذلك اكبر حافز لي على مواصلة البحث والاستقراء في مكتبة القلعة ، حتى بلغ ما جمعته حوالي مائة قصيدة وأكثر ، وكانت مفاجأة كبرى لنا « وقد دعاه هذا الى الاهتمام بمعاصري شوقي من اصدقائه ، فلم يجد منهم حياً الا الأستاذ طاهر حقي ، الذي كان يصدر الجريدة الأسبوعية عام ١٩٠٦ ، ولم يقف عمل الدكتور صبري عند شعر شوقي وحده ، بل إنه جمع له نثراً من نثره الكثير المنشور في مختلف الصحف ، من بينها رواية « ذل وبتان » التي نشرها في مجلة الموسوعات عام ١٨٩٩ ، ومن بينها مقالات بلغت ٢٢ مقالة تحت عنوان « بضعة أيام في عاصمة السلام » .

وقد تحوّل الدكتور صبري لعمله ، شأن العلماء الباحثين ، فقال : « إننا لا ندعي العصمة في كل ما نسبناه لشوقي في شعر مجهول النسب ، ولكن في استطاعتنا أن نؤكد أنه اذا كان هناك خطأ ، فان نسبته للخطأ لا تتجاوز قصائد أو مقطوعات معدودات : وحسبنا أننا وجدنا قصائد جليّة لشوقي

صحيحة النسب مئة في المئة ، ظهرت في الصحف في صور مختلفة حتى سنة وفاته ولكنها لم تتشر في الديوان .

ولقد أغرق الدكتور صبري الديوان بتعليقات متعددة ، كشف فيها الجوانب التاريخية المختلفة للقصائد ، وفصل المناسبات السياسية المتعددة ، التي لم يكن للقارئ المعادي أن يتفهم جوانب القصائد بغير هذه الأضواء الكاشفة على الاحداث .

وفي طريق الدكتور صبري الى الديوان صحح الكثير من التواريخ المتداولة عن حياة شوقي وموضوعات شعره ، على نحو تحقيقي وتحليلي يكشف عن مدى الجهد في المراجعة والمقارنة بين الكتابات المتعددة . فعرض للسنوات الماضية من دخول شوقي مدرسة الحقوق ، وسفره الى أوروبا ، وعودته الى مصر ، وتحدث عن فترة نفيه في اسبانيا ، وأثر الرحلتين الأولى الى باريس للتعليم ، والأخرى الى المنفى في اسبانيا ، في شعره وتطور تفكيره وفنه .

ويرى الدكتور صبري أن الفترة التي قضاها شوقي - وهي أقل من سنتين دراسة وإقامة في باريس - لا تكفي للتغلغل في البيئة ودراسة آدابها ولغتها ومدنيتها بدرجة تساعدها على التحرر في يسر من القديم ، مع التوفيق بين آداب الشرق والغرب ، خصوصاً وأنه قضى معظم أيامه هناك في الاشتغال بالنظم والأدب العربي .

ويرى أن قصائد المديح التي كان يرسلها من أوروبا بين سنتي ١٨٩١ و ١٨٩٣ ، ليس فيها جديد من المعاني وحديث الأساليب الا القليل ، وعنده أن شوقي ظل طول حياته كالبحر يرمي بالدر ويرمي بالصفد ، فهو لم يتطور كما تطور مطران .

ويرى « أن فضوح شوقي تم بعد المنفى ، ولكنه لم يتطور » ، ويعجب من أنه في فترة الخمس سنوات التي قضاها في ربوع الأندلس « ١٩١٥ - ١٩١٩ »

لم ينظم الا بعض القصائد وأرجوزة دول العرب وعظماء الاسلام التي ظهرت بعد وفاته ، ولكن هذه الأرجوزة وما اليها كانت محسولة ضئيلا . ولا شك أن موقع الأندلس ومشاهدها كان لا بد أن يوحى الى شاعرنا ديوانا ضخما في شعر الطبيعة وفلسفة الحياة .

ويرى أن شوقي في الواقع عاش في هذه الفترة بذهنه وخياله في البيئة العربية القديمة ، غريبا عن تلك المواقع والمشاهد التي لا تشدح إلا ذهن من يعرفها ويهم بها ويستلهمها ويقف منها موقف العابد ويعيش في أجوائها ، ومن هنا كانت ضالة محسولة الحقيقي أو « الصافي » ، ومن ناحية الكم والكيف معا ، ويظهر أن شوقي نظم كثيرا وكتب كثيرا في الأندلس ، ولكن بغير نظام ، كما أنه لم يحسن اختيار ما يلائمه من المواضيع وطريقة معالجتها .

ويرى « أنه كان لاغتراب شوقي نتائج بعيدة ، ظهر أثرها في رواياته التي ختم بها حياته ، في بعض قصائده الكبرى التي نظمها بعد عودته ، ولكن لا يمكن القول أن إقامة شوقي بالأندلس أحدثت ثورة في أدبه ، كإقامته الأولى في فرنسا زمن الدراسة » ولا شك أن هذا الرأي يختلف عما رده كثير من النقاد من أثر المنفى في شعر شوقي ، وفي تحوله من المديح الى مواجهة الأحداث الوطنية والاجتماعية في الوطن .

وبعد .. فان كتاب « الشوقيات المجهولة » حدث ضخم في تاريخ أدبنا العربي المعاصر ، سيكون - كما ذكرت - بعيد الأثر في تصحيح وقائع حياة شوقي ونفسيته وترجمة حياته ، لما كشف عنه من شعر حجبته شوقي عن الناس ، أو نشره بغير توقيع ، أو بتواقيع رمزية ، بصور أهواءه وسخرياته وتنفساته التي طواها عن مواقع النظر . وللتاريخ أن يسجل للدكتور محمد صبري آية التقدير للجهد الضخم المبذول بهمة تجعلنا نتضاء أمامه ونحني الرؤوس إجلالا للعلم الذي وهبه .

● الدكتور محمد صبري : أول مصري نال دكتوراه دولة من السوربون . ولي عديداً من المناصب أهمها مدير إدارة المطبوعات ، يعكف منذ أربع سنوات على إعداد دراسة شاملة عن الحضارة العربية الإسلامية في إفريقيا يكتبها بالفرنسية ، ولد عام ١٨٩٠ تقريباً .

من مؤلفاته : محمود سامي البارودي ، أبو عبادة البحري ، اسماعيل صبري ، ذو الرمة ، امرؤ القيس ، الشوامخ ، ادب وتاريخ ، تاريخ الحركة الاستقلالية في إيطاليا، الإمبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر، ذكرى الماضي أو سياحة في المجهول ، كتاب القناة وأمرار التدويل ، تاريخ مصر الحديث من عصر محمد علي الى اليوم ، الشوقيات المجهولة (١٩٠٤ - ١٩٣٢) ، خليل مطران : أروع ما كتب ، شعراء العصر (١٣٢٨ هـ) .



الأمير مصطفى الشهابي التحقيق اللغوي والعلي

الحق أن الأمير مصطفى الشهابي منذ وضع قلمه على الورق، وكتب ونشر في الصحف، هو حتى اليوم وإلى ما بعد من عمره الطويل المديد : الرجل الذي أقام للزهر والخيل والنبات دولة كبرى في الأدب واللغة العربية .

ولقد حاولت أن أتبع ذلك في مطالع حياته ، فأخذت أراجع مجلة المقتطف منذ عهد باكر ، حتى التقيت به لأول مرة - ولا أدري إذا كان قد فاتني مرة أو مرات - في أبريل ١٩٢٥ ، يكتب أولى شظاياه اللغوية بعنوان « أوصاف الخيل العربية في باب الزراعة » ، منذ ذلك اليوم سجل الأمير مصطفى الشهابي مخطوط حياته العلمية ورسم اتجاهها ، ومنذ قريب أصدر الأمير إحدى موسوعاته عن الألفاظ الزراعية ، وفي خلال ثلاثين عاماً كاملة كان ذلك أبرز عمله وانتاجه ، حتى في كتاباته الأدبية المرسلة والانشائية تبدو دولة الزهر والخيل والنبات قائمة ممتدة . ومجموعة الكتب التي عرض لها منذ اتصل بمجلة المجمع العلمي العربي في (آب عام ١٩٢٤) كانت كلها عربية وأفرنجية متصلة بالزراعة والزهر والنبات .

فهو في مجلة المقتطف يؤكد في أولى أبحاثه عن « تقدم العلوم والفنون الزراعية » أنه قرأ منذ ثلاثة عشر عاماً بحثاً لعالم أجنبي في خزانة بايزيد في القسطنطينية ، قال هذا عام ١٩٢٦ ومعنى هذا أنه كان معنياً بهذه الدراسات منذ عام ١٩١٣ فيما قبل الحرب العالمية الأولى .

ويكتب مصطفى الشهابي للدكتور صروف يلفت نظره الى الفرق بين كلمة عالمية وكلمة أطروحة ، ويحذ إطلاق كلمة (أطروحة) تعريباً لكلمة (Thèse) الفرنسية ، التي تعني الدكتوراه ، ولكنه يعارض أن تسمى شهادة العالمية ، ويقول أن إطلاق كلمة عالمية على الدكتوراه سيلازم إطلاق كلمة عالم على من ينال هذا اللقب ، ويفرق بين كلمة سافان (Savant) التي يطلقها الفرنسيون وكلمة عالم ، ويرى أن العالمية لا تعطى الا لمن أصبح كهلاً وأفنى العمر في التخصص والتفكير ، أما الدكتوراه فقد يحصل عليها الشاب في سن السابعة والعشرين من العمر ، ويقترح أن يطلق على حامل الدكتوراه لقب « حكيم » فيقال حكيم في الحقوق ، أو حكيم في الآداب ، أو حكيم في الطب .

وفي مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق) يكتب آل ما يكتب في آب ١٩٢٤ تحت عنوان « قطع أغصان الشجرة » ، ويقول أنه يباشر طبع كتاب (الأشجار والأنجم المثمرة) ، وهكذا يبدأ عمله بالتخصص في اللفظ الزراعي ، ولا يلبث أن يكتب عن « ألوان الخيل وشياتها » ، ويبدأ نشر موسوعته الأولى تحت عنوان ألفاظ عربية لمعان زراعية عام ١٩٢٥ ، ثم لا يلبث أن يختار عضواً في المجمع العلمي بدمشق ، فيلقي في آذار ١٩٢٧ محاضراته الأولى بعنوان (تاريخ الزراعة في العالم العربي) .

* * *

ولقد لفت نظري منذ وقت بعيد وأنا أراجع معاركنا الأدبية ، موقفه من

اسماعيل مظهر وردده عليه في محاولته اتهام العرب بالعقلية الغيبية ، وقد ذكر فيما ذكر أن لديه من خلط علماء يونان في كثير من العلوم ما يلائم مجلداً ضخماً ، ومعنى هذا أنه كان قد واصل عمله العلمي بالرغم من مشاغله بمنصبه الرسمي إذ ذاك (مدير أملك دولة سورية) .

وقد تناول الرء على اسماعيل مظهر مرتين ، مرة في المقتطف ومرة في مجلة المجمع بعد صدور كتابه (ملقى السبيل) ، حيث قال : « أن المؤلف ذكر حظ العرب في البحث اليقيني فعزا إليهم نقائص وهنات كثيرة ، وكاد يجردهم من كل أثر علمي أو أدبي أو فلسفي ، وقد حاد المؤلف عن جادة الإنصاف ، لأنه لو سار في محاكمته على أسلوب يقيني محض ، لوجب أن يذكر أن العرب لم ينفردوا بأسلوبهم الغيبي ، بل كان هذا الأسلوب طابع مدنية من عاشوا معهم ومن درجوا قبلهم ، وحسب العرب أن يكونوا في التاريخ حفظة العلوم القديمة وموسعينها على قدر ما بلغت كافة البشر » .

* * *

وفي مراجعاتنا عن الأمير مصطفى الشهابي ، لم نلبث أن طلع علينا في مجلة الهلال في ابريل ١٩٣٠ بأولى مقالاته التي توالى ، وكان لها طابعها المختلف عن مقالات مجلتي المقتطف والمجمع العلمي العربي ، لأنها تتناول موضوعات في الأدب الخالص ، فهو يتحدث فيها عن فلسفة اللذة ، وفلسفة القوة ، ثم غرائب المطالعات ، وحقيقة الانسان وغرائب المصانمين ، وحديث بغل وحمار ..

ولكن الأمير مصطفى الشهابي لا ينسى دولة الأزهار والخيل والزرع ، وهو مها يتحدث عن ابن خلدون وعارض رأيه في أن الكتب التي تكون الأديب أربعة ، هي : الكامل للبرد ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، والبيان والتبيين للجاحظ ، والنوادر لأبي علي القالي . وأنه لا يجوز إرسال جملة مطلقة كهذه الجملة ، وحصر أصول الأدب العربي في نطاق هذا العدد المحدد من الكتب ،

وأن هناك من الكتب الأخرى الرائدة ما يحتاج اليه الأديب كالأغاني والعقد
الفريد ، وخزانة الأدب البغدادي ، ورسائل الجاحظ وابن المقفع وسهل بن
هارون وعمرو بن مسعدة... بالرغم من هذا كله يعود الأمير مصطفى الشهابي الى
دولة الأزهار والخيل والزرع ...

فما هو إلا أن يطلع على القراء بذلك المقال الذي أحببته منذ مطالع صباي
وقرأته مراراً ، واختارته الهلال في كتابها « أحسن ما قرأت » والمقال بعنوان :
(الأزهار المداسة) .

وفيه يقول الأمير مصطفى الشهابي :

« كنت البارحة أمجد الى دمشق من داري في سفح (قاسيون) ، فاسترعى
نظري جار يدوس أزهاراً ذابلية ملقاة في الطريق ، منها ورد وخطمي
وخشخاش ومرغريتا وغيرها ، تتخللها زهرات صغيرات من الفل ، وكلها قد
حال لونها وفست رائحتها وزالت نضارتها ، فتذكرت على الفور قصيدة مرقصة
بعنوان « السجينة » لشاعرة العربي الأمريكي الرقيق « ايليا أبو ماضي » ،
وصف فيها زهرة كانت تعيش في الحقل قريبة العين ، هادئة البال ، سعيدة
بالتراب الغني والهواء النقي ، والطل الندي ونور الشمس ودفئها ، وتراقص
الأغصان على موسيقى الرياح ، وتطير الفراش في النهار وتهوى النيازك في
الليل ، فإذا بغاو من غواة الزهر يقطفها مغتبطاً بها ، فيضعها في زهرية ،
ويسجنها في غرفة ، فتألم وتتفجع ، وتستغيث من نظرات العشاق وأنوف
النشاق ... فلا رقص الكواكب في القصر كرقص الفراش في الحقل ، ولا
المصابيح المتلألئة في الأبهاء كنور الجاحب الضعيف في الدجى ، ولا عطر
الحسان في عقبه كريح التراب في قمونه .

ونظرت الى الجار يطأ تلك الأزهار دون أن يعتذر أو يتخشع ، فدنوت
منه وبدأت الحديث ، ثم قلت : أو تدري يا صاح أن من الأزهار الجميلة النادرة
نباتات تظل تجيء كما يرويدون من حيث تكونها وتزينها ، وأنهم بعد هذا

يبيعون النبتة الواحدة من الصنف الجديد بعشرات من الجنيهات . هلا أنعمت
نظرك في أوراق هذه النباتات التي تدوسها ، وأدركت أشكالها العجيبة من
سنانية وسهمية ومستطيلة واهليلجية وكاملة ومقرصنة ، الى عشرات من الصفات
المختلفة ، وقد اتخذ الناس كثيراً من أنواع الزهر علامات يدل كل منها على
ضرب من النعوت المستملحة ، والصفات المستحبة ، فالبنفسج للحشمة ، والورد
للجمال ، وشبه الشعراء أعضاء الحبيب بصنوف الزهر ، فجعلوا الحدود كالورد ،
واللحظ كالنرجس ، والشفة كالشقائق ...

هل جال في خللك أن تدخل قبة الصخرة في القدس ، أو المسجد الأموي
في دمشق ، فترى تزاويق الزهر وتعاريج الورق في زخرف عربي أخاذ ، هل
عرجت على تدمر أو بعلبك فرأيت الأزاهر كيف تنقش في الصخر الأصم ،
ولكم نقش المصريون الأقدمون زهرة اللوطس وورقتها على هياكلهم وأبنيتهم
ونقودهم وحليهم ، وكـ سحرت أوراق الاقحوان فناني اليونان والرومان
فأوجدوها في أعمدة قصورهم وهياكلهم ...

* * *

وهكذا يمضي الأمير الشهابي في الحديث عن الزهر ، حديث الأدب هنا
وحديث العلم هناك ، في معاجمه وأبحاثه المضطردة ، في مجامع دمشق والقاهرة
وبغداد ، وهو في حياته يعيش علمه وفكره ، فاذا عرض لنا مذكرة من يومياته
أحسننا مدى أثر بيئته في فكره وعلمه - يقول في إحدى مذكراته :

« كنت منذ بضعة أيام ممتطياً صهوة جواد من العرب ، يسير بي الهوينا تحت
مسوق أدواح الغوطة الفيحاء ، في نفر من الصحاب كلهم من هواة الخيل وفرسان
الليل ، وقد رق الهواء في أيام الخريف الذهبية ، وسكنت الطبيعة ، وجعلت
الشجر تنتشر أوراقها وتتعرى لترقد في الشتاء ، وكانت الخيل قد شاركت
الطبيعة في مظاهرها فكانت تسبح بنا سباحاً ، وهي أسلس ما تكون قياداً إلا

فرساً جوحاً هجيناً أبطره القعود، وفرط العلف، فكان ينزو بصاحبه ويفرّض ويعرض (يشي بالعرض)، حتى إذا اقترب من فرسي شخر ونخر بصوت أجش، ورفع إحدى رجله ولبط لبطة استقرت في دأصتي (صابونة الركبة) فترجلت أعرج، وأنتفض من الألم كالقروور أرعده البرد، أو كالحموم نفضته الحمى، وفي دقائق معدودات حملتني سيارة الى الدار، فجلست في حديقتهما أستريح على مقعد قبل بلوغ إحدى الغرف، فما راعني الا زنبور يدوم في الهواء، وكأنه عقد علي موعداً، لاني ما كدت أجلس حتى انقض على سبابة يدي اليمنى فلسعها لسعة ورمتها ثلاثة أيام ...»

* * *

وهكذا يبدو الأمير مصطفى الشهابي منذ مطالع حياته وهو يعيش في دولة الزهر والحيل والزراعة، ومن هنا كانت التصاقه الروحي والفكري بالعمل اللغوي الذي تخصص له، والذي برز فيه وعد مرجعاً من مراجعه في العالم العربي كله ...

واذا كان لي أن أستطرد في هذا المجال، فإني أقول أن الشعر وهو إحدى مواهب الأمير الشهابي قد عاش أيضاً في مجال الزهر والحيل ...

ففي قصيدته التي ودع بها القاهرة عام ١٩٣٥ يقول :

القلب كالزئبق الرجراج ينفض من نار التفرق خفافاً ومواراً
هم في مصر ملتاعاً نيش وقد سار القطار بنا ليلاً فما سارا
يا ساكني عين شمس هل بأضلمكم مأوى تحلون فيه ذلك الجار
وهل تعلقونه من ماء نيلكم علا يسكن في سودائه نارا
جاءوا إليّ بأزهار الوداع وقد بلت دموعي أرداناً وأزهارا
تصوح الزهر إشفاقاً علي فما أصبت منه ذكي العرف معطارا
أواه يأنسها النيل ساجية كم ضمك الصدر إشفاقاً وزفارا

وكم تعطرت بالريحان وامتزجت رباك بالروض أفناناً ونوارا
 ما أن نشفتك حتى خلت منتعشا ماء الحياة جرى بالجسم أنهارا
 وخلتني عدت مخضل الإهاب الى شرخ الشباب قوي العزم جبارا
 مهلاً أحبائي إني عائد لكم مها تعنت هذا الدهر أو جارا
 لولا دمشق وروض الغوطتين لما تخيرت غير جنان النيل لي دارا

* * *

وبعد فإن تاريخ الأمير مصطفى الشهابي وكفاحه في مجال اللغة العربية يطول ، وقد عاد إلي بالذاكرة إليه عبارته في أول كتابه (المصطلحات العلمية في اللغة العربية) حين يقول ، أنه بدأ منذ ثلاثين سنة ينشر في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق والمقتطف بالقاهرة باكورة هذه المصطلحات في علوم الزراعة وفي علوم المواليذ الثلاثة من نبات وحيوان وجماد ، وأنه ثابر عليها الى اليوم حتى تجمع له نحو عشرة آلاف لفظة عربية أو معربة ، وضعها قبالة الألفاظ الفرنسية أو الأسماء العلمية ، وقد ضم معجم الألفاظ الزراعية المطبوع في دمشق ١٩٤٣ وفي القاهرة ١٩٥٧ معظمها .

وقد تحدث الأمير مصطفى الشهابي في مطالع بحثه عن نشوء اللغة العربية ووسائل نموها بالاشتقاق والمجاز والنعت والتعريب . وتصدى لما واجهها إزاء نقل العلوم في النهضة الحديثة ، وجهود المجامع الثلاث في دمشق والقاهرة وبغداد في هذا الصدد ، ومضى يتحدث عن هذه المصطلحات حتى أغنى الباحث في مجالها .

واذا جاز أن نتحدث عن الأمير مصطفى الشهابي خارج مجال اللغة العربية ، فلنا نقول أنه واحد من رواد القومية العربية وأحد أفراد حلقة دمشق الصغيرة ، وجمعية الإخاء العربي ، والجمعية القحطانية .. وخلفه الشيخ طاهر الجزائري . وقد أجرى هذا الحديث فياضاً في كتابه (القومية العربية : تاريخها

وقوامها ومرامها) ، وله أيضاً دراسته الحثيصة عن (الاستعمار) ، ومثات الأبحاث والمقالات في صحف العالم العربي في الأدب واللغة والتاريخ .

وقد تناولته بالدراسة في موسوعة معالم الأدب العربي المعاصر ، في مجال كتاب النثر وفي مجال حماة اللغة العربية ، وحياته حياة خصبية حافلة بالعمل النافع للفكر العربي ، ولد في حاصبيا ، وتعلم في دمشق واستانبول ، ثم سافر الى فرنسا حيث حصل على إجازة في الهندسة الزراعية ، ثم عاد من باريس ١٩١٤ الى استنبول حيث اتصل بأعضاء جمعية المنتدى الأدبي الذين كانوا يحملون لواء الدعوة العربية ، وقد اتجه الأمير الى ميدان الفكر ، وولي عدداً من المناصب حتى أصبح وزيراً للمعارف سنة ١٩٣٦ ، ثم سفيراً لسوريا في مصر عام ١٩٥٢ ، واشترك في المجمع الثلاث ، وأصدر معجمه الباهر ، ويرجع اهتمامه بالمصطلحات الى الحركة العربية التي كانت ترمي قبيل الحرب العالمية الأولى الى تحرير اللغة العربية من المسميات الأجنبية .

ويؤمن الأمير الشهابي بأن التراث العلمي والأدبي والفلسفي الذي خلفه العرب والمسلمون لا مثيل له في الكم والكيف جميعاً في لغة ما من لغات العالم ، وهو لا يرى تعارضاً بين العروبة والاسلام ، يقول : « أن القومية العربية والاسلام يشيان جنباً الى جنب دائماً ، ولا يستطيع العرب أن يفعلوا ما فعل الترك في الإلحاد وجعل الحكومة لا دينية » . وهو يهاجم استعمال الحروف اللاتينية ، ويرى أنها تبعداً عن تراثنا العلمي وعن الشعوب الاسلامية التي تكتب بحروفنا ، وعنده أن تبديل قواعد اللغة الأصيلة يبعداً عن فهم القرآن وهو تراثنا الأعظم ديناً وقومياً ، ولا يجوز بحال العدول عن فهمه وتفهمه مهما مست الحاجة الى تسهيل قواعد الصرف والنحو في اللغة الضادية ، ويرى أن مفردات اللغة العربية ومعاني المفردات وتعبيرات تلك اللغة واصطلاحاتها لم تجمد قط على حال واحدة منذ صدر الاسلام ، وهي التي يجب علينا العمل في سبيلها حتى تجاري العربية لغات أوروبا الحية .

وفي الجملة فإن الأمير مصطفى الشهابي عالم لغوي وبجائة وأديب أقام منذ ثلاثين عاماً دولة للزهر والحيل والزراعة في أدبنا العربي .

- الأمير مصطفى الشهابي « دمشق » رئيس مجمع اللغة العربية ، وصاحب أكبر موسوعة عن ألفاظ الزراعة ، وصاحب معجم الألفاظ اللبنانية .
من مؤلفاته : محاضرات عن القومية العربية ، محاضرات عن الإستعمار ، معجم الألفاظ الزراعية ، الأشجار والأنجم العشرة ، البقول ، الدواجن ، الرسالة النباتية ، الزراعة العلمية الحديثة .



محمد صبيح دراسات القومية والتأريخ العربي

عندما تلقيت كتاب (مواقف حاسمة في تاريخ القومية العربية) للأستاذ محمد صبيح ، هذا الكتاب الضخم الذي يبلغ ٤٨٠ صفحة من القطع الكبير ، ذهب بي الخاطر الى العمل الأدبي الذي قام به هذا الكاتب منذ ربع قرن في ميدان الثقافة والتاريخ ودراسة الأعلام وتقديم خلاصات رائعة لمختلف معالم الفكر ، يستهدف بها ما أسماه في أول كتاب أصدره من سلسلة كتاب الشهر في (يناير ١٩٣٧) : « رفح المستوى الثقافي للمثقفين المصريين وغيرهم من قراء العربية في أقطارها ، فتقرب لهم ما ابتعد عنهم من صور التفكير العام في شتى شؤون المعرفة ، في أسلوب مقبول يرضي المثقفين ولا يسخط العلماء المتخصصين » .

وقد كان محمد صبيح حريصاً على أن يقدم للقراء بطولات الأعلام من حكام العالم إذ ذاك ، غير أنه لم يلبث أن التفت الى بطولات أعلام الاسلام ، فأصدر سلسلة قادة الاسلام عام ١٩٣٨ ، وقال في صدها :

« لقد تدبرت هذه المرحلة من عملنا الثقافي فوجدت أن أبطالنا الجدد ، هم محمد » عليه السلام وأصحابه وأتباعه .

.. هؤلاء الرجال العظماء أكرم علينا من أن نمر بحياتهم مرأ خفياً ، فنطفو على السطح ولا نصل الى أعق الثور . إنهم أبطالنا نحن ، إنهم قطعة من حياتنا ، من تاريخنا ، أستغفر الله بل هم قمة الإنسانية في جميع عصورها وأطوار تاريخها .

ثم يصل الى هدفه الثقافي في بناء شخصية الأمة ، فيقول : « إن نحن استطعنا أن نصل بين هذا القديم الذي باعدت بيننا وبينه القرون وبين مثلنا التي ننشدها في حاضرتنا ، نكون إذن قد وفقنا الى شيء كثير » . والآن أجد الرابطة القوية الواضحة بين هذا العمل الذي بدأه محمد صبيح منذ ربع قرن وبين هذا العمل الضخم الذي قدمه حديثاً ، حيث يرسم لنا صورة واضحة للطريق الطويل للقومية العربية في مراحل خمس هي :

الميلاد . الشباب . المتاعب . النوم . اليقظة .

حيث يروي قصة التاريخ الماجد الذي عاشته الأمة العربية ، في خلال أكثر من ألف وثلاثمائة وثمانين عاماً ، بين كفاح البناء والانتعاش ، والانشاء وصراع الخصومات ومقاومة الحملات ودفع العدوان : ضد التتار والصليبيين والاستعمار الغربي .

ولا شك أن (القومية العربية) وهي تعيش عصر تفتحتها وتجارب تحققها ، وقيام الوحدة الأولى بين مصر وسوريا ، وتوقيع ميثاق الوحدة بين مصر وسوريا والعراق ، وارتفاع الصوت المدوي في مختلف أنحاء العالم العربي من الدار البيضاء الى البصرة بالالتقاء بين الأجزاء التي مزقتها الاستعمار ، كل هذا جدير بأن يعنى الباحثون بدراسته ، ودراسة مقومات هذه القومية وتاريخها وتطورها وعوامل التجمع والتمزق ، وأسباب الصراع ومعارك المقاومة حتى يكشف الطريق ، ولذلك فقد عني الكتاب بإعداد دراسات متعددة في هذا المجال ، غير أن الأستاذ صبيح قد اختار طريق الدراسة التاريخية الشاملة ، تعينه على ذلك خبرة قديمة ، ومادة خصبة ، وأسلوب طلي رائع ، وقدرة على إعطاء التاريخ طرافة القصة مع الاحتفاظ بالحقيقة التاريخية .

وفي خلال المراحل الأربع التي ضمها هذا الجزء الضخم^(١) ، نجد في حاجة الى أن نقرأ كل كلمة ، فالكاتب حريص على أن يكشف كل التفاصيل ، مستعيناً بمئات من المراجع والأبحاث العربية والغربية في سبيل رسم الصورة . ولن يقلل من أهمية هذه الدراسة أنها ألفت كمحاضرات على طلبية معهد التعاون في القومية العربية ، فهي قد أعدت بحيث تقضي حاجة المثقف والقارئ الوسط ، بالإضافة الى الطلاب الذين استمعوا إليها أو درسوها للامتحان فيها ، وقد سجل المؤلف الرابطة الواضحة في خطه الفكرية منذ عمله الجديد . فقال :

« وفي خلال ثلاثين سنة أو نحوها كتبت وألفت الكثير عن حياة الأمة العربية في ماضيها وحاضرها . وكنت ولا زلت تلميذاً يواصل الدرس والاطلاع ، ويحد في كل يوم جديداً يضيفه الى علمه . واشتغالي بالحركة الوطنية منذ فجر الشباب أتاح لي أكثر من فرصة لكي أربط بين الأحداث . وأجد لحاضراً كثيراً من الأصول القديمة التي تربطها » .

ولا شك أن محمد صبيح قد عاش تاريخاً عريضاً في ميدان التأليف ، له طابعه الواضح المميز في ميدانين يكل كل منهما الآخر :

(الاول) : ميدان تراجم الأعلام :

وقد عرض فيه لعديد من الشخصيات : شرقية وغربية ، إسلامية وعصرية ، أهمها : النبي محمد . أبو بكر . عثمان . علي . معاوية . خالد . عمرو بن العاص . طارق . عمر بن عبد العزيز . هتار . ستالين . الميكادو . أتاتورك . تشرشل . محمد عبده . وقد أعلن عن دراسات أخرى لم تظهر بعد ، عن المهدي ومصطفى كامل وسعد زغلول وعبد القادر الجزائري وعن عبد الكريم الخطابي والمثنى بن حارثة وأبي عبيدة .

وفي ميدان التراجم لم يرسم لنا طريقة في الكتابة وأي مذهب اختار من

(١) صدر الجزء الثاني بعنوان « البيضة » وقد ضم تاريخ مصر حتى عام ١٩١٩ .

مذاهب الترجمة للأعلام، ولكنه على أي حال يميل الى طريقة (أميل لدوفيج) ، حيث يرسم الشخصية من خلال قصة نابضة بالحياة ، ترسم صورة مجتمع البطل وحياته وظروفه ، ولكنه يحتفظ بالحدود التاريخية واضحة في دراسة الشخصية دون أن يسمح للقصة أو الرواية أو الجو الفني أن يغطي على الحقائق المقررة .

وهو بذلك يجمع بين ميزتي الاحتفاء بالحقيقة التاريخية في ظل الصورة الأدبية القصصية .

وهذا يضع لبنة في بناء فن (تأديب التاريخ) ، الذي ظهر في هذه الفترة لأول مرة في أدبنا العربي المعاصر . وهو في عرضه ينجح الى اسلوب التحليل ، ويعالج القضايا الفكرية والاجتماعية في دقة ويسر . دون أن يغطي على مجريات القصة من الناحية الفنية .

(الثاني) : ميدان الدراسات المرتبطة بالتاريخ الحي وبناء الأمم .
ومن هذا دراساته عن القرآن والنيل وروسيا والسودان . وكان قد أعلن عن دراسات لم تظهر بعد ، عن قناة السويس والأزهر وتركيا والهند والعراق وإيران وأفغان وجريدة التيمس وجامع كمبردج وغيرها .

وهو في هذه الدراسات حريص على نفس النسق القصصي المشوق ، يتخذه وعاء لأفكاره ، وإطاراً للحقائق المادية الجافة ، فيجعلها يسيرة سهلة مستساغة .

ولا شك أن طابع (التحليل) والوصول الى القارئ هو الاتجاه الغالب على الكاتب . ولعل اشتغاله بالصحافة هو الذي يسر له هذا الأسلوب البسيط الأنيق . وهذه الرغبة في جذب القارئ اليه وتبسيط الدراسات التاريخية والعلمية الجافة ، كما فعل في كتاب « النيل » ^(١) ، الذي وصفه بأنه ليس

(١) أضيف هذا الكتاب إلى جزء « البيضة » .

كتاباً جغرافياً، والذي استطاع ان يقدم فيه كل المعلومات الجغرافية والتاريخية على نحو مشوق رائع .

هذا فضلاً عن حرصه على كشف الجوانب الخفية التي تحامها الكتاب في فترة ما ، فكتب عن ستالين عام ١٩٣٧ وعن روسيا ١٩٤٧ ، ولم يكن في مقدور كثير من الكتاب رسم صورة لهذا الجانب الذي كان الاستعمار يخوفنا من من الاقتراب منه .

وهو في كل انتاجه حريص على إمداد القارئ العربي بمعلومات جديدة ، ناظراً الى شباب الأمة العربية جميعاً ، لا الى مصر وحدها ، وهو أقرب في دراساته الى الأسلوب الصحفي الاستطلاعي منه الى الأسلوب العلمي الأكاديمي ، وبالجملة فهو في كل كتاباته يتخذ طابع الكاتب الهادف ، الذي يريد أن يقدم لأبناء أمته ثروة فكرية لإغنائها ولفت نظرها الى البطولات التي صنعت التاريخ في كل مكان وعصر ...

* * *

وقد مر إنتاج « محمد صبيح » في ثلاث مراحل :
قبل الحرب العالمية الثانية ، حيث كان أحد أقطاب مصر الفتاة ، وكان عمله الأدبي يمثل جانباً من الاتجاه الفكري الذي عاشه العالم العربي متطلعاً الى البطولات ، ناظراً الى حركات أوروبا في ظل الفاشية والنازية والشيوعية . ثم ما كان من تلفت الشرق الى نفسه واتخاذ من تجديد الحديث عن أبطال الاسلام وسيلة لبناء حاضره ومستقبله .

ثم كان السجن الذي أمضى فيه سنوات الحرب بعيد الأثر في اتجاهه الفكري ، حيث استطاع أن يزيد حصيلته بقراءة عشرات من الكتب الضخمة القديمة والحديثة . واستخلص رأيه الجديد بأن الثقافة العربية يجب أن يتسع نطاقها فتشمل الميادين المتعددة ، وتفتح النوافذ للثقافات الغربية ، وقد استطاع

بعد الحرب أن يعد برنامجاً فكرياً في هذا الاتجاه ، ظهرت منه كتبه عن روسيا وتشوشل والنيل وقد كان هذا التطور في تفكير الكاتب تطوراً فعلياً في مجال الفكر العربي نفسه في هذه الفترة .

ثم عمل صبيح في الصحافة وحرر في جريدة الأساس ، وأتيحت له رحلات مختلفة في الشرق والغرب ، ثم شغل صبيح سنوات طويلة بالعمل في مجال الإصلاح الزراعي ، ودراسات الاقطاع والارض والتوزيع ، وقد انقطع خلال الفترة التي بلغت عشر سنوات عن مجالته الفكري القديم ، وإن ظل يواصل الكتابة في الصحف ، جاريّاً مع التطور والأحداث ، حتى فاجأ القراء بكتابته « مواقف حاسمة من تاريخ القومية العربية » .

وقد عاش محمد صبيح حياة فكرية خصبة شارك فيها مشاركة إيجابية في النهضة السياسية والاجتماعية ، في مجالات مصر الفتاة ومشروع القرش ومصنع الطرابيش والإصلاح الزراعي . ولم يقتصر عمله على هذه المؤلفات الضخمة ، بل إنه ساهم في تحرير وإنشاء عديد من المجلات والصحف : كالصرخة ومصر الفتاة ونداء الحرية . كما حرر في صحف أخبار اليوم ومجملتي الأسبوع والتحرير والأساس وجريدتي القاهرة والجمهورية . وهو اليوم يرأس تحرير صحف دار التعاون حيث يعمل في ميدان جديد يظهر لأول مرة في مجال الصحافة العربية وهي الصحافة المتخصصة ، ويشرف على صحف ثلاث : هي المجلة الزراعية وتعاون الثلاثاء وهما متخصصتان في شئون الزراعة والريف والتعاون والفلاحين ، وصحيفة « تعاون الأحد » وهي متخصصة في شئون الأسرة والتموين والتعاون الاستهلاكي والبيت والمرأة ...

وهو صحفي ومؤلف وكاتب سيناريو يكتب المقالة السياسية والأدبية والاجتماعية والبحث التاريخي وفن التراجم .

وقد أغنى المكتبة العربية بعشرات من المؤلفات ، وما زلنا نطالبه بإتمام الدراسات المختلفة والتراجم المتعددة التي أعلن عنها ولم يتمها بعد .

● محمد صبيح (محمد صبيح عبد القادر) : من خريجي كلية الآداب بجامعة القاهرة ،
من أبرز العاملين في مشروع القروش ومصر الفتاة والصحافة المصرية ، أول
مقال له نشره ١٩٣٢ في السباسة الأسبوعية عن الخطيئة ، صاحب سلسلة كتب
الشهر الإسلامية التي أصدرها عام ١٩٣٩ .

من مؤلفاته : مواقف حاسمة في تاريخ القومية العربية ، من العمدن الى سجن الأجانب ،
كفاح شعب مصر في القرنين ١٩ و ٢٠ ، قصة نور الله ، قصة الأرض
في إقليم مصر ، عن القرآن ، وله تراجم : عمر بن الخطاب ، معاوية ،
عثمان وعلي ، أبو بكر ، هارون الرشيد ، تشرشل ، المأمون ، معاوية ،
خالد ، شانغ كاي شيك ، ستالين ، عمرو بن العاص ، الخ .



محمد عبد الغني حسن أدب التراجم والترجمة

ما تزال الكاتبة « مي زيادة » اسماً لامعاً في الأدب العربي المعاصر ، وما تزال سيرتها الشائقة وخاتمتها المنيرة تشغل المفكرين والكتّاب والباحثين ، فلا تمر فترة من الزمن حتى يصدر كتاب أو يكتب مقال أو ينشر رأي جديد . فقد عاشت « مي » حياة مثيرة وكان صالونها في العشرينات شيئاً ملفتاً للنظر ، جمع العديد من الأدباء والمفكرين ، وأنشأ مشاعر ووجدانيات وصوبات هزت الشعراء والكتّاب ، ثم انطوت مي كالزهرة الندية في ظل أحداث متتابة قاسية هزت نفسها واضطرب لها كيائها النسوي الرقيق . فعاشت بين اضطراب الفكر وقيود المستشفى . فلما أطلقت لم تعد الى دنياها الاولى ، بل ظلت في جوها النفسي المثير حتى قضت .

فاذا جاء الاستاذ محمد عبد الغني حسن ليكتب عنها بعد اكثر من عشرين عاماً كتابه الجديد (مي : أدبية الشرق والعروبة) . فانما شأنه في ذلك شأن من يريد ان يعاود قضية كان هو أول من تولاها وتصدر لها ، فما يزال الباحثون عن « مي » يذكرون كيف ان مرجعهم الأوفى كان في كتابه الاول « حياة

مي » الذي اصدره بعد وفاتها مباشرة سنة ١٩٤٢ ملحقاً بالمقتطف ثم انفصل عنه . وقد اجري فيه عديد الاحاديث مع معارفها ورواد صالونها . ثم مضى الزمن فكتب عشرات عن « مي » ، مؤلفات وابحاثاً حتى لقد أحصى أن أكثر من خمسين باحثاً ، رجعوا الى كتابات الاستاذ عبد الغني وعدوها مراجعهم في كتاباتهم وابحاثهم .

وقد ألتف في ذلك منصور فهمي وجميل جبر ، وكتب كامل الشناوي وأنور المعداوي والمازني والعقاد ، وقدم طاهر الطناحي العديد من الابحاث في جو « مي » وحياتها ، وما يزال كثيرون يعدون ابحاثاً عن « مي » ، على وشك أن تصدر في مؤلفات ، في مقدمتهم السيدة (وداد سكاكيني) الكاتبة العربية الدمشقية الاقامة .

وقد أفاد هؤلاء جميعاً وغيرهم مما كتب محمد عبد الغني حسن منذ عشرين عاماً ، فليس اذن على الكاتب من خير ان يعود مرة اخرى الى حياة هذه الكاتبة ، بعد ان أوغلت في الزمن ليكتب عنها مرة اخرى . وقد اصبحت حدثاً تاريخياً تستقبله نفس الباحث بمزيد من الاناة والروية في المراجعة والتحقيق لكل ما يتصل به من قضايا وأزمات .

يقول ان كتابه الاول قد لقي تقدير القراء والأدباء ، ومن كريم الملاحظات والتوجيهات ما جعله يوطد العزم على ان يخرج كتاباً جديداً مستزيداً في بعض الجوانب ، خاصة في محنة مي قبل وفاتها ، « حين غالبتها الوسواس وهاجتها الهواجس فكانت نزيلة المصحات النفسية والعقلية ، التماساً للخروج من وحشتها وكآبتها وعزلتها وصمتها الذي ما تعودته . وكانت الفصححة البيبان ، الطليقة اللسان ، حتى انكرها أمين الريحاني وهو يزورها رغماً منها في مستشفى بلبنان ، ولم يملك ان يحبس الدموع في عينيه ، حين شاهد ما صارت اليه » .

كما أضاف فصولاً عن طفولة مي الحزينة ، ودراساتها للصحف ، وكيف غيرت اسم ميلادها من ماري الى مي ، كما نشر نماذج من أديها وكتاباتها وخطها

ورسائلها ... وقد صحح الرأي الشائع الذي كان يردد أن مي ولدت في لبنان وكيف أنها ولدت في بلدة الناصرة من أعمال فلسطين .

يقول محمد عبد الغني حسن : ان مي وجدت ان اسم ماري افرنجي النعمة غريب على الاذن العربية ، على حين ان اسم مي عربي أصيل يضرب في اعراق العروبة الى حد بعيد ، ولكن التغيير من ماري الى مي لم يكن طفرة ، ولم يكن أول تغيير ولا انتقال ، فقد سبق لي ان اختارت لنفسها اسماً ، ووضعتة على أول كتاب أصدرته بالفرنسية وهو كتاب (أزاهير كوبيا) .. فماري وايزيس كوبيا ومي هي اساء ثلاثة لمسمى واحد ، وهي ألقاب متعددة لشخص واحد ، هو تلك الفتاة الحائرة القلقة التي لم يسلم من حيرتها حتى اسمها . فتغير معها كما تغيرت بها الأحوال والأزمان .

ولم يكن اختيارها لاسم (ايزيس كوبيا) عفو الخاطر ، وانما كانت فيه دلالة القصد في الاختيار . ومراعاة الاعتبار . فايزيس - كما في التاريخ المصري القديم - هي زوجة اوزوريس ، وهي اشبه في علاقتها بالآله بالسيدة مريم العذراء ، وكوبيا هي بالفرنسية Copieux وبالانجليزية Copious ، وأصلها اللاتيني يحمل معنى الغزارة والنماء والزيادة ، فكأنها ترجمة لاسم جدما (زيادة) باللغة اللاتينية .

وهكذا يمضي محمد عبد الغني حسن فيحدثنا عن مي في مختلف دقائق حياتها ، وتأثراتها في مجال الدين واللغة والاسلوب . ويتحدث عن مي كاتبة وخطيبة ومحاضرة ورأيها في الشعر العربي والموسيقى ، ودورها في النهضة النسائية وهو الجانب الضخم من حياتها الفكرية .

ويورد لذلك ذكرياته الخاصة ، وملاحظات المشاهد المتابع لنشاط هذه الكاتبة التي كانت موضع اعجاب جيلها كله ، حيث لم تكن الحياة الأدبية في مصر قد حفلت بالعديد من الكاتبات والباحثات .

ولعل الموضوع الذي نال اهتمام المؤلف هو « منتدى مي » فقد كان صالونها جزءاً من تاريخ النهضة الأدبية في العشرينات ، حتى ان خليل مطران وصفه بعد وفاتها :

أقفر البيت أين ناديك يا مي اليه الوفود يتخلفوننا
صفوة المشرقين نبلا وفضلا في ذراك الرحيب يعتمروننا
فتساق البحوث فيه ضروبا ويدار الحديث فيه شجوننا
وتصيب القلوب وهي غراث من ثمار العقول ما يشتهينا

وقد جرى اسم ندى مي في شعر اسماعيل صبري والعقاد ، ثم جرى المقارنة بين صالونها وصالون نازلي فاضل ، وأندية سكينه بنت الحسين ، وعلية بنت المهدي ، وولادة بنت المستكفي .

وهكذا يمضي الكاتب في دراسته العلمية عن مي ، مستعيناً فيها بكل ما كتب معارفها وما شاهده هو وسجله ، ولم يشأ أن يحرم القراء من أحاديثه الأولى عنها ، التي ضمنها كتابه « حياة مي » ، الذي نفذت طبعته من زمن بعيد ، الى نماذج من كتاباتها ، وذلك على طريقة الكاتب الدقيقة المعروفة وميله الوافر الى تسجيل المؤلفات والأبحاث ، وهو العمل الفريد الذي جعله مرجعاً هاماً لكل باحث . فأنت ما أن تريد أن تكتب دراسة معينة ، حتى تجد نفسك مضطراً للاتصال بالاستاذ محمد عبد الغني حسن لتسأله عن مراجع لهذا البحث ، فإذا هو يدلك فور اللحظة ، ومن وراء خطوط الهاتف الى عشرات المراجع في القديم والحديث ، فإذا ما أغناك بالمراجع ، اعتذر لك بأن هذا ما يذكر الآن وأنه سيبحث لك عن مراجع أخرى .

ولعلي لا أستطيع أن أقول ، انني التقيت برجل في جيلنا أكثر الماماً منه بهذا الجانب ، وهو في هذا يقف في صف رجلين متخصصين في هذا الفن ، أحدهما الاستاذ كحاله في دمشق ، والأستاذ داغر في بيروت .

ويرجع هذا في الاغلب الى أن محمد عبد الغني حسن بدأ حياته الادبية قبل ثلاثين عاماً، يكتب باب (المؤلفات الجديدة) في المقتطف ، يستوعب ما ينشر من الأدب القديم والحديث ، والمخطوط والمطبوع ، ليس على نطاق القاهرة وحدها، ولكن على نطاق العالم العربي كله . بل انني قد لقيت عنده أمس كتاباً جديداً (لا يزال ساخناً كما يقولون) من الأدب العربي المطبوع في تركيا ، فهو لا يقف ايضاً عند حدود العالم العربي . وقد اتاح له عمله في دار المعارف ، ومؤسسة المطبوعات الحديثة ، والمؤسسة المصرية العامة للانباء والنشر والتوزيع والطباعة خلال عشرين عاماً او يزيد ، ما جعله أوثق اتصالاً بكل ما ينشر في مجال الادب والتاريخ ، وهما ابرز الفنون التي أولاها اهتمامه ، والذي تضم مكتبته الحافلة منها ، اغلب ما كتب فيها وما نشر من قديم وحديث فيما لا يقل عن عشرة آلاف مجلد .

ويتصل هذا بالطبع بنشأة محمد عبد الغني حسن ، واتجاهه الفكري الاغلب في مطالع حياته . فقد بدأ وليد المنصورة ١٩٠٧ حياته بالشعر ، وليس غريباً ان تخرج المنصورة الشعراء ، وهي أجمل بلاد مصر وأحفلها بالجمال والشعر والفن . ثم أتيح لكاتبنا أن يتم دراسة في دار العلوم في الثلاثينات ، وقد ترك دويماً ، فهو شاعر عاطفي له شعر جميل رائع ينشره في الصحف والمجلات ، وهو شاعر الاهرام ، ثم هو الحفي به في خلال الازمات الاقتصادية والسياسية ان يسافر في بعثة الى إنجلترا وفرنسا لدراسة التربية وعلم النفس ، موفداً من الدولة ، فاذا ما أتم دراسته في جامعة (اكستر) وعاد عام ١٩٣٦ ليعمل مدرساً فمفتشاً عاماً للغة العربية ، لا يشغل عن العمل الفكري ولا ينصرف عنه فيوالي نشر آثاره الادبية التي بلغت بكتابته الجديد عن مي خمسون كتاباً الا كتاباً واحداً .

وهي أعمال تتعدد مجالاتها بين الأدب والدواوين الشعرية ، وتحقيق المخطوطات والترجمة ، ودراسات الاعلام وفنون الأدب . ودراسات الاسلام

وقصص الرحالة والمكتشفين . وإذا كان كتابه الأول عن « مي » هو أول كتبه في الغلب اذ صدر عام ١٩٤٣ - فانه كان قد صرف شيئاً ما عن الشعر الذي استهل به حياته الى العمل الأدبي في مجال النثر ، وهو ما تعمقه من بعد وسار فيه أشواطاً طويلة . واني لأرى أنه قد اختار ميداناً حياً نابضاً بالحياة ليكرس له أغلب عمله . وهو مجال البعث والاحياء لأجد أمتنا العربية الاسلامية ، في فكرها وبطولاتها وأعلامها وروائع مواقفها .

وأمامي ثبت لمؤلفات محمد عبد الغني حسن ، فإذا به يستر عيني في جانبين : الاول - دراسات الاعلام ، فاني أرى أمامي دراساته عن عبد الله فكري وابن الرومي ، وبطل السند ، وموسى بن نصير ، وأبي مسلم الخراساني ، وآمنة بنت وهب ، وخديجة بنت خويلد ، والزباء بنت عمرو ، وشجرة الدر ، وعديد من الرحالة المكتشفين الاجانب أمثال فاسكو دي جاما ، والكاتبه تول وسكوت وغيرهم .

والثاني - هو أمجاد الأمة العربية الاسلامية في مجال النهضة ، تناول ذلك في كتابه معرض الأدب والتاريخ الاسلامي ، ومن أمثال العرب وصراع العرب خلال العصور ، وعلم التاريخ عند العرب والاسلام بين الانصاف والجهود ، والقرآن بين الحقيقة والمجاز والاعجاز ، وملامح من المجتمع العربي وأيام العرب (ذي قار واليرموك والقادسية ويوم الاندلس) .. الخ .

وهذا الاتجاه في مجال البحث يعطي صورة رجل من المدرسة الوسطى ، مدرسة البناء على الأسس التي طالما افتقدها العالم العربي في نهضته الفكرية اليوم ، ومنذ صدر البلاغ الاسبوعي والسياسة الاسبوعية وهما طليعتا النهضة الفكرية بعد الحرب العالمية الاولى ، ونحن نرى اسم محمد عبد الغني حسن يتردد ويمضي في مثابرة وعمل مستمر ، لا يتوقف من أجل رسالة الفكر والحياة .. فإذا به يكتب من بعد في الرسالة ومصر الحديثة المصورة والثقافة والمجلة .. وعشرات من المجلات الأدبية والعربية . أما المقتطف فقد سايه خلال عشرين عاماً كاملة أو

تزيد ، وقد رأيته في مجلداته (فوق السبعين) جاثماً في مكان مستقل عن مكتبة الاستاذ عبد الغني ، وهو ثروة لا شك فيها ، ومدرسة كاملة في الفكر والأدب والعلم والاجتماع .

ولا شك أن الخبرة القوية قد أتاحت لمؤلف حياة مي القديمة والجديدة ، ذوقاً رفيعاً في تقويم الكتب والاعمال المطبوعة والمؤلفة ، وكتابته الشهري (بريد الكتاب) يشهد بذوقه وقدرته في هذا المجال .

وإذا كان لا بد لنا أن نتناول الشاعر محمد عبد الغني حسن فإن ذلك يقتضي أن نشير الى دواوينه الأربعة :

وراء الأفق ١٩٤٧ - من نبع المياه ١٩٤٨ - من وحي النبوة ١٩٤٨ - ماضي من العمر ١٩٥٤ .

أما شعره فهاك نموذجاً منه :

هذا الفضاء أمام عينك فانظري تجديه ملء السمع ملء المنظر
إني أذوق به لذاذات الهوى وأشم نفح عبيره المتعطر
حيث الربيع هناك في ريعانه يخال في البرد النضير الاخضر
حلت بشاشته بكل ثنية وبدت نضارته لكل مصور
صور جلاها الحسن فهي مشاعة تهب لعباد الجمال الاطر
قد عفت ثرثرة المدينة فاسمعي همس النسيم يمر غير مثرثر
.. الخ .

ولست أرى إلا أنني أشارك الدكتور أحمد زكي أبو شادي فيه اذ يقول :
أن هذا الشاعر يمثل الرقة المصرية الماثورة في جميع شعره ، ولا أعرف شاعراً مصرياً ينافسه في حلاوة موسيقاه الى درجة كبيرة ، سوى عثمان حلمي صاحب نسائم البحر ، والمعلم الأول ايليا أبو ماضي حين إقامته بالاسكندرية ، وديباجة الشاعر محمد عبد الغني تمتاز بالأناقة الى جانب الصفاء والعذوبة . فاذا ما انتقلنا الى طاقته الشعرية وجدناه عنياً بها حينما يتجاوب مع الطبيعة .

وبعد فان مؤلف حياة مي قبل عشرين عاماً وبعدها ، هو أحد كتاب هذا الجيل الموهوبين الذين ضربوا في كل مجال بهم ، في التأليف والترجمة ونظم الشعر ، وقاربوا واستمروا على الطريق طويلاً ، وكان لهم خلال عملهم هدف واضح مشرق شريف . هو الكشف عن ذاتية هذه الأمة وعظمتها وأمجادها وبعث آثارها وتراثها . واثاحة الفرصة لهذا الجيل كي يعرف شخصيته ومكانه في الفكر العالمي والانساني .

وهو ماض في الطريق .. تحف به عاصفة مشرقة وإيمان أكيد .

● محمد عبد الغني حسن : من أبناء دار العلوم تعلم في إنجلترا . عرف بأنه من أبرز المتخصصين في دراسات الكتب والمؤلفات والوراقة في العالم العربي في العصر الحاضر .

من مؤلفاته : مي أدبية الشرق والعروبة ، وحياة مي ، والشعر العربي في المهجر ، وله ديوان شعر (ماض من العمر) ، واعلام الشرق والغرب ، وله ابو مسلم الخراساني ، والزباء بنت عمرو ، وغرائب من الرحلات ، ومعرض الأدب والتاريخ الاسلامي ، وملامح من المجتمع العربي ، وفن الترجمة في الادب العربي ، وعبد الله فكري (١٩٣٦) ، وعبد الله فكري (اعلام العرب) ١٩٦٦ ، وتيجان تهاوت ، وبين السطور ، ومن نسج الحياة ، ومن وراء الافق ، وشجرة الدر بالاشترارك الخ ..

(٣٢)

محمد عطا الحركة العاقلة

لا شك أن نقطة أمتنا واتجاهها الى الآفاق الواسعة العليا قد فتح أمام عدد من المفكرين والمثقفين ابواباً من البحث ، فنحن قد اخذنا نواجه حياة فكرية مليئة بالتطلعات . وقد بدأنا نتلقى افكار الشرق وافكار الغرب ، ونلازم بين شخصيتنا الاساسية وبين طوابع الثقافة والمذاهب المختلفة ، فنأخذ منها وندع . ومن هنا كان لابد أن تظهر في مجالنا الفكري الخاص نظريات تكيّف واقعنا وترسم مستقبلنا .

وقد عاش « محمد عطا » في ظل دراسات فكرية متصلة منذ ولي العمل على اعداد سلسلة كتاب (اخترنا لك) ، التي حفلت دراساتها بعدد من افكار الفلاسفة والباحثين والسياسيين ، ونظريات الاشتراكية والقومية والانسانية والحرية . فكان لا بد انه تبلور في اعماقه فكرة واضحة تابعة من واقعنا .

فالحركة العاقلة - على حد تفسيره - دعوة تابعة من حقيقة وجودنا في هذه الفترة الرائعة من تاريخنا . فقد تهيأ لنا ان نزيح كلبوس الاستعمار ، وأن نشعر

بوجودنا كدولة مستقلة ذات سيادة . وأن نأخذ على عاتقنا تحمل المسؤولية كاملة من غير أن نستعين الى دولة من الدول . بل أن نشق طريقنا ونحن معتقدون كل الاعتقاد بقوتنا ومعنويتنا ، وهذا الاعتقاد بشخصيتنا هو الذي أمدنا بالعزيمة الصادقة » .

ويصور محمد عطا الحركة العاقلة بأنها تابعة من منطقة البحر المتوسط ، هذه المنطقة التي تمتاز بالاعتدال . فلا يشتد حرها ولا يتجمد بردها . وليست منطقة مضطربة ، مليئة بالزلازل والبراكين . بل هي منطقة أقرب الى الوداعة والالفة والحركة المستأنية . وفي هذه المنطقة لا تجد أثراً للتطرف او اليسارية او التعصب او الحقد المضطرم . ومن هذه المنطقة تنبعث الديانات التي تسود العالم الآن والدعوات الاصلاحية ، انها المنطقة التي انبثقت منها فجر الضمير ، ودعوة التوحيد التي أشرقت على العالم .

ويقول : أن الحركة وحدها تعني أمرين : الامر الاول ماديتها ، والامر الآخر خضوعها لعامل الطبيعة او الانتخاب الطبيعي كما يقول دارون . ولكن اضافة العقل الى الحركة يعطيها مفهوماً جديداً ، ويضفي عليها تفسيراً آخر . فالعقل الانساني وهو أرقى عقل ، هو الذي يسدد الحركة ويوجهها لخير الانسان ، بل خير البشرية جميعاً . وأطلقت عليها العاقلة بدلاً من العقلية حتى لا تنصرف النظرية الى الحركة الفكرية فحسب . والعقل الموجه للحركة في أي زمن وفي أي مكان هو العقل الراجح التقدمي القيادي .

واذا كنا نؤمن بالحركة فمعنى هذا أننا نؤمن بالوحدة . لان عصرنا الذي نعيش فيه هو عصر التجمع لا التفرق . عصر التعاون الدولي . فاذا كنا نؤمن بسيادة العقل فمعنى هذا أننا نؤمن بالعمل الموجه . ونؤمن بأن مصلحة الجماعة فوق مصلحة الفرد . وأن الفرد لا يمكن أن يعيش وحده ، ولا أن يكون انساناً يجهل يبذله وحده . واذا كنا نؤمن بسيادة العقل ، فمعنى هذا

أننا نؤمن بالدين كقوة لها أثرها الفعال في حياة البشرية منذ أن وجدت
الرسالات الى اليوم والدين لا يتنافى مع العقل .

* * *

وبعد فما هي غاية هذه النظرية . « إنها غاية التفكير البشري
الذي يسعى الى إيجاد مجتمع انساني ، لا أثر فيه للطبقة او الاستعلاء او التدمير
او الاحتكار او الاستقلال ، وأن يعيش الانسان ويدع غيره يعيش » .

وجملة القول ان الحركة العاقله نظرية نابعة من محيطنا ، قائمة في ظل
تطورنا الفكري والاجتماعي الثوري ، او على حد تعبير لمعي المطيعي عنها بأنها
« دعوة حاسمة للعمل الموجه من أجل مستقبل أفضل ، سواء في الطبيعة أو
الحياة الاجتماعية أو التخطيط الذي يقوم على الدراسة العلمية والموضوعية » . ومن
هنا تكون نظرية الحركة العاقله تعني الحركة التي يحكمها العقل المضيء ، والتي
تفسر الاوضاع وتسعى الى تطويرها . وتضع خطة للمستقبل وتقوم على الدراسة
العلمية واكتشاف قوانين التطور ، وتجعل الحركة عاملاً خلافاً للاهداف . وهي
في ذات الوقت دعوة حاسمة للعمل الموجه الذي يقوم على التخطيط ، وتؤمن
بالتغيير المستمر وعدم الجمود .

* * *

ويمارض محمد عطا نظرية « التعادلية » ، التي دعا اليها توفيق الحكيم ،
الذي يرى أن أزمة الانسان في العصر الحديث انما مردها الى فقدان التعادل
بين العقل والقلب . بين الفكر والايمان . ويقول عطا : « متى كان التعادل
قائماً في العصور الاولى حيث همجية الانسان ، وحيث لا وازع من دين او
دافع من شريعة ، او في العصر الوسيط حيث كانت سطوة الباباطرة ، وسيادة
الحق الالهي للملوك ، وحيث الحروب الدائرة ، والتعصب السيدي ،
وخنق الحريات » .

ويقول « انني اعتقد ويؤيدني الواقع - ان قوة العقل انما يصحبها دائماً قوة الروح ، فالعلماء الأفذاذ باستير وداروين ولامارك وكوري وجاليلو ونيوتن وغيرهم ، هؤلاء جميعاً لم يصلوا الى ما وصلوا اليه من بحوث وكشوف الا بقوة أرواحهم وبمنابرتهم وكفاحهم .

ويقول أن التعادلية ترمي انسان العصر الحديث بأنه أصبح الان يحارب نفسه ، ولكني أعتقد غير ذلك ، فأجدادنا ربما كانوا يحاربون أنفسهم أكثر مما نفعل الآن . لقد أخذ انسان العصر الحاضر يدعو الى فض الخلافات بالطرق الودية ، وأن العصور السابقة كانت عصوراً تدعو الى القوة ، أما العصر الحديث فيدعو الى الحق والعدالة ويتجه الى ان يتعاون الانسان في كل بقاع العالم .

« ومحمد عطا » صاحب نظرية الحركة العاقلة ، هو واحد من كتابنا الذين برزوا بعد الحرب العالمية الثانية بكتابات متنوعة في الفكر السياسي والاجتماعي والتاريخي والأدب والقصة ، فكتابه « مصر بين ثورتين » و « الدعوة التحريرية الكبرى » اللذين صدرا عام ١٩٥٥ قد لقيتا تقديراً بعيد المدى في الدوائر المختلفة مما دعا الى ترجمتهما . وكتاب (نحو وعي جديد) في مجال البحث الاجتماعي والسياسي والثقافي في مصر ، وكتابه (القومية العربية بين ماض وحاضر) تجري كلها في مجال عمله الفكري ، الذي يتصدى به بحكم اشرافه على كتاب (اخترنا لك) . ولكنه بدأ يشق طريقاً خارج هذا المجال بكتابة مذكرات طفولته (هكذا عشنا) .

ودراسته عن الأدب العربي المعاصر (رأي في أدبنا المعاصر) التي ولدت نظرية الحركة العاقلة ، وكتابه عن خليل مطران .

ولا يلبث محمد عطا أن يجد طريقه الفكري الواضح بعد هذه الجولة الواسعة المستكشفة التي مر بها كل كتابنا وباحثينا ، يجدها في مجال القصة . وقد ظهرت له ثلاث قصص اولها عاطفية خالصة (حب وحرمان) . ثم أولى

اهتمامه للقصص التاريخي (أرض الصبر) عن فتح مصر ، (المملوك العاشق)
عن أيام الغوري ، ويكتب الآن (الندم) عن عصر بيبرس .

وتعطي تطلعات محمد عطا فكرة واضحة عن طريق طويل ، عاش في
أعمقه مطالعة وتأملًا منذ أوائل الأربعينات ، وتتميل في كتابات قصيرة
ومذكرات خاصة ، حتى برز بعد ذلك بخمسة عشر عامًا بعمل كامل فاضح هو
(مصر بين ثورتين) في مقارنة بين الثورة العربية وثورة ١٩١٩ .

وتتميز كتابات عطا بسمت حياته وطبيعته : الرصانة والهدوء ، فهو في
أبحاثه مستأن كثير التأمل والتقليب للأمور ، لا شيء يستعجله ، يواجه الأمور
والمسائل بشيء غير قليل من الرفق ، وأدبه صورة فكره وحياته .

● محمد عطا : (محمد مصطفى عطا) من أبناء دار العلوم والشرف على سلسلة
« اخترنا لك » .

من مؤلفاته : خليل مطران ، أرض الضمير ، القومية العربية بين ماض وحاضر ،
الشاعر أبو تمام ، الخ .

* * *

محمد علي دبور كتابة تاريخ المغرب الكبير

كان استقلال الجزائر ايذاناً ببدء مرحلة فكرية جديدة في المغرب العربي تتصل باللغة العربية والتاريخ ومختلف شؤون الثقافة والأدب والفكر . وكانت كتابة تاريخ المغرب العربي الكبير أملاً كبيراً يملأ نفوس المثقفين ، ويتطلعون اليه بعد أن حاول الاستعمار خلال أكثر من مائة وثلاثين عاماً تحريف هذا التاريخ ، واستغلال نصوصه وأحداثه للقضاء على الوحدة المغربية وخلق قوميات ضيقة ، او اثاره نعرات تمزق الصف ، وتحاول ان تجعل من كل الاقطار الاربعة (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) ، وحدة قائمة لها تاريخها وطابع ثقافتها ، في حين أن الحقيقة تثبت وحدة هذه المنطقة وتلاقيها تلاقياً كاملاً أمام ملامح واحدة ، لا تختلف كثيراً ، وكذلك كانت محاولات الاستعمار في محاولة تمزيق الروابط بين المشرق العربي والمغرب العربي ، للحيلولة دون التقاء الاجزاء العربية كلها من المحيط الى الخليج في وحدة كبرى .

لذلك فقد تطلع الباحثون نحو المغرب العربي يتساءلون :

متى يظهر ذلك المؤرخ الباحث الذي يعيد كتابة تاريخ المغرب العربي الكبير ، محققاً منصفاً مصححاً كل هذه الاخطاء . حتى ظهر هذه الايام الكتاب الأول من موسوعة تاريخ المغرب الكبير للاستاذ محمد علي دبور أستاذ التاريخ بمعهد الحياة بالقرارة في جنوب الجزائر ، وهو أكثر من ٥٠٠ صفحة من القطع الكبير معلناً عن ذلك الجهد المبذول منذ أكثر من خمسة عشر عاماً ، لأداء هذا العمل في عشرة مجلدات كبرى تتناول مراحل هذا التاريخ منذ فجره الى اليوم .

وتعسد موسوعة تاريخ المغرب الكبير من الاعمال الكبيرة الدلالة على قدرة الجزائريين في ميدان الفكر كقدرتهم في ميدان الحرب ، حين يقوم مؤرخ باحث كالاستاذ دبور بكتابة أكثر من خمسة آلاف صفحة ، مستعرضاً فيها تاريخ هذه الأجيال ، مراجعاً كل ما كتب في هذا الصدد ، كاشفاً عن عشرات من الحقائق التي شوها المؤرخون والكتّاب ، يقول المؤلف : « هذا هو أول كتاب « جزائري » يطبع بعد استقلالها وارتفاع علم العروبة فيها ، عسى اخواننا في الشرق العربي يرون فيه محياً للجزائر العربية ، وتاريخ المغرب صافياً نقياً من دعايات السياسة القديمة ، ومن أكاذيب المستعمرين الذين لم يألو جهداً في استغلال تلك الدعاية ، التي بشها الملوك المستبدون قديماً ضد المغرب ليشوها صفحته .. تلك الأكاذيب التي استغلها المستعمرون ليسودوا صفحة مغربنا المشرقة ، فيبعدهم عن تاريخ أجدادهم ، فيسهل صبغهم بما يريدون .. وتجريدهم من شخصياتهم الاسلامية العربية كما يشاؤون » . وأشار المؤلف الى الدور الذي لعبه التعلم المشرف عليه في المغرب كله ، والجزائر بالذات . حيث يقول : « كانوا ينشرون في مدارسهم الاستعمارية من الاكاذيب التي تبدي وجه أجدادنا الجميل على غير حقيقته ، وتبرز المغرب في غير حله الزاهية ، وينشرون ما وقع بين المغرب والملوك المستبدين من الامويين والعباسيين ليعيدوا المغرب عن المشرق ، ويجعلوا الناشئين يعتقدون ان المغرب في كنف الدولة الاسلامية كانت أيامه مصبوغة بالدماء .. الى محاولة تحريف تاريخه المجيد في الازدراء

بأجدادنا ، وتشويه سمعة دولتنا ليخلقوا في نفوس أبنائنا عقائد سيئة عن أجدادهم تصرفهم عن الاعتناء بتاريخهم » . وأشار المؤلف الى الدور الذي قامت به المعاهد العربية الحرة في الحفاظ على التاريخ ، ومن أهمها معهد عبد الحميد بن باديس في شمال الجزائر ، ومعهد الحياة في جنوبها ، حيث يشرف على الحركة الثقافية العربية عالم من أعظم علماء المغرب هو السيد ابراهيم بيوض ، وهو الذي أتاح للمؤلف الفرصة لالقاء عديد من المحاضرات في تصحيح هذا التاريخ .

ويقول المؤلف أنه أسرع بالحلقات المظلومة في تاريخ المغرب العربي ، فأصدر هذا الجزء عن الفتح الاسلامي ، وستلونها حلقة مبحولة هي تاريخ المغرب منذ منتصف القرن التاسع عشر الى ثورة الجزائر .

وصور المؤلف كيف كان هذا العمل صعباً كل الصعوبة ، وكان الطريق في هذه العهود مطموساً والسبيل غير معبد ، وأغلب من كتبوا في تاريخ المغرب من المحدثين قد اغتروا بالمصادر « الملكية » فرددوا أغلاط المؤرخين القدماء ، فكان عليه أن يكتب فصولاً جديدة معتمداً فيها على المصادر الصحيحة ، وأن يسلك طريقاً غير معبدة ، وأن يأتي بشيء لم يسبق اليه . ويقول المؤلف أنه بدأ العمل في كتابة هذه الفصول منذ عام ١٩٥٠ ، بعد أن أتم مراجعته الأولى . وكان على نية أن يطبعه عام ١٩٥٤ ، غير أن قيام الثورة الجزائرية قد حال دون ذلك ، فمضى يتوسع في المراجع ويطلق دائرة البحث الى مداها ، وقد أتيح له أن يقوم بحولة واسعة في الجزائر ليطالع عديداً من الأبحاث المخطوطة الموجودة في الخزائن القديمة ، وهي خزائن في جنوب الجزائر لم تمتد اليها يد ، كما زار مكاتب تونس الحضرء ودار الكتب العربية في القاهرة .

وكانت أخطر مرحلة في حياة موسوعته هي مرحلة الثورة ، حيث تعرضت بلده « القرارة » للتفتيش عشرات المرات ، وكان قد وضع مسودة كتابه

في صندوق خشبي لا مسامير فيه ، لكي لا تكشفه الآلات التي تدل على الحديد ، وقد ردمه في الحديقة زمناً وكان كلما هوجمت البلدة يضرع الى الله أن يحفظه .

ومن أغلى ما كان يخشى عليه « الخرائط » التي أمضى ثلاث سنوات في العمل بها من أجل التنقيب عن حدود الدول المغربية في القرن الثاني والثالث الهجري وقبل الاسلام .

وما أن أعلن استقلال الجزائر حتى كان المؤلف قد ركب الطائرة الى القاهرة ، حيث بدأ في طبع كتابه واستكمال مراجعته في دار الكتب ، حيث اتخذ له كرسيًا يحمل رقماً لا يتغير هو « ٦١ » .

والمؤلف عالم باحث درس في الجزائر وتونس والقاهرة ، وشغف بدراسة التاريخ منذ شبابه . وكان أول من قدم القاهرة عام ١٩٤٤ من المغرب سائراً على قدميه ، قاطعاً حدود تونس وليبيا حتى وصل مصر إبان الحرب العالمية ونزول الحلفاء في صقلية . ولم يكن من اليسير أن يسمح له بالسفر في هذه الفترة . وقد قسم المؤلف موسوعته الى عشرة أقسام هي (من العصر الحجري الى الفتح الاسلامي) .

من الفتح الاسلامي الى نشأة الدول الاسلامية المغربية المستقلة .

(٢٢ - ١٤٠ هـ) .

— الدول الاسلامية المستقلة حتى القرن الرابع .

— الدول العبيدية ودولة الصنهاجين ودولة بني حماد .

— دولة المرابطين والموحدين والصحفيين ..

— دولة بني مرين ودولة بني زيان .

— الدولة التركية والاحتلال الفرنسي .

— النهضة الجزائرية الحديثة وثورة الجزائر .

ويحمل كتاب تاريخ المغرب العربي الكبير دعوة حارة الى الوحدة .
(ان المغرب كان وطناً واحداً يسكنه شعب واحد .. لم يعرف هذه
التجزئة التي صار اليها المغرب الآن) .

● محمد علي ديوز : أستاذ التاريخ بمعهد الحياة بالقرارة (جنوب الجزائر) ،
تخصص في دراسة تاريخ النهضة الاصلاحية في الجزائر ، وهو
صاحب موسوعة تاريخ المغرب الكبير في ٣ مجلدات ، هاجر من
وطنه خلال الحرب العالمية للالتحاق بالازهر في القاهرة . يعمل
الان في اعداد دراسة مطولة عن « نهضة الجزائر الحديثة » ..



(٣٤)

محمد عبد الله عنان الإسلام والاندلس

من خلال ثلاثين عاماً تبرز صورة العلامة « محمد عبد الله عنان » ، وهو يشق طريقه في مجال الدراسة التاريخية الإسلامية ، حتى تخصص منذ بضعة عشر عاماً على دراسات الاندلس ، فصرف إليها كل وقته وجهده حتى أصدر موسوعته الضخمة .

والحق أنه عندما يتم عمل ضخيم في مجال التحقيق العلمي ، على النحو الذي أتم به المؤرخ الكبير محمد عبد الله عنان موسوعته عن « الاندلس » ، فإن دوائر الفكر تتظر بالتقدير البالغ للباحث وأثره . وتتطلع الى نظرة شاملة عن حياة هذا المفكر ، تكشف من خلالها عن أعماق فكره وأبعاد عمله في مجال البحث والدراسة .

وقد أصدر الاستاذ عنان آخر أجزاء هذه الموسوعة ، وهو كتابه « عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس » في مجلدين كبيرين يضمان نحواً من ١٤٠٠ صفحة من القطع الكبير . وكان الجزء الاول من كتابه قد ظهر متضمناً تاريخ الدولة المرابطية في المغرب حتى سقوطها على يد « المهدي بن

ثومت » ، وخليفته الأول « عبد المؤمن بن علي » ، ثم قيام الدولة الموحدية على أنقاضها . ثم ظهر المجلد الثاني عن « نصر الموحدين وانهيار الاندلس الكبرى » ، متضمناً تاريخ الدولة الموحدية في المغرب والاندلس . ومراحل الصراع بينها وبين أسبانيا النصرانية وما نشب بينها من الوقائع العظيمة الحاسمة ، ولا سيما معركتي « الأرك » و « العقاب » ، ومشتتلاً على تاريخ الخلفاء الموحدين بأسباب ، منذ عصر الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن حتى عصر آخرهم الواثق أبي دبوس ، وانتهاء الدولة الموحدية في المغرب على يد بني مرين . وقد استعرض هذا الجزء انهيار الاندلس الكبرى ، ومأساة سقوط قواعدها الثالثة (قرطبة) ، وبلنسية ومرسية وشاطبة وإشبيلية وجيان وغيرها في أيدي الأسبان . كما قدم للقارئ كعادته في كل أجزاء الموسوعة خرائط تخطيطية لسائر الوقائع الكبيرة ، مع دراسة مستفيضة للنظم الموحدية السياسية والعسكرية والإدارية والاقتصادية ، وللحركة الفكرية خلال العصر الموحيدي .

* * *

وهذا الكتاب - في جزئيه - أتم الاستاذ عنان موسوعة تاريخ الاندلس في سبع مجلدات ضخام تضم نحو أربعة آلاف صفحة ، ممثلة في (١) دولة الاسلام في الاندلس ، (٢) دولة الطوائف ، (٣) عصر المرابطين والموحدين ، (٤) نهاية الاندلس ، (٥) الآثار الاندلسية الباقية . وقد عايش المؤرخ بحته هذا ربع قرن كامل ، منذ اتجه اليه وتفرغ له في عزيمة صادقة ، غير حافل بأي جهد أو مال يبذل في سبيل تحقيق الغاية التي أخذ نفسه بها . والحق أن هذا العمل الكبير ، لا يمكن أن ينظر اليه منفصلاً عن شخصية الاستاذ عنان ، اذ يمثل قمة فكره خلال مراحل طويلة من الدراسة والبحث ، بدأت منذ مطلع حياته . فمن خلال حياة عريضة مثرية في التأليف والتحرير يسدو هذا « المؤرخ » ، وقد عرف وجهته منذ اللحظة الاولى على النحو الذي بلغه اليوم بعد ، أن جاوز الستين من العمر . فقد كانت تطلعاته كلها وأدواته ، هي

تطلعات المؤرخ وأدواته . ولم يكن عمله في الصحافة أو المحاماة أو رحلاته أو دراساته للغات القديمة والجديدة ، إلا وسائله لعمله الأكبر الذي أولاه روحه وعقله . ثم كانت دراسات الاندلس هي قمة هذا العمل .

* * *

فهو في طابع أبحاثه التي بدأها منذ عام ١٩٢٦ الباحث المؤرخ الطلي العبارة الدقيق في عرضه للوثائق وتحليلها واستخلاص الحقائق . « فالصحافة » وسيلته الى نشر ما يحقق من الجوانب الغامضة أو المجهولة « والمحاماة » عنده هي الدفاع عن قضية كبرى هي قضية أمة كالأندلس ، « والرحلة » عنده هي البحث المضي وراء الآثار والمواقع والجبال والقلاع والأسوار والقناطر والاطلال . أما اللغات الكثيرة التي يجيدها فهي وسائله للوصول الى أدق خيوط الأثر العلمي .

وهو كيفما يكتب إنما يحاول أن يكشف عن مجهول أو يكمل جانباً ناقصاً ، أو يلقي الاضواء على قطاع غامض من التاريخ .

* * *

ومنذ مطالع شباب مؤرخنا الكبير نجد مادة « التاريخ » تأخذ بلبه وتستولي على روحه وتشده اليها . فهو كلف بها يصرف وقته في مطالعات استهوته منها « مقدمة ابن خلدون » فعضى يستوعبها في سن الثانية عشرة ، متخذاً من شيخ المؤرخين علامة البدء في الطريق الذي لم يكن قد تكشف له بعد . ثم اذا هو محب للحريري يعشقه ويتغنى بشعره ويحفظ منه . فاذا أضيف الى ذلك ما حفظه في المدرسة الأولية من القرآن الكريم ، وما قرأه من العقد الفريد وغيره عرفنا مصدر تلك الاصلة العربية الواضحة في أسلوبه ، والتي زادها قوة وصقلا ما أضاف اليها فيما بعد من قراءات في الآداب الانجليزية

والفرنسية والالمانية ، حين عكف على ماكولي وجيبون وكارليل ورائكه
وتبهر وغيرهم من أعلام الأدب والتاريخ . فقد قرأ آثارهم الرائعة التي أعطته
روحها في براعة الأداء وسلامة العرض لأرائه وفكره . ومن عصارة الثقافتين
العربية والغربية ، تكون ذلك المزيج الذي يأمر القلب حين تطالع آثار
ذلك المؤرخ الاسلامي ، حين يمزج الأدب والعلم والفن في أسلوبه ومنهجه .

* * *

ومن خلال دراساته أضيء الطريق أمامه الى غايته ، فهو يدرس الحقوق
ويتخصص في القانون الدولي ، ويعمل في المحاماة ويتصل بالصحافة ، ثم يتعمق
الطريق أمامه في أول الثلاثينات في عملين كبيرين هما : الدراسات الغامضة في
التاريخ ، والصدام بين الشرق والغرب .

وقد أصدر في ذلك طائفة من الآثار والمؤلفات ، وفي هذه الدراسات واجه
المؤرخ جوانب جديدة ، وكشف عن صفحات مشجية لم يعن بها من قبله
أحد من الباحثين ، وهو بذلك قد أغنى فكرنا بألوان من الدراسات التاريخية
معروضة على نحو علمي دقيق ، وفي أسلوب ناصع مشرق .

ويضي عنان في طريقه ليصل الى أول الأربعينات من هذا القرن ، ومن
عمره أيضاً . والى قمة دراساته وأعماله التاريخية وهو « تاريخ الأندلس » .

وهنا تتكشف نفسية مؤرخنا الاسلامي عن أعماقها قوة وبراعة وإخلاصاً
لفنه ، على نحو لم يتيسر لكثير من الباحثين والمؤرخين . فقد أحس « عنان »
بمدى حاجة تاريخ الأندلس الى الدراسة المستوعبة ، وهو الذي صاحبه منذ
مطالع شبابه بدراسات لمواقفه الحاسمة وتاريخ فتوحه وسير بعض أبطاله .

ولم يكن اتجاه عنان الى « تاريخ الأندلس » الا تمثلاً لأعق مشاعره وأصدق
أحاسيسه ، فهو الذي عني منذ شبابه بأمر معارك العرب الكبرى ، وكان من

أشدّها معركة « بلاط الشهداء » بين كارل مارتل وغيد الرخن الفافقي على ضفاف اللوار ، وحصار العرب للقسطنطينية وهزيمتهم تحت أسوارها . ثم كان إحساسه على مدى الأيام وهو يتحول من عمله كمحام الى عمله كمؤرخ ، أن الأمر يتغير في تقديره ، فالمؤرخ محام في قضية كبرى ، ومن هنا كان لا بد لهذا المحامي الطموح أن يتولى الدفاع عن أكبر قضية في تاريخ الاسلام ، وهي قضية الأندلس .

* * *

ولم يكن تاريخ الأندلس محبوباً عن دراسات الكثيرين من الباحثين الغربيين والشرقيين على السواء ، ولكنه كان في حاجة الى عمل كامل شامل يحقق كل ما قدمه الباحثون في مجال البحث من آراء ، وأن يكون مجالاً للتحقيق غير مقتصر على نصوص الكتب ، وانما يتجاوزها الى المخطوطات والوثائق المدفونة . فموائد البحث في دور الكتب لا تكفي ولا بد من مشاهدة مواطن المعارك في أرض الأندلس نفسها .

* * *

ومنذ عام ١٩٤٠ وفي خلال ربع قرن ارتبطت دراسة تاريخ الأندلس بأخصب سنوات حياة عنان . فقد أمضى هذه السنوات في دراسة هذا التاريخ الشجي ، ثم في رحلات متصلة الى أرض « الفردوس الاسلامي المفقود » . وهو منذ سنة ١٩٥٠ يقوم في كل عام برحلة . يمضي فيها الشهور الطويلة هناك بين الوهاد والسهول والمدن والقرى الاسبانية ، باحثاً منقباً محققاً عن مواقع الآثار الأندلسية ، ثم متردداً على دور المخطوطات في الاسكوريال وسمانقسا ومدريد وبلنسية وخزانة الرباط وخزانة جامع القرويين في فاس .

وهو في خلال أكثر من اثنتي عشرة رحلة ، لم يترك قرية ولا مسجداً ولا

سوراً ولا كنيسة ولا موقعة ولا أثرأ في الأرض الأندلسية دون أن يزوره ،
أو يحقق تاريخه ، أو يصوره ، أو يراجع ما كتب عنه .

وقد بلغ في ذلك غاية ما يفعل المؤرخ الذي لا يكتفي ، بأن يضع بين يديه
الوثائق والأسانيد ، ثم يفحصها ويحققها . بل يقصد الى الأماكن التي كانت
مسرحاً للأحداث أو المعارك أو المواقع فيفحص أرضها وأحجارها ، بل لقد
يضطر الى أن يصعد ثمانى ساعات الى الجبل ، ليقطع ثلاثة آلاف متر ويصل الى
موقع معركة « العقاب » .

وهو في هذه الرحلات ينفق من خالص ماله ، لا يستعين بمؤسسة أو هيئة
ما ، ويبذل من صحته حيث يحتمل مشقة التنقل وصعود الجبال ، لا يدفعه الى
ذلك غير إيمانه العميق برسالته وهدفه .

وقد استطاع أن يحقق نتائج باهرة ، فقد حصل على كثير من الوثائق
الجديدة في تاريخ الأندلس والمغرب ، ومنها وثائق لم يسبقه أحد الى كشفها .
من ذلك وثائق ومعاهدات أندلسية إسبانية ينشرها لأول مرة باللغة العربية ،
ولم يفتن إليها أي مؤرخ غربي أو شرقي .

* * *

ولعله مما لم يسبق اليه أنه يكتب عن المعارك في مواقعها ، حيث يزور
أرضها ويدور حولها ويحقق كل دقائقها ثم يتخذ مكانه ومعه مراجعه ووثائقه ،
ليكتب وأمامه الجبل والحصن والنهر وكأنما يرى المعركة تدور أو يسمع صليل
السيوف وصهيل الخيول .

وهو يقول : « لم أترك مدينة أندلسية أو قرية الا زرتها ، ولم أترك ميداناً
لمعركة هامة وقعت بين المسلمين والإسبان الا زرتها ودرستها . وقد طفت في
جبال - الشارات - « سير أمورينا » وجبال « سيراهادا » وغيرها من الجبال
والوهاد » .

* * *

والواقع أننا من خلال هذا العمل التاريخي الكبير في مجال دراسة الأندلس، نكتشف جوهر شخصية هذا المؤرخ الذي وهب نفسه للفكرة التي آمن بها . فهو يقول : « أعتقد في دخيلة نفسي أن لي رسالة تاريخية أهبها حياتي ، وهي جلاء التاريخ الاسلامي في ثوب ناصع يتفق مع عظمة الرسالة الاسلامية ، وقيمة النتائج التي انتهيت الى تحقيقها و ابرازها بانصاف وصدق ودون أي نغرة عنصرية » .

ويقول أيضاً : « لقد أحببت الأندلس حباً ملك علي شغاف قلبي ، فأنا في كل مرة أزورها أكاد أقبل أحجار قصر الحمراء في غرناطة ، وأبكي أمام المحارب الاسلامية في قرطبة ، ولكنني لا أدع هذه العاطفة تتدخل في عملي . فأنما أنا محام ومؤرخ أبحث القضية بروح الانصاف والحق وأتطلع الى السند والوثيقة ولا أحجم عن اصدار حكمي وان خالف رأيي غيري » .

* * *

وهكذا تدور حياة مؤرخنا الاسلامي الكبير محمد عبد الله عنان ، متصلة مترابطة منذ مطالعها على نحو قلما أتيج لمفكر أو باحث . فقد وجد عنان طريقه منذ اللحظة الأولى ، وعاش حياته كلها يعمق هذا الطريق ويوسعه ، وقد استطاع أن يقدم للفكر الاسلامي هذا العمل الكبير في موسوعته الأندلسية التي اكتملت حلقاتها بصدور كتابه « عصر المرابطين والموحدين » . وعندنا أن عمل مؤرخنا الكبير ما زال ممتداً في تحقيق جوانب كثيرة من تاريخنا الاسلامي ، وما زال قراءه يتطلعون دائماً الى آثاره وأعماله التي اتسمت دائماً بالدقة والخصوبة ، والتي أثارت كثيراً من الجوانب الغامضة ، وأكملت غير قليل من الحلقات المفقودة .

● محمد عبد الله عنان : مؤرخ الاسلام والأندلس من مواليد ١٩٠٦ تقريباً .

من مؤلفاته : تراجم اسلامية شرقية وأندلسية ، المذاهب الاجتماعية ،
ابن خلدون ، مصر الاسلامية ، قصص اجتماعية ، الحاكم
بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، مواقف حاسمة في
تاريخ الاسلام ، قضايا التاريخ الكبرى واشهر المحاكمات ،
تاريخ الجامع الأزهر ، المآسي والصور الغوامض ، مأساة
مايرلنج النخ .



الدكتور محمد حسين تطوّر الأدب

عرف الباحثون الدكتور محمد حسين بكتابه « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر » الذي أصدره منذ بضعة عشر عاماً ، والكتاب يعطي صورة « أستاذ الأدب » . وحتى يمكن أن يكتمل رسم الصورة ، فلا بد أن نرجع الى آثاره الأخرى التي تجاوزت ميدان الأدب الى ميدان الفكر . وكان قد أصدر في السنوات الأخيرة بعض دراسات قصيرة منها كتاب : « الروحية الحديثة حقيقتها وأهدافها » ومحاضراته : « اتجاهات هدامة في الفكر العربي المعاصر » ، ومجموعة مقالاته التي نشرها في مجلة الأزهر عن « الثقافة العربية والاستعمار » ، ومحاضراته عن الإسلام والحضارة الغربية .

وهي في مجموعها تعطي صورة هذا الباحث العربي في مجال الفكر والثقافة ، فهو معني باللغة العربية والأدب العربي والثقافة الاسلامية . فاللغة العربية عنده هي أقدم ما تقوم عليه الوحدة العربية من الروابط ، وهي الرابطة التي ارتفعت حتى الآن فوق كل مرء ، « فقد مارى أعداء العروبة زمناً في أن العرب ينتمون الى جنس واحد ، فسمعنا أصوات المنكرين ، وماروا حيناً في ارتباط القومية العربية بالاسلام ، فسمعنا من يزعم أن هذه الصبغة تنفر غير

المسلمين من العرب ، وظلت رابطة اللغة بعد ذلك تسمو على كل مرأه ، لا ينازع منازع في أنها هي الرباط الأقوى بين العرب » .

وعنده أن الاتجهات الهدامة الموجهة الى اللغة العربية تهدف الى الدعوة للتحويل عنها ، الى اللهجات السوقية المحلية التي يطلقون عليها اسم العامية ، او الدعوة الى التحويل الى الحروف اللاتينية . وقد ظهرت هذه الدعوات أول ما ظهرت على أيدي رجال الاستعمار في مختلف اجزاء الوطن العربي ، وفي مقدمتهم سيتا ، وفولارز وباول وماسبيرو الذين قادوا هذه الدعوة في مصر ١٨٨٠ . وقد جمع بعض هؤلاء المؤلفين طائفة من الحكايات والأمثال وألفان من مرردات العوام ، ونادوا باتخاذ اللهجة التي كتبت بها هذه المرردات «لغة» للتدوين والتأليف والأدب الرفيع . كما وضع بعضهم كتباً استنبط منها قواعد للهجة مصر العامية ، واقتصر بعضهم على لهجة القاهرة ، وفعل مثل هذه آخرون في مختلف البلاد العربية . فكتب كوسان دي برسفال كتاباً في (قواعد العامية الشرقية) والمغربية ، وكتب ماسنيون (لهجة بيروت العامية) ، ثم في لهجة بغداد العامية وكتب غيرها في لهجة مراکش العامية ، وعامية دمشق .

وقال الدكتور محمد محمد حسين أنه ليس لهذه الدعوات من هدف سوى محاربة الفصحى والتخلص منها دفعة واحدة ، إذا أمكن ، وبالتدريج إذا استعصى ذلك ، وأشار الى حجج أعداء اللغة فقال : أنها لا تتجاوز الكلام عن صعوبة تعلمها من ناحية ، والقول بعجزها عن تأدية الأغراض الأدبية والعلمية الحديثة ، وهم يجهلون على اعتراض المعترضين بضائع التراث القديم بالتقليل من قيمة هذا التراث ثارة ، وبإمكان ترجمة الصالح منه الى اللهجات الجديدة ثارة أخرى .

ثم رد الدكتور محمد حسين على مزاعم خصوم اللغة العربية فقال : أن عامة العرب والمسلمين وخاصتهم لا يستغنون عن الفصحى لمطالعة القرآن والحديث وكتب الفكر العربي ، وأن اللغة العربية ليست غريبة على أفهام العامة إلا إذ

أريد التفتقر . أما لغة الانشاء العصرية فهي شائعة في الصحف والمجلات
ويفهمها الخاص والعام .

وقال أنه لا يجوز قياس العربية على اللاتينية ، لأن الفرق بين اللاتينية
وفروعها أبعد كثيراً من الفرق بين العربية وفروعها العامية ، فالعامي
الانكليزي والفرنسي ينظر الى اللاتينية نظرتة الى لغة غريبة ، أما العامي
العربي فإنه يفهم اللغة العربية الفصحى ، وإذا فاته بعض الألفاظ فإن المعنى الإجمالي
يندر أن يفوته .

ودحض الدكتور حسين الزعم القائل بأن اللغة العربية بدعاً في اللغات ،
بامتياز اللغة المكتوبة فيها عن اللهجة المحكية ، وأن هذا زعم باطل ، فلكل
أمة لغة للعلم والثقافة والأدب تختلف عن لهجة الحديث والأسواق ، وكذلك
كان الشأن في العربية منذ الجاهلية ، فكانت للعرب لغة أدبية موحدة يكتبون
بها أشعارهم غير التي يتحدثونها في أسفارهم وفي معاملاتهم ، والتي ربما استعملوها
في أدب محلي يتمثل في أرجازهم ، وهذا هو السبب في إهمال كتب الأدب
للرجز واحتقارها له وتسميته (حمار الشعر) ، فتجاوز لغة الأدب ولهجة
الحديث أمر واقع وظاهرة طبيعية كل منها صحيح في ميدانه .

وقال : ان القائلين بأن يتخذ كل عربي لهجته العامية ، هم القائلون بالتحلل
العالم العربي وتشتيت شمل الناطقين بالعربية ، وان قواعد النحو التي يزعمون
أنها معقدة قد استطاعت أن تعيش أكثر من ألف سنة ، أنتج الناس خلالها في
مختلف الأمصار العربية وغير العربية ثروة من الكتب العربية الصحيحة لا
تحصى ، وأن هذه القرون المتطاولة أصدق شهادة لصلاحية النحو من كل
ما يزعمون .

أما في مجال الأدب ، فالدكتور محمد حسين معني « بتصحيح المفاهيم » ،
فهو لا يرى أن بعض هذه الصور المنحرفة تمثل أصالة أدبنا العربي التي
تتمثل فيه طبيعة العربي وخلقه ومروءته وأريحيته ، وعنده أن أكثر ما يذاع

من هذا الأدب الهدام الذي يعوق نظرة الانسان العربي يتستر تحت اسم مذاهب فنية ودراسات علمية ، وهو مطبوع بطابع غريب على الأمة العربية ، إذ هو مطبوع بطابع الأنانية والانطواء على النفس حيث تجدد النفوس السقيمة لذتها في الشكوى والبكاء .

وعنده أن هناك ألواناً من الأدب تعرض خفايا العورات وتجرح كثيراً من الفضائل باسم « الواقعية والتحليل النفسي » ، فهي تبرز كثيراً من الرزائل باسم التنفيس وتسقط التبعة عن كثير من الجرائم بزعم أن أصحابها مصابون بأمراض نفسية .

ومن ذلك ما ذاع باسم التحرر من الدعوة الى إعادة النظر في كل موارثنا الخلقية ومعاييرنا الاجتماعية ، والى الخروج عن كل ثابت مقرر مما توفره التقاليد ويقدمه الدين .

ولكن الدكتور محمد حسين لا يدعو الى مصادرة البحوث النفسية والاجتماعية والخلقية ، فذلك مما لا يدعو اليه مفكر يقدر نعمة العقل ، ولكنه يدعو الى تقييدها بالدين ، لئلا تتفرق بالناس السبل ، ولكي لا تمزقهم الخلافات الواسعة والمذاهب المتصارعة المتناقضة ، وعنده أن « الدين » ليس قيداً في حقيقة الأمر لأنه لا يعطل العقل ، ولكنه يحفظه من الضلال ، ويلزمه أصولاً وقواعد هي كالسور الذي يعصم السالك في الظلام من التردى من الهاوية .

* * *

والدكتور محمد حسين رجل غير مكثّر في ميدان الكتابة ، ولكنه رصين الأداء مقتدر في استيفاء جوانب موضوعه ، ينظر الى الأمور في عمق ويستهدف إيماناً صادقاً بالقوميات الأساسية للفكر العربي ودفاعاً عنها . وكتابه « الاتجاهات الوطنية » في جزئيه خير مثل لهذه الروح ، وفي دراسته عن الروحية الحديثة وموقفه من المؤتمرات المختلفة التي تعقد لدراسة شئون الشرق والفكر العربي .

والاسلام واضح الدلالة على رغبته في أن تحتفظ هذه الأمة بمقوماتها الأساسية وأن تجعلها مصدراً لتطورها الثقافي والفكري .

وفي محاضرته عن «الاسلام والحضارة الغربية» يكشف ذلك الجانب الدقيق المتصل بين رفاة الطهطاوي وخير الدين التونسي، وهما رائدا الدعوة الى الترجمة والنقل والاقتراس من الفكر الغربي . أما رفاة الطهطاوي فقد نشر أفكاره هذه في عديد من مؤلفاته : (١) تخلص الابرز في تلخيص باريز . (٢) المرشد الأمين للبنات والبنين . (٣) مناهج الأبواب المصرية في مباحث الآداب العصرية . أما خير الدين فقد أدرج آرائه كلها في كتابه « أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك » ، وعند الدكتور حسين أن أبرز هذه الأفكار هي : الحرية والتعليم ، والوطن والوطنية . أما خير الدين فقد كان يشارك رفاة الطهطاوي في الإعجاب بالحرية التي قامت عليها الحضارة الغربية ، ولكنه على حد تعبير الدكتور حسين كان أعمق من الطهطاوي في تصور حدودها وآفاقها وما يترتب عليها من آثار .

ومن أهم ما خلص اليه الدكتور محمد حسين في دراساته ، ذلك الموقف الذي يقفه من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده . وهو موقف ليس جديداً بالنسبة للعاملين الاسلاميين فقد سبقه اليه كثيرون ، ولكن الجديد أنه تناولوه على نحو بعيد عن الهوى ، وبمنهج علمي أساسه الحاجة الشديدة الى إعادة النظر في تقويم الرجال ذلك - وهذه عبارته - « ان كثيراً ممن نعتبرهم دعائم النهضة الحديثة لم يصبحوا كذلك في أوهام الناس ، إلا بسبب الدعايات المغرضة التي أرادت أن تضعهم في هذه المنزلة » ، يقول : « ونحن حين ندعو إلى إعادة النظر في تقويم الرجال لا نريد أن ننقص من قدر أحد ، ولكن لا نريد أن نقوم في مجتمعنا أصنام معبودة » ، وأهم ما يلفت نظر الدكتور حسين في جمال الدين الأفغاني غموض سيرته وغرابة أطواره ، هذا الغموض الذي يصفه بأن الأيام لم تكشف حقيقته بعد ، يقول : « وقد ترك هذا الرجل الغريب أثراً عميقاً في توجيه الفكر الاسلامي ، والأحداث السياسية في هذه الفترة وفيما تلاها ، ولا

يزال أثره باقياً وميسمه واضحاً حتى الآن » ، وعنده ان الدارس المدقق لسيرة جمال الدين لا يملك إلا أن يتوقف أمام كثير من الظواهر الغريبة في سيرته ، إنه يتساءل : « فيم تنقله السريع المفاجيء الذي لا يفتر بين ايران وبلاد الأفغان والهند والحجاز ومصر وتركيا وفرنسا والمجترات والروسيا ، وفيه هذه الأزياء المختلفة التي كان يلبسها في كل بلد ، فيم كل هذا وباغي الخير لا يحتاج الى التستر والتخفي ومن أين كان ينفق على هذه الرحلات ؟ .. » !

وهكذا يمضي الدكتور محمد حسين في إثارة الشبهات حول حقيقة جمال الدين ومواقفه ، مخالفاً كل ما ذهب الناس اليه من الثقة به ، واعتباره رائد النهضة وموقظ الشرق ، وليس على الباحث من ضير في أن يرى ما يراه ، ما دام يقدم دليله وفق منهج البحث العلمي . ويقف الدكتور حسين نفس الموقف من الشيخ محمد عبده ، حين تابع أستاذه جمال الدين ، وحين تحول عنه وركز في الشبهة على اتصاله بالفرد بلنت ، وصلته باللورد كرومر ، مورداً نصوصاً وأسانيد يستشهد بها على ما اعتقده واقتنع به .

وليس من شك أن البحث العلمي للفكر العربي المعاصر في حاجة الى مثل هذه النوافذ الحرة ، التي تقلب الأمور في تاريخنا على وجوهها المختلفة ، والتي تقف من الآراء المعتنقة والمتفق عليها موقف الشك والمراجعة ، ولا شك أن مثل هذه الدراسات ستكون بعيدة الفائدة في تعميق مجرى فكرنا العربي وتأصيله .

● الدكتور م . محمد حسين : أستاذ الأدب العربي بجامعة الاسكندرية ، من مواليد سراج ١٩١٢ تقريباً ، ابرز مؤلفاته : كتابه : الانجاعات الوطنية في الأدب المعاصر (٢ مجلد) ، وله محاضرات متعددة ، أبرزها محاضراته عن الاسلام والحضارة الغربية ، وقد حقق بعض الكتب المخطوطة ، عمل فترة في جامعة ليبيا ، وجه طلابه الى دراسات خطية ، مثمرة .

الدكتور مصطفى الحفناوي تأليف قناة السويس

من القضايا الكبرى في حياة الأمم والشعوب قضايا مسيطرة اذا اقترب منها الباحث جردته لها واستأثرت به حياته كله وفكره كله ، واذا كان أدب الطفل قد استأثر بكامل كيلاني ، والحوار والمسرح بتوفيق الحكيم ، والتاريخ القومي بعبد الرحمن الرافعي ، فإن تاريخ وقضية قناة السويس قد استأثرت بفكر الدكتور مصطفى الحفناوي وحياته على نحو صرفه اليها عشر سنوات ، ودفعه الى إنشاء مطبعة قناة السويس وأن يتولى في مكتبه كمحام قضايا قناة السويس ، وأن يعيش هذه القضية في مصر وفي باريس حتى يحرز درجة الدكتوراه فيها من فوق كرسي جامعة السوربون .

يقول : « حتى عام ١٩٤٧ لم أكن أعرف عن القناة أكثر من أنها شريان يجري في أرض مصر ، وكنت محامياً أباشر فيما أباشر من المنازعات التي وكلت فيها قضايا عملية قناطر أسنا ، التي نقدتها شركة موكلتي لحساب وزارة الأشغال . ودعوتي للندن للنقاش في تلك الأمور القضائية ، ولم أكن سافرت لأوروبا من قبل ، وصادفني بعرض البحر وأنا أتناول طعام الافطار بالباخرة

مسافر انجليزي راح يسلي الركاب بحديث عن قناة السويس ، وبين من ثناياه على مصر ويسبها فاعترضته قائلا: اتنا سنستلم القناة ونديرها بأنفسنا في عام ١٩٦٨ ، ولم يحتمل الرجل تلك الكلمة فغضب أيما غضب وشاركه في غضبه الأجانب الذين يسمعون له ، وانسحبت من المائدة وفي قلبي جرح شديد .

وشاء الله أن أصل الى لندن وأحاول قراءة شيء عن القناة فينفتح لي مصادفة ، دون أن أطلب ذلك أرشيف غني بالوثائق الخطيرة ، وحينئذ أقسمت فيما بيني وبين نفسي أن أوجه ايراد مكنتي وكل امكانية تصل ليدي لهذا الموضوع فأنقطع له وأتخصص فيه لأترافع في هذه القضية وأميط اللثام عن هذه المسألة .

وتعددت بعد ذلك رحلاتي لأوربا ، وطرقت دور المحفوظات الرسمية وغير الرسمية ، فلم يوصد باب واحد حتى باب الشركة الاستعمارية في باريس ، اتيح لي أن أدلف منه الى محفوظاتها وأن أطلع على البيانات المطلوبة في نهم شديد .

وكنت متكرراً تحت ستار وظيفة عارضة بسفارة مصر في باريس ، وتحققت النقطة الأولى من البرنامج في ٥ يوليو سنة ١٩٥١ يوم أن نوقشت رسالتي بكلية الحقوق بجامعة باريس في موضوع قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ، وبعد جدل طويل أعلنوا أنهم يخالفوني الرأي ، ولكنهم يسمون بوثائقي وبراهيني ، وقوة الرسالة من الناحية الفنية فيمنحوني الدرجة العلمية .

وفي اليوم التالي بإدريت بالاستقالة ، ثم عدت لبلادي وقدمتها معركة قلمية مطالباً بتصفية الشركة الاستعمارية. مجلدات وكتب ومؤلفات ومقالات وخطب ومحاضرات ، في كل ندوة وفي كل معهد وفي كل مكان عام ، والشركة تتعقبن وتطاردنني ، مستعملة أموالها وجاهاها فتوصد أبواب الصحف في وجهي ، ثم لا ألبث أن أصدر صحيفة (قناة السويس) ، وتحارب الصحيفة في السوق ،

فأرسلها للقراء بالبريد ، وتسرق الأصول من المطابع فأشتري مطبعة ، فتحارب المطبعة المتواضعة ويسخر من يقاضيني بدعوى ازعاج سكان حي جاردن سيتي ، وكان المبنى يتألف من مسجد ومطبعة ودار لقناة السويس « فيهدمون الدار بيد خفية أثناء سفري ، وأحاول إعادة البناء فلا أجد الإمكانات ، فأسافر الى الريف لأزرع الطماطم والأرز متربصاً وغير مستسلم للناس » .

ثم يكون بالطبع ما تحقق من تأميم قناة السويس عام ١٩٥٦ .

* * *

هذا عمل فكري استغرق عشر سنوات ، أصدر صاحبه كتاباً في خمس مجلدات كبيرة هي « قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة » ، درس فيها هذه القضية منذ إنشاء القناة في منتصف القرن التاسع عشر الى تأميمها في منتصف القرن العشرين ، وقد سلخ في هذا العمل جهد سنوات طويلة باحثاً في دور محفوظات الدول الغربية عن المصادر والأسانيد .

غير أن مصطفى الحفناوي كان له تاريخ قبل هذه الدراسة ، وجهد في مجال الفكر أكسبه أسلوباً عربياً ناصعاً وقوة عارضة في الجدل والبحث ، فقد كان قريب الاتصال بالحركة الوطنية في خط مصطفى كامل ومحمد فريد ، وهو الخط الوحيد الذي ظل سليماً فترة طويلة من الزمن ، وقد مس كل من اتصل به بروح الايمان والاخلاص ، ولقد كان دائماً يربط بين ثقافته المعصرية والثقافة العربية الاسلامية ، ويؤمن بقدرة الأمة العربية على النهوض والحياة والتفوق ، غير أن قضية قناة السويس كانت محوراً أساسياً لتفكيره كله . ومن أجل هذا فهي عنده مصدراً لتفسير كل تصرفات الاستعمار والنفوذ الغربي ، يقول : « إن قناة السويس مع ما توحى به من أنها أداة خير عام ، لم تكن الا مؤامرة اشتركت فيها دول أوروبا الكبيرة منذ أقدم العصور ، بل أكبر وأخطر مؤامرة عرفها التاريخ ، أرادوا بها احتلال مصر من أجل القناة بمعرفة دولة أوروبية » .

وهو يدرس تاريخ العالم وتاريخ مصر من خلال قناة السويس من وجهة نظريتين : إرتباط كل قضايا الاستعمار والنفوذ الأجنبي بقناة السويس ، وامتداد حركات الغزو العسكري السيامي منها .

ويمكن القول بأن « مصطفى الحفناوي » قد إختص بقطاع فكري كانت تبرز فيه مجموعة من المفاهيم الخاطئة التي حاولت أن تفرض نفسها ، وقد إستطاع بدراسته وما وصل اليه من البحث والوثائق ، أن يكشف هذه الأخطاء ، ويصحح هذه المفاهيم . غير أنه لا يرى نفسه رائد هذا البحث ، ويعترف بالفضل للذين سبقوه في هذا المجال ، يقول : « لست أول مصري تصدى لتاريخ قناة السويس ومسائنها بالبحث والدراسة ، فقد سبقني « طلعت حرب » في رسالة قيمة عن قناة السويس ، والدكتور حسين حسني » .

ونذكر في هذا المجال أبحاث : المرحوم محمد فريد في القديم ، والدكتور محمد صبري في الحديث . غير أن الدكتور الحفناوي كان بحق صاحب التخصص في هذا المجال .

وقد أصدر أربع مجلدات ضخمة في هذه القضية : « قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة » كما أصدر عديداً من الكتب المختصرة حول هذه القضايا .

* * *

وفي مجال « الفكر العربي الاسلامي » يبرز الدكتور الحفناوي بنصاعة مفاهيمه حين يتعرض هذا الفكر لاتهام أو انتقاص ، فقد صادف بعض دعاة التغريب في إحدى الندوات ينكرون فضل حضارة العرب على الحضارة الغربية ، هنالك اندفع في حماسة العلماء ينتقد آرائهم من وحي اللحظة الحاضرة كأنه يقرأ في كتاب^(١) ، ومن ذلك قوله :

(١) نشرنا نص هذه المحاضرة في كتابنا « معالم الأدب العربي المعاصر » : الثقافة العربية ص ١١٠ .

« إن مفخرة روسو وركن الثورة الفرنسية الركين هو (العقد الاجتماعي) وما هذا العقد الا فكرة (البيعة) في الفكر العربي الاسلامي سرقها روسو وصاغها وأخرجها بأسلوبه » .

إن علينا قبل أن نتورط فيما يردد البعض من ضرورة الأخذ بحضارة الغرب (يقصد الفكر الغربي لا الآلة) أن نقف على رأي الغرب نفسه في حضارته ، يقول السياسي الألماني (فون باين) : نحن الآن على حافة الهاوية ، ذلك لأننا تقدمنا في العلم حتى صرنا عبيد العلم ، وتفننا في الاختراع فأضحينا عبيد الاختراع ، وتمادينا في استخدام الآلة الى أن حكمتنا الآلة ولم يبق الا بارقة أمل ضعيفة ، لا أظن أننا سنهتدي اليها ، هذا الأمل الوحيد في النجاة هو أن نؤمن بأن هذا الكون له خالق ، وأن هذا الخالق قد وضع له قوانين ، وما على الانسان إلا أن يسير طبقاً لهذه القوانين ، فإن فعلنا ذلك تحررنا من العبودية ، واستطعنا أن نحكم العلم والاختراع والآلة جميعاً ، وبذلك تنجو الانسانية كلها من الهوة التي تقف على حافتها

لقد تحدث محدثنا - يقصد الباحث الذي يرد عليه - عن مدنية الاغريق ، ونسب اليهم حضارة العرب والمسلمين ، وجرد هؤلاء من كل فضل ، وكنت أرجو ان يدلنا على كتب الاغريق التي قرأها أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » والتي ساعدته في إقامة دولة عظمى كانت ذات نظم رائعة في السياسة وفي الإدارة ، ولكنني سأقدم السند العكسي فأقول له أن الناس في عصور الاغريق والرومان كانوا يباعون بيع السلع ، وكان الآدميون ملحقين بالأشياء والدوب ، فلم تعرف حقوق الفرد ، ولم تظهر حقوق الانسان الا بالرسالة العظمى : رسالة الاسلام ، الناس سواسية أمام الله ، لا فضل لعربي على عجمي ولا تفریق ولا تمييز بين لون ولون وجنس ... الخ » (ا. ه) .

* * *

وإذا كان لنا أن نربط بين هذه المفاهيم وبين قضية قناة السويس وجدنا ذلك سهلاً يسيراً ، فإن الدكتور الحفناوي يرى ان حفر قناة السويس كانت متصلاً بالحروب الصليبية والمحملات التي قادها الغرب لانتزاع العالم الاسلامي العربي والسيطرة عليه ، وأن من بين المؤامرات التي رسمت لهذا الغرض هي مؤامرة حفر قناة تصل بين البحرين الأبيض والأحمر ، تسيطر عليها أوروبا ، وهي فكرة بدأت عام ١٢٤٩ م في وثيقة قدمت لأحد ملوك أوروبا ، وظلت هذه الفكرة حية في نفوس المستعمرين حتى جاء نابليون الى مصر ، وحتى نفذها دلبس في منتصف القرن التاسع عشر ، ومنها سيطرت دول الاستعمار على العالم العربي كله .

وقد ظل « مصطفى الحفناوي » يدعو لقضية قناة السويس ويكافح من أجلها حتى تحقق أمله عام ١٩٥٦ بتأميم قناة السويس وسيطرة الأمة العربية بمثلة في مصر الثورة لهذا المر المائي الخطير الشأن .

- مصطفى الحفناوي : من خريجي كلية الحقوق المصرية ، والمحامي الذي جعل قناة السويس قضيته الكبرى ، وكان من رجال الحزب الوطني .
- من مؤلفاته : قانون البحار الدولي في زمن السلم ، الدعاية السياسية والاستقلال ، فكرة الدولة في الاسلام ، ابن سعود سياسته وحروبه ، أصل الحضارة .

هلال ناجي الزهاوي وديوانه المفقود

إن جميع الظواهر الفكرية التي بين أيدينا تكاد تقنعنا أننا دخلنا عهد الموسوعات والأبحاث الجامعة ، والتحقيقات الأدبية الشاملة . فبعد أن كنا في الثلاثينيات والاربعينيات من هذا القرن نغنى بالأجزاء الفكرية والقطاعات الفكرية المختلفة من حياة المفكرين ودراسات الأعلام ، تجدها اليوم قد دخلنا منطقة الشمول والبحث الجامع . وأمامنا في السنوات الأخيرة عديد من الدراسات المتنوعة الجامعة عن كثير من أعلام التاريخ والفكر والأدب والشعر ، فقد ظهرت دراسات عن : الجبرتي والكواكي وشوقي وحافظ ومطران والأفغاني وجبران .

ولقد كان متوقعا أن تظهر دراسات جامعة عن الرصافي والزهاوي وأحمد محرم وزكي مبارك وهيكمل وغيرهم .

وقد أغنانا الشاعر العراقي العربي « هلال ناجي » حين قدم من قبل دراستين عن « الرصافي » هما : « من حياة الرصافي وأدبه » و « القومية والاشتراكية في

شعر الرصافي» . وكنا نتوقع أن نجد بين أيدينا دراسة جامعة شاملة عن « الزهاوي » بعد أن مر اليوم أكثر من ربع قرن على وفاته .

وهلال ناجي - فوق أنه شاعر وصفه بعض النقاد بشاعر اللحظات المضيئة ، وفوق أن شعره القومي العربي الوجداني في حاجة الى دراسة مستقلة فإنه باحث لامع ، له أدوات الباحث وكفائته ووسائله العلمية ، القائمة على التحقق والمراجعة ، ومعارضة النصوص ، والوصول الى الحقائق على النحو الذي يشهد له بالإنصاف والتجرد .

وهو من طائفة « الشمول والإغناء » وهي طائفة قليلة العدد في عالمنا العربي - وأعتقد أنني واحد منها - على الرغم مما يوجه لهذه الطائفة من نقد من حيث الاهتمام بتقديم أكبر قدر ممكن من النصوص والأسانيد ، فهو يريد في كتابه « الزهاوي ودويوانه المفقود » أن يقدم للقارئ كل ما يتصل بموضوعه بحيث لا يوجه الى أي مرجع آخر عنه ، فقد استعرض كل ما كتب عن الزهاوي في حياته وبعد مماته من دراسات تمتد أكثر من أربعين عاماً في عمر الزمن ، وتشمل مؤلفات أربعة عنه كان لي شرف الاسهام في اعداد واحد منها وهي : الزهاوي الشاعر : إسماعيل أدهم ١٩٣٧ ، حقيقة الزهاوي : مهدي عباس العبيدي ١٩٤٧ ، محاضرات عن الزهاوي : الدكتور ناصر الحاني ١٩٥٤ ، الزهاوي شاعر الحرية : أنور الجندي ١٩٦٠ ، ٢٤ مقالاً وبحثاً نشرت في الصحف والكتب خلال هذه الفترة ، وعني الأستاذ هلال بأن يلخص آراء الكتاب والباحثين عن الزهاوي ويراجعها ويحققها ويصحح ما ورد بها من أخطاء وما اتصل بحياة الشاعر أو أدبه من تحريف .

وقد جاء الكتاب مرجعاً شاملاً لحياة الزهاوي وأدبه محققاً وقائع حياته ، مستوعباً لكل ما يتصل به من قريب أو بعيد في أبواب ستة هي :

١ - حياة الزهاوي ٢ - آثار الزهاوي ٣ - شعر الزهاوي « وهو أطول

فصول الكتاب وقد بلغ ١١٠ صفحات « ٤ - الشعر والشعراء عند الزهاوي
■ - الزهاوي في نظر المستشرقين ٦ - الزهاوي في آثار الباحثين .

ثم ضم الكتاب ديوان « النزعات » وهو الديوان الذي قرأنا عنه كثيراً منذ أودعه الزهاوي لدى سلامة موسى في القاهرة عام ١٩٢٤ ، وظل المعنويون بالدراسات الأدبية والشعرية يتطلعون اليه حتى استطاع هلال ناجي أن يظفر به ، ويحقق بإخراجه نصراً أدبياً لا شك فيه ، وقد عني الباحث بأمور على قدر كبير من الأهمية في البحث العلمي منها :

- الاهتمام بتقديم النصوص الكاملة للآثار التي دار حولها البحث طويلاً وليست تحت يد الباحثين كاملة ، من ذلك قصيدة الزهاوي المشهورة في مدح الانجليز ومقاله في المؤيد عن تحرير المرأة .

- الاهتمام بعقد المقارنة لأول مرة بين الزهاوي والمعري .

- العناية الشاملة بتحقيق الوقائع والكشف عن الجوانب الغامضة .

- الانصاف للزهاوي مع الانصاف للتاريخ ، فان الكاتب الذي اهتم أبلى بالاهتمام بأن يقدم دراسة منهجية شاملة لحياة الزهاوي وأدبه ، أساسها التقدير لشخصية الشاعر الكبير ، الذي لم ينصف على النحو الذي هو جدير به ، لم يتردد في أن يحصي عليه أخطائه ويسرد مؤاخذاته .

- حقق وقائع حياته وناقض الزهاوي نفسه في مذكراته الخاصة ، عندما أشار الى محاولة الجماهير قتله بسبب مقالة نشرها في المؤيد عام ١٩١٠ في الدفاع عن المرأة ، وهي قصة ردها جميع مؤرخيه وأنكرها الباحث ، وكذلك ما قال عن نفسه من أنه أول من هاجم الاستبداد العثماني ، وأول من دافع عن المرأة شعراً ، وأول من كتب القصة الشعرية .

ولقد لخص هلال ناجي الدوافع التي دعت الى إعداد هذه الدراسة وأجلها في :

١ - أن الزهاوي قد غبن ميتاً بعد أن غبن حياً . فهو لم يظفر ببعض ما ظفر به أقرانه ومعاصروه الذين ألفت عنهم الرسائل الجامعية كالرصاصي والكاظمي . فأراد أن ينتصر له بحكم أنه رجل قانون ينتصف للمغبون .

٢ - وأن الزهاوي كان قريباً دائماً من نفسه ، فقد كان يمر في غدوه ورواحه الى المدرسة على ضريحه .

٣ - نشر ديوانه المفقود الذي ظل مطوياً أكثر من ثمانية وثلاثين عاماً . يقول هلال ناجي في تصوير دوافعه لدراسة الزهاوي :

كنت أمر بقبره في غدوتي الى المدرسة وفي رواحي منها ، وكلما نظرت الى ضريحه جالت في خاطري الرغبة في دراسة هذا الشاعر الكبير ، كان أكثر ما يشيرني إشارة عدد كبير من الكتاب الى واقعة تأثر « بفيلسوف المعرفة مجرد إشارة ، دوغما تفصيل أو تعريف يشبع فضول الأديب أو المتأدب ، فما من دارس عرض لشعرهما الفلسفي فوازن بينها وأماط اللثام عن مواضع الائتلاف ومواطن الاختلاف .

و كنت أحس بقول الزهاوي مخاطباً « أبا العلاء » يدوي في أعماقي :

إني تتلمذت في بيتي عليك وإن أبلت عظامك أزمان وأزمان

ثم لفتني مشاغل الحياة في دوامتها بعد تخرجي ، حتى إذا كان صيف عام ١٩٦١ وكنت آنذاك في سوريا فأتيت لي زيارة - معصرة النعمان - ووقفت بها أستقرأ القراب أحداث الزمن وأستروح روائع المعري في مسقط رأسه ومريضه ، وعادت الفكرة تلح علي من جديد « الزهاوي معري هذا العصر » : هكذا قال طه حسين .

لقد شارك الزهاوي فيلسوف المعرفة أبا العلاء عرشه في الجلوس على قمة الشعر العربي الفلسفي : هكذا قال اسماعيل أدهم .

و كنت أشعر أننا كعراقيين مدينون لأبي العلاء كثيراً ، لقد أحبنا حباً جماً ،
فقال في بغداد ما لم يقله غيره ، وقال في عراقنا الحبيب :

كلفنا بالعراق ونحن شرح فلم نتم بها الا كهولاً
وردنا ما أدبنا خير ماء وزرنا أشرف الشجر النخيل

* * *

و خلاصة رأي المؤلف في الزهاوي أن شعر الزهاوي يجمع بين التجديد
والتقليد في صعيد واحد ، ففي الوقت الذي يتجنب فيه المحسنات اللفظية
والبديعية ، نجده يحاكي كثيراً من القدماء في أسلوبهم ، وقد عرض لأهم نقد وجه
لشعر الزهاوي ، وأن شعره مبعثه الفكر لا القلب . فقال : أن مهمة الشاعر في
الأصل أن يكون خالق صور ، لكن الشاعر العبقرى هو الذي يستطيع أن
يكون خالق أفكار الى جانب ذلك ، وخالق عواطف عن طريق هذه الأفكار .
وقال أن الزهاوي في غمرة سعيه لأن يكون خالق أفكار أهمل أحياناً ومن غير
قصد وظيفة الشاعر الأساسية : خالق الصور . وقد وجه هلال اهتمامه لدراسة
الشعر الفلسفى للزهاوي ، باعتباره أبرز فنون شعره ، في عرض مستفيض
واسع ، تناول كل فنون شعره وأفانين النظم عنده ، وعرض للقضايا التي أثرت
حول اتهامه بالإلحاد وإنكار الألوهية ، وجلا هذه الجوانب ، وأشار الى تأثيره
بالمعري والمتنبي وشار والنواس والحيام . والى أنه تأثر أيضاً بالرصافي ، فقد
حاول محاكاته ومجاراته في اختيار البحر والقافية والموضوع ، وأنتت تشعر في
كل مقارنة أن الكاتب يجد الرصافي ويضعه فوق الزهاوي ويرى أنه (شاعر
مكافحة الاستعمار وعملائه) . وان له رصيذاً من شعر كفاح استبداد الملوك
والأمراء لا نظير له في شعرنا العربى المعاصر . وأفرد الكاتب فصلاً لمؤاخذته
للزهاوي ، فأشار الى أنه بعد أن هجا السلطان عبد الحميد في رائعته « أيام
ظل الله في أرضه ... الخ » عاد فاستجد ومدحه مدحاً جليلاً في كتابه « الفجر
الصادق » .

وأحصى عليه أنه في كتابه هذا دعا الى تدمير فرقة الوهابية التي نقدت بيعة
السلطان وخرجت على طاعته ، في حين نراه بعد سنوات يمدح الملك الوهابي عبد
العزيز آل سعود .

كما أحصى عليه أنه لما ثارت ثائرة الناس عليه بسبب دفاعه عن المرأة ، المنشور
في المؤيد ، دفع بعض صحبه الى أن ينشروا في المؤيد أنها مدسوسة عليه ، وأخذ
عليه مدحته للإنجليز في قصيدته المشهورة التي نشرها في ديوانه الكلم المنظوم .
وكان الزهاوي قد حاول الدفاع عن هذه القصيدة بأنه إنما قالها قبل أن تحدث
الحرب العالمية ويحتل الانجليز العراق .

وتقصي هلال فاجي الزهاوي في هذا العام ، وقال أنه عاد فنشر القصيدة
مرة أخرى أيام الاحتلال في جريدة العرب التي كان يصدرها الاستعمار البريطاني
في العراق . وذلك بعد أن سبها وغير بعض ألفاظها .. وكشف عن قصيدة
أخرى في ديوانه مدح بها الانجليز أيضاً . وأخذ عليه موقفه من ثورة العراق
عام ١٩٢٠ ، وتقلبه في هجاء الشوار حينما تم رثاء الشهداء حيناً آخر ، فضلاً عن
تحيته الشعرية لأول مندوب سامي بريطاني الى العراق .

وكان تقديم ديوان « النزعات » في هذا الكتاب عملاً جديراً بالإشارة اليه ،
فقد عرف أن هذا الديوان قد أودعه الزهاوي إبان زيارته لمصر عام ١٩٢٤ عند
سلامه موسى ، الذي أعاره الى الدكتور زكي أبو شادي ، ثم توفي سلامه وهاجر
أبو شادي . وقد أراد هلال فاجي بعد قدومه الى القاهرة أن يستقصي الأمر في
هذا الديوان ، حتى أتبع له أن يحصل على نسخة منه عام ١٩٦١ ، وقد أجرى
تحقيقاً شاملاً حول نصوص الديوان للتأكد أنه من نظم الزهاوي وفق الأسلوب
العلمي الحديث ، وقد أشار الى هذه المراجعات وقال أن الزهاوي أطلق عليه
اسم « النزعات أو الشك اليقين » ، خلافاً لما أورده سلامه موسى « نزعات
ابليس » أو أمين الريحاني « نزعات الشيطان » وقد صدره بعبارة غامضة :
اختلف في صاحب هذا الشعر . فمن قائل أنه لجماعة من الفلاسفة كالرئيس علي بن

سينا ، أو ابن رشد ، أو ابن كمونة البغدادي . ومن قائل أنه لفيلسوف كان في زمن الغرور في حياته مادياً فقال ما قال من شعر كله شك ، ثم ظهر له الحق فعاد روحياً وقال ما قال من شعر كله يقين .. وقد عرض الكاتب لقضية شك الزهاوي ويقيه ، فأكد بأنه في شعره اليقيني يمتاز بصدق الشعور ، وفي شعر الشك يبدو عليه التكلف .

وبعد : فإن هذا الكتاب جهد طيب قدم للعمل العربي عملاً جديداً، وأضاف الى المكتبة العربية ثروة نافعة تعين الباحثين وتكشف أمامهم الطريق الى كثير من الحقائق التي كانت مجهولة من قبل ظهوره .

● هلال تاجي : المحامي الدبلوماسي ، الشاعر العراقي ، من مواليد سنة ١٩٢٨

بغداد ، طوف بالعالم كله في رحلات متعددة ، وسفر لبلاده في إسبانيا وإيران وتونس ، أقام في مصر فترة خلال حكم عبد الكريم قاسم فأصدر عديداً من المؤلفات والأبحاث، وله دواوين شعر وأبحاث في الشعر والنثر والنقد الأدبي .

من مؤلفاته : الفجر آت يا عراق (ديوان) ، صفحات من حياة الرصافي ، شعراء معاصرون (بالاشتراك) ، حتى لا ننسى ، الشابي ، الزهاوي وديوانه المفقود ، محنة الفكر في العراق ، ساق على الدانوب (ديوان) ، شعراء اليمن المعاصرون ، شعراء تونس القدامى ، الخ...

وديع فلسطين قضايا الفكر العربى

الأستاذ وديع فلسطين : كاتب خصب الانتاج ، موفور الثقافة ، عميق أوجه الفكر ، من أبناء تلك المدرسة الوسطى التي تجمع بين القديم والجديد وثقافة الشرق والغرب على هدى وبصيرة ، وقله لا يتوقف عن الانتاج ولا يكف هو عن العمل في ميدان الفكر العربى بأصاله وإيمان وعمق . يكتب في الصحف العربية والافرنجية ، ويؤلف الكتب ، ويترجم الأبحاث التي تحتاج اليها ثقافتنا العربية في هذه الفترة الدقيقة من حياتنا الفكرية ، التي تحتاج الى مزيد من جهود المفكرين والباحثين .

وقد صدر له في القاهرة كتاب عن فن من فنون الصحافة لم يترجم فيه من قبل ، على كثرة ما ترجم عن فنون الصحافة المختلفة في الفترة الأخيرة . ذلك هو (استقاء الأنباء فن) حيث يرسم الكتاب المبادئ العامة لاستقاء الأنباء وروايتها وتحريرها ، ويضرب الأمثلة العملية لتطبيق هذه المبادئ .

والكتاب يمتاز بأنفراده بالبحث عن « فن الأنباء وصناعة الخبر » ، وهو ليس أول ما ترجم الكاتب ، الذي عني من قبل بترجمة عدد من الكتب في فنون مختلفة ، لعل أبرزها ترجمته لمسرحية « الأب » للكاتب السويدي أوجست سترند برج ، كما ترجم عدداً من القصص والفصول التي نشرتها الصحف خلال خمسة عشر عاماً وان لم تجمع بعد في كتاب .

ووديع فلسطين « مفكر » منوع الخصائص ، متعدد الجوانب . وهو هنا مترجم بارع قد أحاط باللغتين العربية والانجليزية إحاطة دقيقة . قد أتبع له حظ وافر منها ، يوحى بالاطمئنان الى قدرته وعمقه ودقته في نقل منطوق الآثار التي يترجمها ، مع المحافظة على روح كاتبها واتجاهاته ، وهو واحد من مترجمينا المبرزين الذين استطاعوا أن يترجموا الى العربية ومنها في سهولة واضحة .

ويرجع هذا في الأغلب الى أنه واحد من أبناء « مدرسة المقتطف » ، هذه المدرسة البعيدة الأثر في تاريخنا الأدبي المعاصر ، والتي حملت لواء ترجمة العلوم والآثار الفكرية الى الأدب العربي خلال ثمانين عاماً ، فقد اتصل منذ صدر شبابه بالأستاذ فؤاد صروف رئيس تحرير المقتطف ومحرره مع عمه الدكتور يعقوب صروف خلال أكثر من أربعين عاماً . ولعل اتصاله في مطلع شبابه بمدرسة المقتطف هو الذي رسم مخطط حياته الفكرية الى اليوم والى أمد طويل . ولعل هذا هو الذي كوّن له هذه الثقافة المتنوعة الممتزجة القائمة على ذلك الأسلوب التقريري ، والتي تجمع بين الكتابة في الأدب والاقتصاد والعلم ومسائل الفلسفة وعلم النفس .

وإذا كنا الآن في صدد كتاب وديع فلسطين المترجم ، فإنه من الخير أن نعرض لمذهبه في الترجمة الى اللغة العربية كما رسمه في كتابه (قضايا الفكر في الأدب المعاصر) ويتلخص في : « أن باب الترجمة مفتوح على مصراعيه . ليس عليه حراس ولا عسس ، يلجّه كل من شاء دون أدنى تخرج أو تردد . والكتب الغربية الجديدة والقديمة يحيط لا قرار له . وهي بمبادتها السمينّة تغري لا بالقراءة

وَحَسْبَ بَلْ وَبِالترجمة أيضاً .. ثم هاجم الترجمات الركيكة التي لا ترتفع الى المستوى الشافي شكلاً وموضوعاً . والتي تبدو عليها سمات العجمة ، وتشوبها أخطاء في النحو والصرف ، مما يورث عدم الثقة في الكتاب المنقول . كما نسد باختصار الترجمات اختصاراً يبعدها عن استيفاء شرائط الأمانة الأدبية ، مما يضطرب معه السياق ، وبذلك تكتنف الخلخلة جميع فصول الكتاب فضلاً عن الأغلاط الخاصة بالأسماء والأشخاص والأماكن والمواقع .

ويرد ذلك كله الى فقر في الخبرة ، إذ أنه لا يمكن تملك ناحية الترجمة الا بالمران الطويل سنوات عديدة ، شأنها في ذلك شأن غيرها من فنون الحياة ، لا يحيدنها المرء الا بالمعاناة والمصاهرة والمجادة ، وكذلك يرجع النقص في الترجمات الى افتقار الى الإلمام باللغتين اللتين ينقل من إحداها الى الأخرى . وهو يرى في المترجم أن يكون مجراً في لغتين كي لا يتخبط في الفهم وبالتالي في الترجمة ، فأول الترجمة فهم ، ولا يسع أحداً أن يترجم شيئاً لا يفهمه فهماً صحيحاً . والفهم لا يتأتى الا بإجادة اللغتين اللتين يشتغل المترجم بهما . والإجادة لا بد أن تشمل القواعد والبلاغة والآداب وأسرار اللغة بل شذوذها . لأن لكل لغة شذوذاً كما أن لها عبقرية . فال مؤلف الأعجمي حين يكتب مصنفاً ، يستعين بالاستعارات والتشبيهات وبالأثر الأدبية في لغة ، وبالأمثلة الشائعة على السنة بني قومه . وهو في ما يكتب يعكس ثقافات عصره وأساليب التفكير فيه وطرائق التعبير الشائعة . وهو قد لا يفصح في مواضع لأسباب يرتأها هو فيلجأ الى الرمز . ويتكلم بمبارات تحتل معاني متعددة . وكل هذا يجعل مهمة الترجمة مستعصية الا على الذين يجيدون اللغة المنقول عنها إجادة تامة ، والذين يجيدون اللغة المنقول اليها إجادة أتم ، فلا يقوى على الترجمة البليغة إلا بليغ في لغته يتحكم فيها كما يتحكم الطبيب في مريضه .

ويرى : أن عيب الترجمات الحديثة هو إفتقار المشرفين عليها الى ما يمكن تسميته « بالضمير الأدبي » ، فالمترجمون يبيعون لأنفسهم حقاً لا منازعة فيه في

التصرف بالكتاب المنقول كيفما يظيب لهم . ومن ثم صارت أعمال الكتاب نهياً للعابثين من المترجمين الذين لا يرعون حرمة الضمير الأدبي .

ويرى : « أن الترجمة المعتمدة هي الترجمة الكاملة الأمانة ، التي تضيف الى المتن شيئاً ولا تحذف منه شيئاً ، والتي يسموها المترجم أسلوباً ومنهجاً وتعبيراً وتديقاً ، فيحكي الكتاب في لغته الأم » . ويرى « أنه من الضروري أن يقوم بالترجمة من هم على درجة مماثلة في التخصص في هذا العلم أو ذاك الفن . فكتب الهندسة تترك للمهندسين ومؤلفات الطب للأطباء وهكذا .. »

ويكتب وديع عن خبرته في الترجمة فيقول : « لكي يكون المترجم مجيداً يحسن أن تكون الترجمة هوية وعمل في آن ، ويحسن كذلك أن يكون المترجم نفسه أديباً ذواقه يجري قلمه على الطرق ليناً منصاعاً ، له حيلة كبيرة من مفردات اللغة ومترادفاتها ، وله حافظة تعينه على اختيار العبارات الملائمة في الموضع اللائم » . ويرى أن غاية ما يطلب في الترجمة هو أن يحيي العمل المنقول صنواً للعمل الأصيل ونداءً له وكفوؤاً . ويرى وديع : أن الاهتمام في الترجمة ينبغي أن ينصرف الى الكتب التي تعد مراجع ومصادر قبل الكتب التي تعد ترفاً ذهنياً . ونستطيع نحن في ضوء هذه الآراء التي قدمها الكاتب وديع فلسطين أن نرجع الى كتابه المترجم ، فنجد قد حققها على أحسن وجه ، وأنه كان صادقاً في تطبيق منهجه الذي رسمه للمترجم ، فقد سار على نفس المنهج الذي رسمه بالنسبة للتخصص ، حين اختار وهو الصحفي - كتاباً في فن من فنون الصحافة - وأنه اختار موضوعاً ليس له مراجع في اللغة العربية ، وقد توافر لكتابه الأمانة الأدبية ، وبحق مذهبه في الترجمة الذي يدعو الى أن يكون المؤلف والمترجم على درجة مماثلة في التخصص ، كما أنه توافر له في الترجمة ما اشترط في المران الطويل ، وتملك ناصية اللغتين وفهم دقائقها و « شذوذها » .

* * *

ولا يمكن أن ننسى ونحن نتحدث عن « وديع فلسطين » المترجم الذي يعرف حاجات العصر أن نذكر الجانب الكبير من أثره الفكري ، وهو جانب

« الكتابة » في ميدان النقد والإنشاء والدراسة الأدبية ، فهو منذ اشتغاله بالصحافة سنة ١٩٤٤ ، وهو دائب الانتاج والبحث . وقد نشرت له صحف مصر والمهجر وبيروت ودمشق والمملكة العربية السعودية والعراق وباكستان والأردن وفلسطين وتونس والمغرب والكويت والبحرين عديداً من الأبحاث والمقالات والمراجعات ، وقد بلغت هذه الآثار آلافاً متعددة ، لا ندري متى سيسويها صديقنا كتباً ومؤلفات ، ينتفع بها من لم يتحقق له قراءتها في الصحف التي نشرت بها .

وربما كان وديع فلسطين يلقى من التقدير في دوائر الأدب في هذه العواصم العربية أكثر مما يلقى في القاهرة نفسها ، ولعل سر هذا هو استعلائه عن مواصفات النقاد والكتاب ، وبعده عن مجالات الشهرة التي تسلط الأضواء على الكتاب الذين يعملون في الصحافة ، وهم ليسوا في الحقيقة أكثر الكتاب أصالة أو أعظمهم أثراً .

وللأستاذ وديع جوانب متعددة لا بد من الاحاطة بها لكي تكتمل صورته الأدبية ، فهو متصل منذ وقت بعيد بأعلام الفكر العربي ورواده الأول ، وخاصة مدرسة الشام وكتّابها المبرزين أمثال : خليل ثابت و خليل مطران ونقولا الحداد وفارس غر و يوسف نحاس والأمير مصطفى الشهابي . وله صداقات فكرية قامت بالمراسلة بينه وبين عديد من شعراء وكتّاب المهجر العربي أمثال : الشاعر القروي وجورج صيدح .

ويمكن القول في هذا المجال أنه لا يمكن أن يذكر كاتب أو شاعر من أعلامنا الا وقد عقد معه صلة فكرية بالمراسلة أو باللقاء - خلال رحلاته المتعددة الى العالم العربي وأمريكا وأوروبا - ونشأت بينها صلات فكرية ، ودارت بينها مناقشات وأبحاث ، تكون عند كاتبنا ثروة فكرية من الرسائل والخطابات .

ولقد اشتغل وديع فلسطين بالصحافة فترة طويلة ولا زال متصلاً بها ، ومع ذلك فإن الصحافة لم تستطع أن تجرفه أو تجعله ينحرف عن هدفه الاساسي

كمفكر وباحث . وقد عمل في الصحافة على هذا الأساس ، فقد بدأ عمله ربيع ١٩٤٥ كرئيس لقسم الأخبار الخارجية في جريدة المقطم ، ثم لم يلبث أن كتب افتتاحية المقطم بدلاً من خليل ثابت . واستطاع بقدرته الفكرية ومرونة أسلوبه ، وقرائنه المتصلة ، وعمق فهمه للتيارات السياسية والاجتماعية من أن يملأ هذا المركز الضخم خلال خمس سنوات كاملة (١٩٤٧ - ١٩٥٢) ، حين توقف المقطم عن الصدور ، ومع ضخامة هذا الجهد في كتابة الافتتاحية اليومية فإنه لم يتوقف عن إعداد بحوث أخرى متنوعة في الاجتماع والاقتصاد والأدب .

وقد عمل وديع بالتدريس ، حيث اشتغل بتعليم الصحافة في الجامعة الأمريكية ، وواظب على كتابة أسبوعيات جريدة الإنذار سنوات متعددة . وكل هذا يدل على طاقات ضخمة في أعماق شخصية هذا الباحث المفكر ، فإذا راجعنا كتابه (قضايا الفكر في الأدب المعاصر) وجدنا « الناقد الأدبي » لحصاد إنتاجنا المعاصر كله ، على نحو من الإنصاف لعظمة أمتنا ، وتطلع الى عمل عظيم يليق بمكانة اللغة العربية ، ولذلك فهو قد هاجم الأخطاء والانحرافات التي أصيب بها الأدب العربي المعاصر ، ورسم تخطيطاً شاملاً لهذه الجوانب يمكن الانتفاع به الى أقصى حد في خلق « أدب عربي جديد » يتفق مع انتفاضتنا القومية الكبرى . وهو في مجموع آرائه معتدل بعيد عن الانحراف ، لا تجرفه على تيارات اللامبالاة الأدبية ولا مذاهب الشرق أو الغرب ، وإنما يصدر عن إيمان بشخصيتنا العربية القوية الملامح ، التي تفتح أبوابها للثقافات المختلفة لتأخذ منها ما يزيد هذه الشخصية قوة وحياة ويدفعها الى الأمام .

فهو غيور جداً على اللغة العربية حريص على عربيتها بشكل ينحو باللائمة على التيارات التي تحاول أن تغلب العامية أو الشعر الحر ، مهاجماً في غف الذين يتساهلون في قواعد اللغة العربية أو يزدرونها . وهو في استقامة فكره لا يلبث أن يهاجم الاتجاه الذي دعا الى اتخاذ الحروف اللاتينية ، وأنحى باللائمة على ضعف النقد وانحراف رسالته ، وقد وصفه بالسطحية والتحيز ، ودعا الى

التوسع في الترجمة لتغطية القطاعات التي لا زالت في حاجة الى مراجع . وهو في نقده لا يأخذ أسلوب الهجوم اللفظي ، ولكنه يعمد الى موضوعه فيواجهه مواجهة موضوعية ، ولا يلبث بعد أن يصف الداء أن يرسم صور العلاج ووسائله على نحو يدل على خبرة ومراجعة واحترام للقارىء وعناية بقراءة كل ما كتب في موضوعه قبل أن يتعرض له .

وإذا كانت آراء وديع فلسطين في هذا الكتاب لم تدرس على النحو الذي تستأهله ، إلا أنها ستظل « علامات الطريق » تهدي كل سائر في ميدان النقد للأدب العربي المعاصر .

وبعد ، فهذه صورة سريعة لشخصية مفكر عربي ممتاز ، جمع بين التبريز في ميدان الصحافة والكتابة والنقد والترجمة ، وهي شخصية ضخمة وخصبة تحتاج الى مزيد من الدراسات ، وهي ما زالت تشق طريقها الى مكانها الحق ، وما زالت ترتجى منها أعمال أدبية أخرى كبيرة ، تكون بعيدة الأثر في أدبنا العربي المعاصر .

- وديع فلسطين : مصري من مواليد السودان ، تخرج من الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، ورأس تحرير جريدة المقطم ، وأشرف على تحرير مجلة قافلة الزيت ، وهو مؤلف وناقد ومترجم ، له أسلوب مشرق .
- من مؤلفاته : استقاء الأنباء فن (ترجمة) عن ستانلي جونسون ، الأب (قصة) مترجمة عن ستونديج ، وقد شارك في تأليف الموسوعة العربية المعاصرة .

الدكتور يوسف عز الدين الأديب الغزيب والثورة

تتكشف صفحات الأدب العربي المعاصر عن ملامح جديدة تضيء على كتابنا ومفكرينا قوة وحياة ، وفي جميع أقطار الأمة العربية أعلام كثيرون تزداد شخصياتهم عمقاً واتساعاً . وفي العراق يبرز سؤال هام بعد صدور كتاب « شاعرية يوسف عز الدين » ، هو : هل هو شاعر فحسب ؟ وعندني أنه ليس كذلك ، وأن يوسف عز الدين مفكر عربي ، له جوانبه المتعددة ، والشعر جانب من جوانبه . ولقد حاولت أن أجد في كتاب (خضر عباس الصالح) عرضاً لهذه الجوانب : جانب المفكر والناقد والصحفي .

أما جانب الناقد فيه فيكشف عنه كتابه الضخم : « الشعر العراقي الحديث وأثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه » ، وكتاب « شعر العراقي الاجتماعي » . والتحقيق العلمي يكشف عنه دراسته لمخطوطة « شعر الأخرس » . وجانب الصحفي يكشف عنه إشرافه على مجلة « الكتاب » ومجلة « أقلام » .

وحياة الدكتور يوسف عز الدين لم تكن في يوم من الأيام حياة شاعر ،

ولكنها حياة مفكر عربي مكافح . عاش أيامه بين القاهرة ولندن وبغداد ، في جو الحركة الوطنية العربية مؤمناً بها . وقد كونه في الأصل بيثة العراق العميقة الايمان بالقومية العربية ، الصداقة اليقين بالوحدة والحرية .

وآية ما تذهب اليه من كفاحه الوطني ، أن أحيل الى المجلس العسكري أيام نوري السعيد ، وسجن لأنه أُلّف جمعية سرية لتحقيق الوحدة العربية .

ومها قيل من اتساع نطاق شعره الوجداني والعاطفي ، فإنه ظل يعبر عن مشاعره الوطنية في عديد من قصائده . من أبرزها قصيدته حرية الأوطان التي حمل فيها على الاستعمار . ولم يقف أفقه عند بلده العراق ، بل عاش قضية الحرية في العالم العربي كله ، يتمثل ذلك في قصيدته (أيها النيل) وفي (الجلاء) وفي قصيدته عن مراکش وأخرى عن الجزائر .

وحياة (يوسف عز الدين) صورة لهذا الإيمان الصادق بالفكر ، فقد استطاع وهو المدرس الذي يعمل في إحدى قرى العراق أن يكافح حتى يصل الى أرقى الدرجات الجامعية . وأن يرقى الى مركز الصدارة في الجامعة العراقية والمجمع العلمي وجمعية المؤلفين والكتاب العراقيين . وقد لقي في هذا الطريق الطويل المشقة ، حتى أنه فكر في ذات يوم وهو في لندن وقد انقطعت به الموارد أن يعود ، ولكنه حزم أمره واحتمل وصبر حتى مرت الأزمة ونجا من الفرار .

وبالرغم من اتصاله بالبيئات الأجنبية فقد ظل حفيظاً على أمانة أمته العربية وقيمتها ومقوماتها ، ينبض بذلك شعره ونثره . وهو يفهم رسالة الأديب العربي فهماً عميقاً واضحاً ، يفهم هذه الرسالة على أن الأدب هو قائد الأمة وموجهها نحو التقدم والخير والحضارة ، لأنه الصدى الصادق لرغبات هذه الأمة ، والسجل لتياراتها النفسية واتجاهاتها الفكرية .

وعنده أن الأدب العربي أدب تطور مع الزمن في أسلوبه وحاجاته وطاقاته المختلفة . فكان خير هاد ونعم مرشد وأجل مصور لمآثر الشعب العربي وأحزانه ومشكلاته .

وعنده أن هذا التطور قد ظهر عبر القرون واضحاً ، فقد نهضت الأمة العربية من سباتها وأيقظتها قوى الاستعمار التي بدأت تسحق أمانيتها وتلوك أحلامها وتستعين بكل عربي وبكل مقدس لديها .

ويصور يوسف عز الدين كيف استطاع الأدب العربي المعاصر أن يثير كفاحاً مريراً ضد الفكرة الاوربية التي تنادي الفن للفن . وكيف سار نحو خلق جيل مؤمن بأن رسالة الأدب خدمة الشعب العربي والتعبير عن آماله وحاجاته الضرورية ، لأن الفن جزء من حياة الشعب ، والشعب هو الذي يملئ رغباته على الأدب الشعبي الخلاق ، ليدعم النهضة الفكرية ويعيش في مشكلات الأمة بكل كيانه . ومن هنا أخذ الأديب يخرج من برجه العاجي الى تصوير صادق لحاجات الحياة ، وهو يرى أن الأدب الخالد يستند بالدرجة الاولى على عمق التصوير وسعة الأفق والموهبة الخلاقة . وأن رسم البيئة المعاصرة بصدق وتصويرها بأمانة وعمق وتفسير البطولة الشعبية الحقبة تفسيراً صحيحاً يكسب الأديب الخلود . ومن رأيه أن الكاتب العربي هو ذلك الذي يملك العقلية الجبارة على تمثيل الجديد الذي يمر بحياتنا ، ويصور البيئة التي يعيش الانسان العربي فيها ، فيسجل حوادثها العميقة ويصور سكونها في واقعية .

وهو يدعو الأديب العربي لأن يبني بناء راسخ الإمكان للمستقبل العربي ، ويطالب بتوسيع نطاق أدب الأطفال بما يحقق لهم فهم الحاضر العربي ، وحق تتسم حياتهم بالأمل الباسم المشرق . وفي مجال النقد يقول : « لا مشاحة أن النقد في بلادنا متخلف ، لأن روايب الماضي التي تملأ نفوسنا بالحق على ما أصابنا من محن ، وما عصفت بأمتنا من أحداث ، وما أصابنا من جزع وعري وخوف واضطهاد وركز في نفوسنا ثورة عارمة ، لم تكن تقدر على إفراغها إلا بعنف وقوة » من أجل ذلك يرى أنه على الناقد الحديث دراسة مشكلات الأدب الحديث وما تحتاجه الأمة ، وما يتطلبه من أمان عذبة وأن تطبق عليها تجارب النقد الثوري الحديث في سبيل ازدهار النقد والتأكيد على

الحاجات المسلحة المعاصرة . وإيماز الطرف العربي الحاضر لكي نفوز
بتقدم نقدي » .

ورسالة الأديب عنده لا تقف عند هدم المثل القديمة من الذهنية الشعبية ،
بل عليه أن يسير ليبني من جديد ، ويحمي الثورة الفكرية بدراسة كل شيء
جديد في ظروفنا المتنامية ومجتمعنا المتوثب ، وعلى الأديب أن يحارب الظلم
والتسلط في مختلف أنحاء العالم العربي ، لأن التسلط الفردي يقضي على الروح
العربية ، الشيء التي لا تستكين إلا للحق والخير . وما تفتت في أحلامها إلا
بالحرية السمحة في مختلف نواحي وجودها ، وألا يسمح الأديب العربي بعبادة
الشخص مهما كان له من أثر في الحياة الفكرية والسياسة الأدبية ، لأن العربي
الأصيل بطبعه يكره عبادة الأفراد ولا يؤله الشخصيات . لأن عبادة
الشخصيات ليست طبيعة العرب ، إنما جاءتهم من القيادات الأجنبية
والحضارات الغربية .

وليس أصدق دليل من أصالة الروح الوطنية للمفكر العربي في يوسف
عزالدين من فرضه رسالة عن المعاني الوطنية في البلد الذي كان يحتل وطنه
ويعبر على عمله هذا ، ويعدده من أكبر أعماله في مجال الفكر والنقد ،
وقد صور إتجاهه الى هذا العمل حيث بدأ يراجع الصحف العراقية من صدورهما
ويتخذها قاعدته الأولى في البحث ، لأن ما ينشر فيها لا يغير متى اختلفت
سياسة الحكومة واتجهت وجهة جديدة . ثم سافر الى البصرة ، ووجد في
مكتبة باش أعيان بعض هذه الجرائد يقول : « وكنت خلال عملي في تفحص
الجرائد أبعت برسانل دورية للشعراء صغيرهم وكبيرهم ومغمورهم والمشهور
منهم ، وأتصل بمن أعرف منهم - وأعرف جلهم - كما أعلنت إعلانات متنوعة
في الجرائد والمجلات ، ولما أنجزت ما قدرت على إنجازها في العراق سافرت الى
تركيا وبجئت في مكتبات الآستانة . وذهبت الى باريس وفتشت في المكتبة
الوطنية ومكتبة فرسايل ، وفي أثناء إقامتي في انكلترا بحثت في مكتبة
المتحف البريطاني » .

وبعد أن أتم هذا الجهد الضخم في جمع الشعر العراقي الوطني، بدأ في الكتابة باللغة الانجليزية . فكانت مشقة جديدة وجهداً عميقاً الأثر ، وخير معبر لهذا الجهد ما كتبه لصديق في أول أيام وصوله الى لندن ، قال له : « أكتب إليك والقلم يهتز فزعاً من عميق مشاعري وحنيني الى الوطن ، وسأهتز منه فزعاً عندما أكتب بعد ذلك باللغة الانجليزية . فقد كانت الترجمة وخاصة الشعر عسيرة عليّ ، لأنني حاولت نقل أحاسيس الشاعر كما أتحمسها على أن أحافظ على الذوق الأوربي ، فحاولت أن أترجم حرفياً فلم يكن المعنى واضحاً ، ثم أردت أن أترجم المعاني . وكان من العسير عليّ ترجمة التورية والجناس والمحسنات اللغوية الاخرى بسهولة ويسر . وأخيراً فرجت بين الطريقتين فاستقام لي بعض الأمر .. »

وأشار الى أي مدى كان البحث شائكاً فقال : « وأنا عربي وأبحث مشكلات وطني ، وأكتبها للإنجليز الذين سيقرونها مصيري ومستقبلي . وطالما نصحت أن ترك هذا البحث وأن لا أتطرق الى هذه المشكلات ، وأن أخفف من حقيقتها ، ولكنني أبيت الا المضي في الطريق السليم وإبراز الحقائق .. » وهكذا تتكشف صورة طالما انغصى عنها الباحثون ، هي صورة يوسف عز الدين الكاتب المفكر بعد أن شغل الناس طويلاً بشخصية « الشاعر » .

● الدكتور يوسف عز الدين : وكيل كلية الآداب بجامعة بغداد ، وأمين عام الجمع العلمي العربي العراقي ، شاعر تخصص في دراسات النقد والتاريخ الأدبي .

من مؤلفاته : التيارات الأدبية في العراق ، خيري الهنداوي : حياته وشعره ، الشعر العراقي الحديث ، مخطوطة شعر الأخرس (تحقيق) ، لمحات الحياة (ديوان) ، الشعر العراقي : أهدافه وخصائصه في القرن التاسع عشر ، في ضمير الزمن (ديوان) ، ألحان (ديوان) .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مدخل	٥
مفكرون وأدباء	٩
أبو الفضل ابراهيم	١١
ابراهيم الإبياري	١٩
الدكتور أحمد الحوفي	٢٥
أحمد حسين	٣٣
أحمد الشرباصي	٣٩
أحمد عطية الله	٥١
الدكتور أحمد غلوش	٥٧
الدكتور أحمد شلي	٦١
الدكتور بدوي طبانه	٦٧
حمدي حافظ	٧٥
خالد محمد خالد	٨١
خير الدين الزركلي	٨٩
خير ي حماد	٩٥
الدكتور زكي علي	١٠٣
عبد العزيز بنعبد الله	١١٣
تحقيق التراث	
تطور اللغة وبعث التراث	
دراسات الإسلام والقومية العربية	
دراسات الإسلام والإنسانية	
دراسات أعلام العروبة والإسلام	
كتابة الموسوعات	
الدعوة الى الإسلام	
الدراسات الإسلامية	
دراسات النقد الأدبي	
الدراسات السياسية العالمية	
الدراسات الإسلامية	
الأعلام	
الترجمة من الآداب الأجنبية	
الدعوة الى الإسلام	
التحقيق اللغوي والتاريخي	

الصفحة

الموضوع

١١٩	شعر الملاحم	عامر محمد مجيري
١٢٥	تطور الأدب العربي	عمر الدسوقي
١٣٣	نقد الشعر العربي الحديث	عبد العزيز الدسوقي
١٣٩	تراجم أعلام المغرب	عبد الله كنون
١٤٥	دراسات النقد الأدبي	عز الدين الأمين
١٤٩	الترجمة والدراسات الإنسانية	علي أدهم
١٥٧	الدراسات الإسلامية العربية	الدكتور عمر فروخ
١٦٥	الشعر ونقد الشعر	علي الجندي
١٧١	إيقاظ العقل العربي	قدري حافظ طوقان
١٧٧	شعر فلسطين	كامل السوافيري
١٨٥	أدب الطفل العربي	كامل الكيلاني
١٩٣	مجلة الفتح	محب الدين الخطيب
٢٠٧	دراسات الشعر العربي المجهول	الدكتور محمد صبري
٢١٥	التحقيق اللغوي والعلمي	الأمير مصطفى الشهابي
٢٢٥	دراسة القومية والتاريخ العربي	محمد صبيح
٢٣٣	أدب التراجم والترجمة	محمد عبد الغني حسن
٢٤١	الحركة العاقلة	محمد عطا
٢٤٧	كتابة تاريخ المغرب الكبير	محمد علي دبوز
٢٥٣	الإسلام والأندلس	محمد عبد الله عنان
٢٦١	تطور الأدب	الدكتور محمد محمد حسين
٢٦٧	تاريخ قناة السويس	الدكتور مصطفى الحفناوي
٢٧٣	الزهاوي وديوانه المفقود	هلال ناجي
٢٨١	قضايا الفكر العربي	وديع فلسطين
٢٨٩	الأديب العربي والثورة	الدكتور يوسف عز الدين

للمؤلف

(١) « موسوعة معالم الأدب العربي المعاصر » :

- (١) النثر (٢) الشعر (٣) القصة (٤) اللغة العربية (٥) أدب المرأة
- (٦) المعارك الأدبية (٧) الأدب العربي في معركة المقاومة والتجمع
- (٨) الصحافة السياسية (٩) الترجمة (١٠) الفكر العربي المعاصر
- (١١) الفكر والثقافة في المغرب العربي (١٢) معالم الفكر العربي المعاصر .
- (١٣) الثقافة العربية المعاصرة (١٤) معالم الأدب العربي المعاصر (١٥) الشرق في فجر اليقظة (١٦) صفحات مجهولة من الأدب العربي المعاصر (١٨) أعلام وأصحاب أقلام (١٨) من أعلام الأدب والفكر (١٩) من أعلام الحرية .

(٢) الأعلام الألف (صدر منه ٣ أجزاء) .

(٣) أضواء على تاريخ الاسلام .

(٤) تراجم مفردة : أحمد زكي (شيخ العروبة) ، عبدالعزيز جاويش ، فريد وجدي ، زكي مبارك .

الكاتب والمؤلف

ما يزال الأدب العربي المعاصر يقدم كل يوم نتاجاً جديداً وأعلاماً جدداً ، وما يزال يوسع مجالاته ويعمقها في دراسات التاريخ والأدب والتراث والترجمة والنقد والقومية العربية والتراجم .



ومنذ أواخر الحرب العالمية الثانية الى اليوم لا تزال صورة الأدب العربي في العالم العربي كله لم تكتب ، ذلك أنها لا تزال في مجرى تفاعلها وتطورها الذي لم يثبت بعد على صورة شاملة .

لذلك فقد كان من الطبيعي أن يرسم من خلال الأعلام الذين برزوا في هذه المرحلة « اطاراً » لهذه الصورة يكشف عن وجوه التفاعل والحركة في مجال الأدب ، ويصور القضايا والتيارات الجديدة ، ومن هنا كانت هذه الباقية من الأدباء على مستوى العالم العربي بمثابة أضواء كاشفة للطريق .

أما المؤلف « أنور الجندي » فقد تخصص في دراسة وتطور الأدب العربي منذ فجر النهضة الحديثة ، وأصدر موسوعة كاملة بلغت ١٨ مجلداً وما زالت مستمرة في النماء فهو منذ خمسة عشر عاماً يعمل في هذا المجال وما زال يوسعه ويعمقه .

الناشر

الشمس
٤٠٠ ق. ل.
٥٠٠ فلس أو مليم

حفر وطبع مطابع وزنگراف المصري تلخون - ٢٢٩٣٧٩